قضايا وحوارات النهضة العربية

نظرية الشعر

٢ - كتب مدرسة الديوان

تحرير وتقديم :
محمد كامل الخطيب

منشورات وزارة الثقافة
في الجمهورية العربية السورية
دمشق ١٩٩٦

نظريـة الشـعر

٢ ـ كتب مدرسة الديوان

نظرية الشعر : كتب مدرسة الديوان / تحرير وتقديم محمد كامل الخطيب . ــ
دمشق : وزارة الثقافة ، ١٩٩٦ . ــ ٣٦٨ ص ؛ ٢٤ سم . ــ
(قضايا وحوارات النهضة العربية ؛ ٢٣) .

المحتوى : الشعر غاياته ووسائطه / ابراهيم عبد القادر المازني ــ شعر حافظ / ابراهيم عبد القادر المازني ــ الديوان / عباس محمود العقاد ، ابراهيم عبد القادر المازني .

١ ــ ٨١٠,٩٩٦٢ ح ط ي ن ٢ ــ ٨١١,٠٠٩ خ ط ي ن ٣ ــ العنوان (١)
٤ ــ العنوان (٢) ٥ ــ العنوان (٣) ٦ ــ العنوان (٤) ٧ ــ الخطيب
٨ ــ المازني ٩ ــ العقاد ١٠ ــ السلسلة
مكتبة الأسد

الايداع القانوني : ع ــ ١١٨ /١٩٩٦/١٠

تقـديم

يحتوي هذا المجلد من سلسلة « قضايا وحوارات النهضة العربية» والمتعلق بـ « نظرية الشعر » على ثلاثة كتب نظرية هامة في نظرية النقد العربي عموماً ، ونظرية الشعر خصوصاً هذه الكتب هي :

١ ـ الشعر : غاياته ووسائطه ١٩١٥

ابراهيم عبد القادر المازني

٢ ـ شعر حافظ ـ ١٩١٥

ابراهيم عبد القادر المازني ـ ١٩١٥

٣ ـ الديوان (١ ـ ٢) ١٩٢١

عباس محمود العقاد

ابراهيم عبد القادر المازني

ولا بد من كلمة عن كل كتاب من هذه الكتب نقدم بها لهذه الكتب ونحن بصدد اعادة نشرها .

١ ـ الشعر : غاياته ووسائطه : ١٩١٥

ربما كان كتاب ابراهيم عبد القادر المازني (الشعر : غاياته ووسائطه) من أول الكتب النقدية ـ الشعرية العربية الّتي تقدم المنهج النقدي الحديث ، أو نظرية الشعر الحديثة في الثقافة العربية ، ففي هذا الكتاب يصبح ، وللمرة الاولى ، الشعر والنقد الاوربيان هما المرجع في تحديد مفهوم ونظرية الشعر العربي ، عوضاً عن آراء الشعراء والنقاد والبلاغيين العرب القدماء ، فالمازني يتحدث عن آراء وتحديدات الشعراء والنقاد والفلاسفة الاوروبيين للشعر ، أمثال هازلت وشلي وبيرك وسانت بوف ولوك وشليجل وهيجل ، وحتى بيتهوفن ، الى جانب الجاحظ وابن الرومي وابي نواس وأبي تمام والبحتري وعبد القاهر الجرجاني الذي لا يذكر اسمه لكنه يناقش ويرد على نظريته المعروفة في « النظم » ثم ما يلبث المازني أن يأتي برأيه الجديد ، والذي هو رأي مدرسة الديوان عموما،وخلاصته ان مكمن الشعر انما هو في الحياة اليومية وفي الوجدان والفكر ، وليس في مناهج القدماء وعمودهم ولغتهم ودواوينهم وطرائقهم البائدة في التعبير .

٢ ـ شعر حافظ : ١٩١٥

اذا كان المازني قدم في « الشعر : غاياته ووسائطه » منهجه النقدي ونظريته للشعر ، فانه في كتابه الثاني الصادر في العام نفسه (١٩١٥)

يقدم تطبيقاً لنظريته ومنهجه النقدي في الكتاب الأول ، وهو يطبق منهجه على شعر ذائع ومشهور آنذاك ، وهو شعر حافظ ابراهيم .

بالطبع لم يكن المازني ضد الشعر العربي القديم، لكنه كان هو ومدرسته « الديوان » ضد الذين يكتبون في العصر الحديث على طريقة الشعراء القدماء ، دون أي ادراك لتغير الزمن ، ولهذا كان طبيعياً أن يتوجه نقد المازني الى حافظ ابراهيم ، وليس الى شاعر عربي قديم ، وبما ان المازني كان يعد نفسه للشعر كذلك،فيمكننا اعتبار كتاب : شعر حافظ « تصفيه حساب » لشاعر محدث مع شاعر ما يزال يمشي على نمط القدماء ، بكل ما يعنيه ذلك من دلالات اجتماعية وتاريخية وثقافية ، بل وشخصية .

بقي ان نقول ان المازني ولد عام ١٨٨٩ ، وانه بدأ حياته كاتب مقالات وشاعرا ، ثم ما لبث ان تميز بأسلوبه النقدي الساخر ، وبروايته الرائدة «ابراهيم الكاتب١٩٣٣»،وقد ظل طوال حياته مخلصا لقضية الثقافة ،ولم يحاول ان يتوسع في نشاطه الاجتماعي والسياسي شأن زميليه العقاد وطه حسين ، وربما لهذا بقيت شهرته دونهما ، على الرغم من انه يساويهما في الأهمية التاريخية والأدبية . توفي المازني عام ١٩٤٩ .

٣ ــ الديوان : ١٩٢١

كتاب في النقد لأدبي يتم في عشرة أجزاء لمؤلفيه عباس محمود العقاد محرر بجريدة الأهرام وابراهيم عبد القادر المازني محرر بجريدة الأخبار :

ومع الأسف الشديد فان الديوان لم يصدر منه الا جزءان،وفيهما

صفى كل من العقاد والمازني حسابه النقدي مع النظرية الأدبية السائدة، وخصوصاً نظرية الشعر ، وقد تكلمنا كفاية عن المازني وسنتحدث فيما تبقى عن عباس محمود العقاد ١٨٨٩ — ١٩٦٦ .

ربما كان العقاد في خط سيره الحياتي والفكري هو المثال الأوضح لصعود وانتكاسة النهضة والتنوير العربيين ، فمن مجدد وثائر أدبياً وسياسيا في بدايات حياته ، تحول العقاد الى مثال للرجعية والجمود والوقوف ضد الجديد منذ الأربعينات، فهل نستطيع أن نقول ان العقاد الثائر على شوقي وحافظ والمنفلوطي في عام ١٩٢١ هو نفسه العقاد الذي وقف في وجه الأفكار التقدمية عموماً ، والشعر خصوصا ، منذ الأربعينات، وحتى الستينات، أيام أحال شعر صلاح عبد الصبور الى « لجنة النثر » للاختصاص ؟ أم أن الزمان يدور دورته ويلعب لعبته ؟ ألم يتذكر صلاح عبد الصبور موقف العقاد من شوقي ، وهو يرى موقف العقاد من شعره ؟

كان كتاب الديوان ، وخاصة اذا اضفنا اليه كتاب ميخائيل نعيمه « الغربال ١٩٢٣» هما البيان التاسيسي الأدبي للمدرسة الأدبية النقدية في الثقافة العربية الحديثة ، انهما — الكتابان — علامتان فاصلتان في تاريخ النظرية الأدبية العربية . نستطيع أن نتحدث عن ما قبلهما وما بعدهما، وكتاب «الغربال» متداول ومشهور ،أما كتاب «الديوان» فلا يقل شهرة وان كان اندر في الوجود والتداول ، ولهذا نعيد نشره .

كان العقاد والمازني واعيين لما يفعلان في « الديوان » ، فقد دعيا صراحة في مقدمة كتابهما الى « اقامة حد بين عهدين » ودعيا الى « مذهب انساني مصري وعربي » ثم طبقا دعوتهما أو نظريتهما الجديدة

على شعر شوقي وحافظ خصوصاً، وخلال ذلك مرا على المنفلوطي والرافعي ، الا أن الغريب في هذا الكتاب هو وجود فصل فيه كتبه المازني للهجوم على ثالث ركن في « مدرسة الديوان » الا وهو « عبد الرحمن شكري » وأعتقد انها كانت سحابة صيف ، ونرفزة مؤقتة من المازني العصبي الحساس تجاه صديق العمر ورفيق الدرب عبد الرحمن شكري .

ماذا لو استمر الديوان ووصل اجزاءه العشرة ؟ ماذا لو تابع العقاد والمازني طريقهما ؟ ماذا لو تابع العقاد تجديده ، أم ان هذا محال !

كما هو معروف ، في التاريخ الثقافي كما في التاريخ العام ، ليس هناك مجال لـ « لو » .

أخيراً، هذه هي كتب مدرسة « الديوان » الثلاثة نقدمهما مجتمعة للمرة الاولى، ونتمنى على القارىء الكريم أن يقرأ معها كتاب ميخائيل نعيمة «الغربال١٩٢٣» والذي كتب مقدمته عباس محمود العقاد، كطريقة في اعلان التآزر والانتماء الى فكر مشترك ومدرسة تكاد تكون واحدة، هذا اذا اراد القارىء أن يكون فكرة كاملة عن هذه المرحلة .

نأمل ان نقدم قريباً متابعة تطور نظرية الشعر في الثقافة العربية الحديثة فنقدم مجلدا يتابع « مرحلة ابولو » وهي في حقيقتها سير الى الامام في طريق الديوان ، وربما تكون هي الاجزاء الثمانية التي لم يكتبها العقاد والمازني ، وبعدها نقدم « مرحلة شعر » حيث حدث التطور النوعي في نظرية الشعر العربي الحديث ، بل وفي تاريخ الشعر العربي ونظريته عموماً .

محمد كامل الخطيب

١٩٩٤

كتب مدرسة الديوان

- ١ -

الشعـــر

غاياتـــه ووسائطـــه

بقلـــم

إبراهيم عبد القادر المازنى

الطبعة الأولى

١٣٣٣ ــ ١٩١٥

الناشــر

محمد يوسف

مطبعة البوسفور بشارع عبد العزيز

الشـــعر
غاياته ووسائطه

ثـــلاثة روضـــهمُ باكـــر
الصـــب والمجنـــون والشاعـــر

ما أظن بك أيها القارىء إلا أنك تقول مع القائلين إن الشعر أضغاث أحلام ووساوس أطماع ، هبه كذلك ، أليست الحياة نفسها حلماً تنسج خيوطه الأماني والأوجال ، وتسرجه الظنون والآمال ؟ أليست هذه الأحلام مسرح خواطرك في سواد الظلام ، وعزمك الذي تصول به في وضح النهار ؟ أم تحسب أنك تستطيع أن تخلي العالم من هؤلاء النفر « الحالمين » كما أخلا « أفلاطون » جمهوريته منهم ونفاهم عنها مخافة أن يفسد عليه وصفهم الإنسان « الطبيعي » إنسانه « الحسابي » الذي خلقه خلواً من العواطف بريئاً من الانفعالات لا يضحك ولا يبكي ولا يحزن ولا يغضب ولا تغالي به خدعُ الآمال ولا يهبط به صادق اليأس إلى آخر ما ألزمه من الشمائل الحلوة والمناقب الجميلة التي أحالته تمثالا لا يتمثل إلا في خاطر فيلسوف مثله ؟ ؟ على أن جمهورية أفلاطون (الفيلسوف) لمـّا تنسخ عالم هومر (الحالم) ! !

وهب الشعر أحلاماً ، أهي شيء من اختراع الشاعر يخدع به العقول ويضلل النفوس ؟ أم نتيجة ما ركب فيه مبدع الكائنات ؟

فلا متقدِّم له ولا متأخر عن هذه الأحلام إن صح أنها أحلام ؟ أليس الحب والبغض والخوف والرجاء واليأس والاحتقار والغيرة والندم والإعجاب والرحمة مادة الحياة ؟ فأي غرابة في أن تكون مادة الشعر أيضاً ؟

لصدق من قال(١) : إن الإنسان حيوان شعري وإن لم يلقن قواعد النظم وأصوله ! فالطفل الذي يستمع إلى أساطير العجائز شاعر ، والقروي الذي يرى قوس الغمام فيجعله قيد عيانه شاعر ، والحضري الذي يخرج ليرى موكب الأمير شاعر ، والبخيل الذي يقبض كفه على الدرهم شاعر ، والرجل الذي يتندّى على إخوانه ويتسخي على أصحابه شاعر ، وصاحب الملك الذي ينوط آماله بابتسامة ، والمستوحش الذي ينقش معبوده بالدم والرقيق الذي يعبد سيده ، والظالم الذي يحسب نفسه إلهاً : والمزهو والطامح والشجاع والجبان والسائل والسلطان والغني والفقير والشاب والشيخ وسائر من خلق الله ، ما منهم إلا من يعيش في عالم من نسج الخيال وسرج الأوهام ! .

« ليس الشعراء . . . محدثي اللغات ومبتدعي فنون الموسيقى والرقص والحفر والتصوير والتصوير فقط بل هم أيضاً واضعوا الشرائع ومؤسسو المدنيات ومبتكرو فنون الحياة ، وهم الأساتذة الذين يصلون ما بين الجمال والحق وبين عوامل هذا العالم المستتر الذي يدعوه الناس الدين . . . ولقد كان الشعراء في العصور الأولى التي مرّت بهذه الدنيا يسمون تارة مشرعين وطوراً أنبياء حسب العصور التي ظهروا

(١) وليام هزليت من مقدمة نقده شعراء الإنجليز .

فيها والأمم التي نبغوا منها ، صدق الأولون فان الشاعر جامع أبداً بين هذين في نفسه لأنه لا يقتصر على رؤية الحاضر كما هو ولا يجتزىء باستطلاع القوانين والأنظمة التي ينبغي أن تنزل على حكمها أموره(١)، بل يستشف المستقبل من وراء الحاضر ، فليست خواطره إلاّ بذرة الزهرة التي يجنيها الزمن الأخير ونّوراته ، وما الشعر إلاّ موقظ الأمم وباعث الشعوب ورسول الانقلابات في الآراء والتقاليد . . . والشعراء هم قساوسة التنزيل الإلهّي ورسل الوحي القدسي وشرّاح الحكمة الربانية . . وهم المرايا التي تتراءى في صقالها أظلال المستقبل الضخمةُ الكثيفة الملقاة على الحاضر . . وهم اللفظ الناطق بما لا يفهمون ، المعبر لا يدركون . . وهم قبل وبعد المشرعون الذين لا يعترف بهم الناس»(٢) .

على أنه من الثابت الذي لا سبيل إلى دفعه أن مرتبة الحيوان كائناً ما كان رهن بحالة جهازه العصبي وأنه كلما ارتقى اكتسب جهازه العصبي منزلة جليلة وصفة خطيرة تبعاً لهذا الرقي ، والجماعات كالأفراد في نشوئها وارتقائها فكلما زادت حياتها تعقيداً(٣) صار للفكر فيها مثل منزلة الجهاز العصبي في الفرد وصار الأدب بمعناه الأوسع ومدلوله الأشمل عنواناً دقيقاً على نشوئها الاجتماعي ، ومن أجل ذلك كانت الحياة الأدبية في الجماعات المستوحشة غضة ضئيلة ،

---

(١) الضمير في أموره يعود على « الحاضر » .

(٢) شلي من دفاعه البديع عن الشعر .

(٣) من رأى سبنسر وغيره من الفلاسفة المحدثين أن الرقي هو الانتقال من حالة البساطة إلى حالة التركيب والتعقيد راجع مقاله في الرقي .

ولكنها في الشعوب الراقية المتحضرة نامية متفرعة متهدلة الأغصان مورقة الأفنان .

وإذا كان هذا كذلك وكان الشعر عنواناً على رقي الجماعات ودليلاً على حيا'تها وكان مجنى ثمر العقول والألباب ومجتمع فرق الآداب ، فان حقيقاً بنا أن ننظر فيه علنا نهتدي إلى وصف حقيقته ونقف على وسائله وغايته بيد أني لا أرى للتعاريف غناءً فيما نتكلف ولا بلاغاً إلى ما نتطلب ، وعلى أنه إن كان لابد منها فان حقها ولا شك التأخير لا التقديم ، إذ فيها تتلخص حدود المسائل في أوجز لفظ وأخصر عبارة ، ولقد نظرت فلم أجد واحداً ممن بحثوا في الشعر جاء بتعريف فيه للنفس مقنع إذ ليس يكفي في تعريفه مثلا أن يقال إنه الكلام الموزون المقفي فان هذا خليق أن يُدخل فيه ما ليس منه ولا قلامة ظفر ، وإنما نظر القائل إلى الشعر من جهة الوزن وحدها وأغفل ما عداها .

ولا يغني في تعريفه كذلك أن نقول مع (شلجل) إنه مرآة الخواطر الأبدية الصادقة فان هذا فضلا عن غموضه الشديد خطأ صريح ليس فيه شعاع من نور الحق ، وذلك لأن الشعر لا يمكن أن يكون كما زعم شلجل مرآة الخواطر الأبدية الصادقة وليس هو إلا مرآة الحقائق العصرية لأن الشاعر لا قِبل له بالخلاص من عصره والفكاك من زمنه ولا قدره له على النظر إلى أبعد مما وراء ذلك بكثير ، فحكمته حكمة عصره ، وروحه روح عصره ، على أنه ما هو الحق ؟ وكيف يوصف بأنه أبدي ؟ وما هو مقياسه ؟ ألا ترى أنّ يقين اليوم قد يصير شك الغد ؟ فأنّى للشاعر أن يصل إلى هذه الحقائق الأبدية ؟ إنه لا أبدي فيما نعلم إلاّ عواطف الإنسان ، وما يدرينا لعل هذه أيضاً يعتورها الشك ويأتيها

الريب من هذا الجانب أو ذاك ولكنه لا أبدي إلا هذه . ألست ترى أن أغاني المستوحشين التي يمتدحون فيها الحرب والشر والقساوة والحب والدهاء والخديعة هي غاية العقل عندهم وقصارى مايبلغهم الحزم والكياسة وإن استكّت منها أسماع المتحضرين لهذاالعهد وبرئت إلى الله منها نفوسهم ، ولكنها شعر لاريب فيه! ولقد كان من عادة العرب أن يتغنّوا في شعرهم بذكر أبطالهم ورجالاتهم ولعمري لا شيء أنفع من ذلك ولا أعود ولا أشد ابتعاثاً للذهن وإيقاظاً للنفس ودفعاً لها على ورود المكاره واستثارة لنخوتها وحميتها .

وليس الشعر كما وصفه الشيخ الذي زعم الجاحظ أنه ذهب إلى أنه صياغة وضرب من التصوير(١) وكما سماه أرسطاليس (فنا تصويريا) لأن الأصل في الشعر (الإحلال والاقتراح) لا التصوير — إحلال اللفظ محل الصور واقتراح العاطفة أو الخاطر على القارىء — وعلى أنه لو جاز أن نسمي الشعر فنا تصويريا أو ضرباً من التصوير لبقى علينا أن نعرف أي شيء يصور ؟ الحقائق أم المرئيات أم الإحساس ؟

قال بيرك(٢) إن من يتدبر حسنات الشعراء وبراعاتهم يجد أنها لا تستولي على النفس من أجل ما تحدثه في الذهن من الصور بل لأنها توقظ في النفس عاطفة تشبه العاطفة التي ينبهها الشيء الذي هو موضوع الكلام ا هـ .

نقول وهذا صحيح حتى في الشعر الوصفي الذي هو بطبيعته وغايته

---

(١) كتاب الحيوان .

(٢) كتاب الجليل والجميل .

ألصق بالتصوير مما عداه من فنون الشعر وأبوابه ، وذلك لأن الشاعر لا يصور الشيء كما هو ، ولكن كما يبدو له ، ولا يرسم منه هيكله العريان بل يخلع عليه من حلل الخيال بعد أن يحركه الإحساس ، وأنت قد تعلم أن الحواس هي مصدر عرفاننا ومستقي علمنا بما تتناوله من الأشياء وتفضي إليه من صفاتها وصلاتها وحركاتها وغير ذلك ولكنه من من الواضح الذي لاشك فيه أنه إذا لم تكن ثم وسيلة إلى العلم بالأشياء والاطلاع عليها غير الحواس لما أفاد الإنسان إلا قليلاً ، ولما دخل في علمه إلا النزر اليسير ، لأن المعرفة شيء تتعلق به المدارك ويلجّ في الارتسام بصفحة الذهن ، وهذه اللجاجة أو هذا الشبث الذي يجده كل امرىء بأهداب الخاطر أو إن شئت فقل هذا (الصدى) الذي تتركه المحسوسات هو شرح خاصية الذهن التي نسميها الحفظ — وهي ، عادةً ، يصحبها « صورة عقلية » وهذه الصور قلّ أن تبلغ من الوضوح والجلاء مبلغ المشخصات التي تبرز لمشهد الحواس ومن ذا الذي ذكر صاحباً له فتمثلت لذهنه صورته كما كانت تتمثل لعينه . ألا إن الأمر على خلاف ذلك فقد أثبتت أبحاث علماء النفس أنه قل من يستطيع أن يستحضر في ذهنه صورة مفصلة غير مجملة ، واضحة غير مبهمة لشيء مألوف كمائدة الإفطار . على أنه ليس يخفي أن قدرة الذهن على إحداث الصور تختلف باختلاف الناس كما ليس يخفي أنه وإن كان الناس في الغالب لا ترتسم في أذهانهم إلاّ صور المرئيات إلاّ أن فيهم أيضاً من هم أقدر بطبعهم على استحضار صور المسموعات والحركات .

على أن حقيقاً بنا أن نتمهل هنا قليلاً فما في ذلك من بأس فان مما هو جدير بالتأمل والنظر فيه بعقب ما ذكرنا أن العقل قد يستغني في كثير من الأحيان عن « الصور » ويعتاض منها « الرموز » ولعل هذا هو السبب في كثير من خطئه وصوابه أيضاً — وذلك أنّ الألفاظ ليست في الحقيقة

إلا رموزاً لما تأخذه العين من الأشياء ، وهي حسبنا وفيها كفايتنا ليتهيأ لنا ما نزاول من التفكير ، وحسب القارىء أن يوقظ رأيه لما يدور في ذهنه ليستيقن أن كثيراً من الصور التي ترتسم في صفحة ذهنه غامضة في أغلب الأحيان لا نصيب لها من الجلاء . قال بيرك أيضاً « إذا قال أحدنا سأذهب إلى إيطاليا في الصيف المقبل ، فهمه السامع من غير أن يكدّ ذهنه ، على أني على يقين جازم من أنه لم ترتسم في ذهنه صورة القائل ، يطوي الأرض تارة ويركب البحر أخرى — آناً على ظهر جواد وآونة في مركبة إلى آخر تفاصيل هذه الرحلة — بل لا أظن السامع قد « تصوّر » إيطاليا — تلك البلاد التي عزم القائل أن يسافر إليها — ولا أحسب الخيال قد رسم له صورة مزارعها السندسية ، وفواكهها الطيبة الشهية ، وحرارة هوائها وانتقاله إلى هذا الجو من جو آخر — وهي صور أشار إليها القائل بلفظ الصيف وجعله رمزاً لها — وهل تظن قوله « المقبل » أحدث صورة ما ؟ » ا هـ .

وقال (لوك) في رسالة له عن العقل « إن الطفل في كثير من الأحيان يحمل عنا عدداً وافراً من الألفاظ ذات المعاني العامة مثل الفضيلة والرذيلة والخير والشر قبل أن يعرف ما هذا وما ذاك ، ثم هو يقتاس بنا في حب الواحد ومقت الآخر ، ولو أنك سألته ما الفضيلة لقال هي شيء يحبه أبي أو أمي أو معلمي ، وذلك لأن عقل الطفل من اللين بحيث تستطيع بما تُظهر من الاستياء أو الارتياح لشيء ما ، أن تحمله على الاقتداء بك في بغض هذا الشيء أو حبه» ا هـ . على أن الشيخ الكبير كالطفل الصغير . كلاهما إن ذاكرته حديث الفضيلة أو الرذيلة

أو غير ذلك مما يجري مجراهما كالشرف والنباهة والطاعة أدرك المعنى المراد وإن لم ترتسم في ذهنه « صورة » لشيء من ذلك .

كل لفظ من هذه الألفاظ كان موضوعاً للدلالة على فعل بعينه ثم انتقل بعد ذلك بكثرة الاستعمال من هذه الخصوصية إلى العمومية حتى تجرد في آخر الأمر صوتاً أو صدى ، وكذلك الشأن في سائر الألفاظ ، فانها لا تلبث بعد طول الاستعمال أن تصير أصداءاً تدوي في جوانب النفس ونواحي الفؤاد ، فتترك أثرها ولا تجشّم الخيال تصويرها . فان شككت في ذلك فتأمل لفظة « الشيء » هل ترى لها « صورة » في قول عمر بن أبي ربيعة المخزومي :

وكم مـــن قتيـــل لا يُبـــاء به دمٌ
ومـــــن غَلقٍ رهنـــا إذا ضمّه منى

وكم مالىء عينيه من (شيء) غيـــره
إذا راح نحو الجمرة البيضُ كالدّمى(١)

فانّ لها روحاً وخفةً وإيناساً وبهجةً وهي بعدُ لا تبلغ أن تكون منها صورة – أو في قول أبي الطيب المتنبي :

لـــو الفلك الدوّار أبغضـــتَ سعيـــه
لعوّقـــــه (شيء) عـــن الدوران

(١) قوله لا يباء به دم يقول لا يقاد به قاتله وأصل هذا أنه يقال أبأت فلانا بفلان فباء به إذا قتلته به ولا يكاد يستعمل هذا إلا والثاني كفء للأول ومن ذلك قول مهلهل بن ربيعة حين قتل بجير بن الحرث بن عباد « بؤبشسع نعل كليب » (الكامل المبرد) .

فانك تجدها من الضآلة والغموض بحيث يعييك أن تصورها لنفسك وإن كان لا عسرَ عليك في فهمها ولا عناء .

وقد كان بشار بن برد الذي يقول :

عميتُ جنيناً والذكاء من العمى
فجئتُ عجيب الظن للعلم موئلا

يصف الأشياء وما يراها كأحسن ما يصفها المبصرون الذين لم يسلبهم الله نعمة البصر ، وروى « بيرك » أنه كان بجامعة كمبردج رجل أكمه يدرسّ العلوم الرياضية قال : « كان المستر سوندرسن هذا من صدور العلماء وفحول الأعلام في الفلسفة وعلم الهيئة وسائر ما لا بد فيه من الحذق الرياضي ، فلم يرعني شيءٌ كالقائه دروساً في (الضوء) و (الألوان) فكان يلقّنهم علم ما يرون وما لا يرى .

فهذا يدلك دلالة لا يعترضها الشك على صحة ما أردنا أن نبينه لك من أن الألفاظ ليست إلاّ رموزاً مجرّدة تمر بالسمع فيكتفي العقل منها بلمحة دالة تغنيه عن (الصورة) — إلا أن تريد ذلك فيكون ما أردت — ولكنّ فرقاً بين أن تُكره الخيال على التصوير وبين أن يجيء ذلك منه عفواً لا إكراه فيه ولا إجبار ، على أنه قل أن تستطيع تصور الشيء على حقيقته وأصله كما أسلفنا .

ومما يلبس على الناظر في هذا الباب ويغلّطه أنه يستبعد أن يكون الكلام مفهوماً فهما صحيحاً من غير أن تكون له صور ماثلة في للذهن ، والحقيقة أنه ليس في ذلك شيء من الغرابة أو البعد ، لأن العادة تذلل هذه الصعوبة — والعادة أعرق طبائع النفس وهي مصدر قوتها وعلة

خورها وضعفها – ألا ترى كيف أن اللفظ الجديد يكون مَدخله على النفس في بادىء الأمر صعباً ثم هو لا يلبث أن تلوكه الألسنة وتتناقله الأفواه ويتداوله الناس حتى يسهل وروده على النفس ويوطأ له حجاب السمع وأعلم « أن مثل واضع الكلام مثل من يأخذ قطعاً من الذهب أو الفضة فيذيب بعضها في بعض حتى تصير قطعة واحدة » يلتهمها العقل جملة ، ولو نحن كلفناه أن يحلل هذه القطعة أو أن يصور كل لفظة ويرسم كل حرف لكان ذلك ضرباً من التعسف وبابا من أبواب العنت ، ولتراخت من جراء ذلك حركة الفهم وأبطأ سير الذهن ، والكلامُ لا يقبل هذا التقسيم ولا يحتمل هذا التجزىء .

على أني لا أرى أبلغ في إثبات ذلك وإقامة الحجة عليه من أن ننظر في أنواع الألفاظ ونتأملها ونحن نرجو بعد هذا البسط أن تنتسخ آيةُ الشك وتنجلي ظلمة الشبهة ، ولسنا نشير إلى تقسيم الكلم إلى اسم وفعل وحرف ، فان هذا التقسيم إنما يراد به بيان تعلق الكلم بعضها ببعض، وشرح وجوه تعلقها التي هي معاني النحو وأحكامه ، وإنما نريد تقسيمها حسب معانيها وصفاتها ونشأتها ووضعها ، فأول هذه الأنواع وأوضحها وأشفّها عن معناها هذه الألفاظ الجامعة مثل رجل وشجرة وجواد وما إليها ، وكلها ألفاظ موضوعة للدلالة على ما هو واقع تحت الحس ، وثانيها الألفاظ الموضوعة لوصف هذه الأشياء المحسوسة كأحمر وأخضر وكقام وقعد (والأفعال صفاتٌ في معانيها) وما إليها ، وهذان النوعان أول ما عرف الإنسان من أنواع الكلم وإنّ بين ظهرانينا اليوم من الهمج شعوبا ليس في لغاتها غير هذين النوعين(١) ، ولما اتسع

(١) راجع أوتومولر في علم مقارنة اللغات .

الناس في الدنيا اتسعت المعاني كذلك فنشأت طائفة من الألفاظ وضعت للجمع بين النوعين المتقدمين وللدلالة على صلاتهما مثل الشرف والفضيلة والحرية وما إلى ذلك .

لا خلاف في أنه يمكن تقسيم الألفاظ إلى غير ذلك من الأقسام ولكن هذا التقسيم طبيعي تاريخي وعلى هذا النحو والنظام أيضاً يتعلم الطفل اللغة ويحفظ ألفاظها وما المرء إلا صورة مصغّرة للنوع الإنساني.

هذه الأنواع الثلاثة إذا أنت تدبرتها وجدت الأول منها (رجل وشجرة) رموزاً لصور بسيطة غير مركبة يدركها الذهن على غير كلفة أو مشقة ، فاذا انتقلت إلى ألفاظ النوع الثاني وجدت أنها رموز لأشياء مركبة ، أو هي رموز موضوعة لوصف حالاتٍ بعينها لابد للذهن في تصورها من جمع شتيت أجزائها ، فأما ألفاظ النوع الثالث فأعوص الجميع وأشدها إعناتاً للذهن إذا هو تكلف تفصيل مجملها وبسط موجزها،وما لفظ الشرف إن تأملته إلاّ عبارة « مختزلة» لو عمدت إلى بسطها وتحليلها لما وجدت مندوحةً من ردّها إلى النوع الثاني ثم إلى الأول قبل أن تستطيع الكشف عن دقائقها وفتح مقفلها ، فانه مما لا شبهة فيه أنّ أول من قال من الناس « أحب الشرف » إنما كان يعني (أحب الرجل الشريف) .

وثمّ طائفة من الألفاظ كانت في أول أمرها داخلة (بطبيعتها) في عداد ألفاظ النوع الثالث وما زالت إلى اليوم (بصورتها) مثل النهار والليل ، والربيع والشتاء ، والفجر والسحر ، والريح والرعد ، فانك لو سألت أحداً ماذا تعني بالنهار والليل أو الربيع والشتاء لقال لك أعني فصلاً أو جزءاً من الزمن ، وما هو الزمن وأي شيء هو ؟ أهو شيء

مادي ؟ إن هو إلا صفة تجردت اسماً وأصارتها اللغة مادة ، فان أحدنا إذ يقول طلع الفجر ، أو زحف الليل ، ليعزو إلى الفجر والليل فعلاً ما أعجزهما عنه وأبرأهما منه .

وما زلنا إلى اليوم نعزو إلى (قوى) الطبيعة صفاتِ (المادة) ونجسّم المجرد حتى يكاد يُحسّ ويُمس وتقع عليه الأيدي وتأخذه الأعين ، انظر إلى قول ابن الرومي :

إمامٌ يظلّ (الأمسُ) يُعمل نحوه
تلفّتَ ملهوف ويشتاقه (الغدُ)

وقول أبي تمام :

ما لامرىءٍ أسر (القضاء) رجاءه
إلاّ رجاؤك أو عطاؤك فاد

أو قول مسلم بن الوليد :

ذاك الرجاء المستجار بجوده
من نائبات (الدهر) حين تنوب

أو قول البحتري :

تنصّب (البرق) مختالا فقلت له
أوجدت جود بني يزداد لم تزد

أو قول ابن الرومي :

أأفضت بي (الأيام) لادرّ درها
إلى ما ترى عيني من الهون والأزل(١)

---

(١) الأزل : الضيق .

أو قول الآخر :

إن (دهرا) يلـــف شملي بسعدى
(لزمـــانٌ) يهـــم بالإحســـان

ولو أردنا أن نستقصي لاحتجنا أن ننقل كل بيت في اللغة ، وإنما نحن أردنا أن نورد لك أمثلة على ما ذهبنا إليه ، وهذا مذهب الشعراء في إسناد الفعل إلى غير فاعله ، بل هو في كل لغة بطبيعة الحال ، وهل اللغة إن تدبرت إلا شعر جَفَّ فعاد كالأسماك المتحجرة ؟ أو الألفاظ إلا قصائد تاريخية وخواطر شعرية؟أو تحسب أنه لم يكن قبل « هومر» شاعر ؟ لقد كانت هذه الألفاظ الخامدة المبتذلة في أول ابتدائها وبدء تكوينها متأهبة تحرك النفس وتستفز الجنان ، وكان محدثوها شعراء مبتكرين ، وهل الشعر إلا خاطر لا يزال يجيش في الصدر حتى يجد مخرجا ويصيب متنفّساً ؟

ولما كان الكلام مركباً من جميع هذه الأنواع وكان تأثيره ليس رهنا بما يحدثه من الصور وحسب ، بل إن للصوت أيضاً دخلا في ذلك ، فانه من الخرف والسخافة أن نظن أن العقل يتكلف تحليل كل كلمة تقرع السمع أو تقع عليها العين ، قبل أن يخلص معناها إلى نور البيان ، فان في ذلك من بعد الشقة والتواء المسلك ووعورته مالا يخفى عن أحد من الناس .

(وبعد) فانك إذا رجعت إلى نفسك علمت علماً لايعتريه شك أن الألفاظ قاصرة عن العبارة عما في النفس ، والإحاطة بجميع ما يختلج في الصدر ويدور في الذهن من المعاني ، هذا مالا يجهله عاقل ولا يكاد

يخفى عن أحد ، فان الألفاظ ليست إلاّ كاشارات الحرس ، تُتخيّلُ فيها أغراضُ صاحبها ، وإذا كان هذا كذلك فكيف يمكن أن تكون منها صورٌ واضحة في الذهن وهي على ما وصفنا من العجز والقصور ؟ وحسبك دليلا على أن العقل ليكتفي بالإشارة ويجتزيء بيسير الإبانة، أن النظرة قد تقوم مقام اللفظة في نقل المعنى من ذهن إلى ذهن ، وأن التلميح قد يكون أبلغ في العبارة من التصريح ، وأعلم أن إحلال الرموز محل الصور أمرٌ لابد منه ولا محيد عنه ، لا سيما في العلوم بأنواعها من طبيعة وكيمياء ورياضة وغير ذلك ، بل في الشعر والكتابة أيضاً . وتروقني كلمة (لجيرني) في كتابه (قوة الصوت)قال وقد أفضى به البحث إلى ذكر أبيات من الشعر في صفة كوخ :

(قرأت هذا الوصف البديع فتمثلت لذهني صور شتى لهذا الكوخ لا تشبه صورة منها أختها ، ولعلى كنت أكون أقدرَ على تصوّره لو علمت كم عدد نوافذه ، وأين بابه من الجهات الأربع ، وكم عدد الأشجار التي تحف به وما إلى ذلك من التفاصيل التي لا يعني بها الشعراء ، غير أني مع هذا أقول عن يقين إن هذه الأبيات وقعت من نفسي،ومن نفوس الناس جميعاً فيما أظن،موقعاً لامثيل له ولانظير).

وأنت فتأمل أبيات ابن حمديس يصف بركة في قصر عليها أشجار من ذهب وفضة ترمي فروعها المياه :

وضراغمٍ سكنت عــــرينَ رياسـة
تركت خريـر الماء فيــه زئيرا

فكأنمـــا غشي النضــارُ جسومــها
وأذاب فـــي أفواهـــها البلّورا

أسدٌ كأنَّ سكونها متحرك
في النفس لو وجدت هناك مثيرا

وتذكرت فتكاتها فكأنما
أقعتْ على أدبارها لتثورا

وتخالها والشمسُ تجلو لونها
نارا وألسنها اللواحس نورا

فكأنما سلّت سيوف جداول
ذابت بلا نار فعدنَ غديرا

وكأنما نسجَ النسيم لمائه
درعا فقدّر سردها تقديرا

وبديعةِ الثمرات تعبر نحوها
عيناي بحر عجائبٍ مسجورا

قد سرّجت أغصانها فكأنما
قبضت بهن من الفضاء طيورا

وكأنما تأبى لوقعٍ طيرها
أن تستقلّ بنهضها وتطيرا

من كل واقعة ترى منقارها
ماءاً كسلسال اللجين نميرا

خرس تُعَدّ من الفصاح فـــان شدت
جعلـــت تغـــرد بالميـــاه صفيرا

وكأنمـــا في كل غصنٍ فضـــةٌ
لانـــت فأرســـل خيطها مجرورا

وتريك في الصـــهريج موقـــع قطرها
فـــوق الزبرجـــد لؤلؤاً منثوراً

ضحكـــت محاسنـــه إليـــك كأنمـــا
جعلت لها زهر النجوم زهورا .. الخ

هذه أبيات من عيون الشعر ومحكمه إذا تأملتها جملة أو استقريتها واحدا واحدا ونظرت إلى موقعها في نفسك وإلى ما تجده من اللطف والظرف لم تجد لها مع ذلك: صورة واضحة في الذهن، وإنما كان هذا كذلك لأنها وإن كانت غاية في دقة الوصف وبراعة السبك ولطف التخيل ، إلا أن في كل بيت صورةً مبهمة ؛ فهي مجموعة صور بعضها من بعض أدق وألطف ، ثم ألا ترى كيف أن الشاعر لا يزال يحوم على الشيء فلا يقع ، ويُسفّ فلا يلمس ، حتى إذا عنّاه تصويره قال لك كأنما هو كذا وكذا لقصور اللغة وعجزها كما أسلفنا لك ، وأي لغة تبلغ أن تصور لك الشيء كآلة التصوير الشمسي ؟ ليس بنا إلى ذلك حاجة لأن ضيق حظيرة اللغات مدعاةٌ لسعة مجال الخيال ، وقصر آلاتها سبب في طول متعة الذهن ولذة الفكر ، ولنضرب لذلك مثلا فاني رأيت سوقَ الأمثال أبلغَ في تصوير المسائل في النفس وتقريرها

عند العقل ، وهي بعد آمنُ لي ولك من الشك وأصحّ لليقين وأحرى أن تبلّغنا جميعاً قاصيةَ التبيين ، لأنه موضع يدقّ فيه الكلام ، ولا يُؤمن معه الغموض والاستبهام .. قال كثّير عزة :

وأدنيتني حتى إذا ما سبيتني
بدلٍ يُحل العصم سهلَ الأباطح

تجافيتِ عني حين لا لىَ حيلة
وخلّفتِ ما خلّفتِ بين الجوانح

هذان بيتان ليس فيهما معنى رائع ولا فكر دقيق ، ولكنهما يصفان حال قائلهما أبلغ وصف ، ويتغلغلان إلى النفس تغلغل الماء إلى كبد الملتاح ، وإنما يرجع الفضل في ذلك إلى قوة الخيال ، وشرح ذلك أن الشاعر لم يتجاوز الإشارة في بيتيه إلى التبيين والتلميح إلى التصريح ، فذكر الدلّ ولم يذكر كيف دلها ، وإن يكن مثل لك فعله وتأثيره ، وقال وخلفتِ ما خلفت بين الجوانح ولم يقل ماذا خلفت ، فترك بذلك مضطربا واسعاً للخيال ليتصوّر لطف دلها وسحره وفتنته ، وصبابة الشاعر وشغفه وحرقته ، وسائرَ ما ينطوي تحت قوله وخلفت ما خلفت ، فجاءا بيتين كلما زدتهما نظراً وترديداً زاداك جمالا وحسنا ، ولو أنّ الشاعر أراد الإحاطة بجميع ما خلفتْ لكلّف نفسهُ أمراً شديداً إذا لانت له جوانبهُ كان استيعابه هذا قيدا للخيال وحملا ثقيلا يرزح تحته وينوء به ، لأن الشعر يلذّ قارئه إذا كان للمعاني التي يثيرها في ذهن القارىء في كل ساعة تجديد ، وفي كل

لحظة توليد ، فأما ما يأخذ على الخيال مذهبه ولا يترك له مجالاً فهذا هو الغث الذي لا خير فيه ، لأنّ حالاتِ النفس درجاتٌ ، فاذا أنت صورت أقصى درجاتها لم تُبق للخيال من عملٍ إلاّ أن يُسف إلى ماهو أحط وأدنى ، ولذة الخيال في تحليقه ، ومن ههنا قالوا في تعريف الشعر إنه لمحة دالة ورمز لحقائق مستترة ، يعنون بذلك أن الشاعر ليقذف بالكلمة فتأخذها الأسماع وتعيها النفوس ويستوعب معانيها الخيال .

قال (سنت بيف) من مقال له عن لا مارتين « إذا تحركت عاطفة حادة شاملة نحو مخلوق خيالي ، ألا يكون خيرا من أن نحاول تقريبه بالوصف الدقيق أن نعتمد على قوة الخيال في سد النقص وملء الفراغ وإتمام الصورة على خير مما نستطيع أن نتمّها ؟ » وقال في موضع آخر من المقال عينه « إنّ الشعر خلاصة كل شيء وجوهره ، فحذار أن نغمر هذه القطرة النفيسة في بحر من الماء أو طوفانٍ من الأصباغ والألوان . ليس الأصل في الشعر الاستقصاء في الشرح والإحاطة في التبيين ولكنّ الأصل فيه أن نترك كل شيء للخيال » . ا هـ .

وهذا صحيح . أذكر أني مرة كنت أقرأ قصة (منفرد)(١) في حديقة بيت فِناؤه لجةٌ غمر وروض أخضر ، وكانت الشمس جانحة للمغيب ، فلما بلغت مناجاة منفرد لنفسه وفي أولها يقول :

« إنما نحن ألاعيب في أيدي الزمن والمخاوف ، تمضي علينا الأيام ثم تمضي بنا ، ولكنا على هذا نعيش — أبغض ما تكون إلينا الحياة ،

(١) قصة منفرد لبيرون .

وأخوف ما نكون نحن من الموت — على رقابنا هذا النير المشنوء ، هذا الحمل الحيوي الذي ينوء به الفؤاد المضطرب الذي يغرقه الأسى ويتلفه الألم أو اللذةُ التي تنتهي بالألم والخور — في كل أيامٍ الحياة ، ماضيها ومقبلها ، (إذ ليس للحياة حاضر) ما أقلها ساعات تكفَّ فيها النفس عن النزوع إلى الموت ، وترانا على هذا نفر منه فرارنا من الغدير الصرد
عن النزوع إلى الموت ، وترانا على هذا نفر منه فرارنا من الغدير الصرد
في الشتاء ! على أنه برد برهة ! ! الخ » .

أقول لما بلغت قوله هذا تضاءلت في عيني مناجاة هملت لنفسه ، وأحسست كأن الهواء قد آض معاني وإحساسات ليس أحلى منها في القلب ولا أملأ للصدر ، وكأنَّ ما ارتفع من أنفاس الورد ليس ريّاه ونفحته ولكن معناه وصفته ، وكنت كلما قرأت سطرا شعرتُ بما يشعر به الواقف على ساحل البحر ، ينظر إلى عبابه الطموح وموجه الجموح ، ورأيت المعاني تضيء في نفسي ، غامضةً ، كما يضيء الفجر ، والخواطر تزخر في صدري كما يزخر البحر ، وما زلت إلى اليوم كلما عدت إلى هذه القصيدة جلت عليَّ ألفاظُها من المعاني مثلما تجلو أشعة الشمس المسيطرة في الأفق من مشاهد هذا الوجود ومناظره ، — إن قيمة الشعر ليست فيما حوت أبياته ، واشتملت عليه شطراته فقط ، ولكنَّ قيمته رهنٌ أيضاً بما يختلج في نفسك ويقوم في ذهنك عند قراءته ، فان الشعر الجيد كالبحر لا يقف عنده الفكر جامدا ، وهو كشعاع النور يضيء لك ما في نفسك ويجلو عليك ما في ذهنك .

وأنت فاذا استقريت أطوار عقلك زادت هذه المسألة وضوحا عندك وجلاءا ، فانَّ أحدنا ليرى الخاتم أو الشنف أو غيرهما من أصناف الحلى

فيستحسنه وهو او راقب نفسه لرأى خياله قد انتزع هذا الخاتم أو ذاك الشنف من مكانه ووضعه في حنصر مليح أو قرّط به أذن حسناء بينما يقلّبه في كفيه وينظر إليه باديا من قريب ومن بعيد ، لأن الخيال لا يجمد أمام كلمة ترد على السمع أو منظر تكتحل به العين وإنما يتوخىّ دائباً أن يسدّ كل نقص ويملأ كل فراغ .

ولكن الناس ليسوا جميعاً سواءا في قوة التصور وحدة التخيل ، فان بعضهم ليرف « صورا » صريحة حيث لا يبصر غيرهم إلاّ رموزاً مجردة ، وهذا من أسباب قوة العقل ولكنها قوة قد تنتهي بصاحبها إلى ضعف فان حدة الخيال في مسائل الفلسفة النظرية وأمور الحياة اليومية قد نكون مدعاة لتشرّد الذهن وتمزق شمل قواه .

* * *

(وبعد) فان الشعر مجاله العواطف لا العقل ، والإحساس لا الفكر وإنما يُعني بالفكر على قدر ارتباطه بالإحساس . ولا غني للشعر عن الفكر ، بل لابد أن يتدفق الجيد الرصين منه بفيض القرائح ، ويتحفّى بنتاج العقول وجني الأذهان ، ولكن سبيل الشاعر أن لا يعني بالفكر لذاته ولسداده ووزانته ، بل من أجل الإحساس الذي نبهه أو العاطفة التي أثارته ، فربما كان الفكر أصلا فروعه الإحساس وثماره العواطف ، وربما كان فرعا أصله الإحساس ، فالفكر من أجل الإحساس شعر ، والإحساس شعر ، أما الفكر لذاته ، فذلك هو العلم وعلى هذا أكثر من كتبوا في الشعر من فحول العلماء والشعراء .

خذ مثلاً لذلك بيت ابن الطثرية .

فديتـــك أعدائي كثيـــر وشقتي
بعيـــدٌ وأشياعـــي لديك قليل

قد لا يكون البيت خير ما يُتَمَثَّلُ به ولكنه حسبنا في الإبانة عما نريد فان ابن الطثرية لم يقصد إلى سرد هذه الأخبار عليك ، ولو أن رجلا ساقها إليك نثراً ما تحركت لها النفس ولا نزا لها القلب ، وهل هي في ذاتها خارجةٌ عما تدور عليه أكثر الأحاديث إذا انتظمت بالإخوان عقود المجالس ؟ ولكنك ترى البيت برغم ذلك يمتزج بأجزاء نفسك ويتصل بفؤادك لأن الشاعر بثك فيه كمده الباطن وحسرته الدخيلة ونزع فيه بالآمال فانتقل باحساسه منه إليك وتغلغل من نفسه إلى نفسك.

وكذلك لابد في الشعر من عاطفة يُفضي بها إليك الشاعر ويستريح ، أو يحركها في نفسك ويستثيرها ، وإذا كان هذا هكذا فقد خرج من الشعر كل ما هو (نثري) في تأثيره أو ما كان في جملته وتفصيله عبارة عن (قائمة) ليس فيها عاطفة ولا هو مما يوقظ عواطف القارىء ويحرك نفسه ويستفزها ، مثل شعر الحوادث اليومية الذي ولع به حافظ وأشباهه ممن لا يفهمون الشعر ولا ينظرون إلى أبعد من أنوفهم ولا يرمون به إلى غير الكسب ومجاراة العامة من القراء والكتاب ومن الأميين أيضاً ، ومثل شعر المديح كله الذي اكتظت به داووين شعراء العرب ، ومثل مزدوجة أبي فراس الطردية التي يقول في أولها :

أنعـــت يوماً مر لي بالشـــام
ألـــذ مـــا مر مـــن الأيـــام

دعوت بالصقّار ذات يوم
عند انتباهي سحراً من نومي

قلت له اختر سبعة كباراً
كل نجيب يرد الغبارا

يكون للأرنب منها اثنان
وخمسة تغرد للغزلان

واجعل كلاب الصيد نوبتين
يرسل منها اثنان بعد اثنين

ردوا فلاناً وخذوا فلانا
وضمنوني صيدكم ضمانا

إلى آخر هذا الهراء السخيف. فان هذا الكلام ليس من الشعر في شيء وإن كان موزوناً مقفي. وإنّ عد هذا الهذر من الشعر ليثير سخط من لا يعرف العرب عليهم وعلى ذوقهم، وأي فرق بالله بين هذا الكلام وبين أن يقول لك صاحب إني ساكن بيتاً له سلالم وفيه أربع غرف في كل غرفة نافذة أو اثنتان وأنا أنام فيه وآكل وأشرب؟ إن كان هذا شعراً فذلك شعر. وأقسم ما كان للأرنب اثنان ولا أفردت خمسة للغزلان إلا من أجل الوزن والقافية.، وعلى أنّ هذه المزدوجة قد خلت من الفكاهة أيضاً فهي مرذولة مقبوحة لاجدّ فيها يطبّي الأهواء ولا هزل تستروح به النفوس.

قال سُلْجرْ: «هذه بديهيات الشعر: ينبغي أن يكون كل شيء فيه جائشاً بالعمل أو العواطف، ومن هنا كان الشعر الوصفي البحت

مستحيلاً إذا هو اقتصر على الموضوع وخلا من العمل أو العواطف . قال ، وإنك لا تجد في شعر هومر شيئاً من الوصف إلا كان العمل محتوياً له » نقول ولا في شعر غيره من الفحول . وقد علّل هيجل ذلك بقوله : « ليست الأشياء ووجودُها مادةَ الشعر ولكن مادته الصور والرموز الخيالية » .

لاشك في أن العاطفة في الشعر هي الأصل في هذه المحسنات التي يخلعها عليه قائلوه، ومبعث هذا البديع الذي جن به الناس وافتتنوا ببهجته في الزمن الأخير ، وذلك لأنه لما كان الشاعر لا يسوق الك الشيء من أجل أنه حقيقة وحسب ، بل كما تراه وتحسه روحه فقد صار لابد له من لغة حارة مستعارة يترجم بها عنه ؛ وقد يستعمل هذه المحسنات طائفة النظامين والمقلدين ولكنك تراها في كلامهم نافرة مرذولة ثقيلة الورود على النفس ممجوجة في السماع من أجل أنها محسنات أتي بها صاحبها لبريقها ورونقها لا لأنها عالقة بالعاطفة ، وإنما تراهم يستكثرون من البديع والاستعارات والمجازات في كلامهم ليخفي وميضُها قدمَ المعاني وقبحها وفسادها ؛ كما تستكثر العجوز الشمطاء من الحلي لتخفي هرمها وما صنع الدهر بها ، وتتعهد نفسها بالطيب لتذهب نتن ريحها وتَدَّهِنُ بالأصباغ لتخفي غضون وجهها وصفرته ودمامته ، أما الشاعر المطبوع الذي يؤثر خياله في إحساسه أو إحساسه في خياله فليست به حاجة إلى الكد والتعمل وإنما يجيء ذلك منه عفوا على غير جهد فلا تكاد تحس أن هنا شيئاً من البديع .

* * *

وإذ قد عرفت ما تقدم فهذه مسألة ركب الناس فيها جهل عظيم ودخل عليهم منها خطأ فاحش وهي هل يمكن أن يكون النثر شعرا ؟ فقد ترى أكثر الناس في هذا البلد المنحوس على أن الوزن ليس ضروريا في الشعر ، وأنّ من الكلام ما هو شعر وليس موزوناً . حتى لقد دفعت السخافة والحمق بعضهم إلى معالجة هذا الباب الجديد من الشعر(١) وهم يحسبون أنهم جاؤوا بشيء حسن وابتكروا فنا جديدا ، ولولا إشفاقي عن القراء لأوردت لهم أمثلة من ذلك ، والأصل في هذا الخطأ الذي دخل عليهم هو فيما أظن وأعلم أن النظم شيء يستطيعه كل الناس إذا هم عالجوه ، ولكن الشعر ملكة لا يؤتاها إلا القليل ، وإن كثيرا من الكلام المنثور يشبه الشعر في تأثيره : انظر ما يقول سيد كتاب مصر (سابقاً) المويلحي في هذا المعنى :

« ويوجد الشعر في المنثور كما يوجد في المنظوم إذا أحدث تأثيرا في النفس ، ومثل ذلك ما تراه في كلام الأعرابي وقد سئل عن مقدار غرامه بصاحبته فقال : (إني لأرى القمر عن جدارها أحسن منه على جدران الناس) وكقول الآخر : (مازلت أريها القمر حتى إذا غاب أرتنيه) اهـ .

وقد فاته هو وأضرابه أن النثر قد يكون شعريا ـ أي شبيها بالشعر في تأثيره ـ ولكنه ليس بشعر ، وإنه قد تغلب عليه الروح الخيالية ولكن يعوزه الجسم الموسيقي ، وإنه كما لا تصوير من غير ألوان ، لا شعر إلا بالوزن . وليس من ينكر أن الشعر فنّ ، فان صح هذا فما هي

---

(١) انظر كتاب الروح الحائر .

آلاته وأدواته ؟ وهل النثر فن آخر أم الاثنان فن واحد ؟ ليس لهذه الأسئلة إلا جواب واحد . قال هيجل : « الوزن أول ما يستوجبه الشعر ولعله ألزم مما عداه » ا هـ .

وتعليل ذلك فيما نعلم أنّ كل عاطفة تستولي على النفس وتتدفق تدفقاً مستوياً لا تزال تتلمس لغة مستوية مثلها في تدفقها ، فاما وفتْ إليها واطمأنت ، وإلا أحسّت بحاجة ونقص قد يعوقان تدفقها الطبيعي ، وربما دفعاها إلى مجرى غير طبيعي فيضر ذلك بالجسم والنفس جميعاً ، كالحامل لا تزال تتمخض حتى تلد ؛ وهذا هو السبب فيما يجده الشاعر من الروح والخفّة بعد أن ينظم إحساسه شعرا ، ولم تزل العواطف العميقة الطويلة الأجل –منذ كان الإنسان– تبغي لها مخرجاً وتتطلب لغة موزونة ، وكلما كان الإحساس أعمق كان الوزن أظهر وأوضح وأوقع ، ولكنه لابد لذلك من أن يجمع الإحساس بين العمق وطول البقاء فان بادرة الغضب على حدتها ليس لها علاقة طبيعية بالوزن ولا بالموسيقى .

إذاً فالوزن ضروري في الشعر وليس هو بالشيء المصطلح عليه ولكنه جوهري لابد منه وإن شئت فقل هو جثمان الشعر ، وليس يكفي أن تدعوه ثوباً يخلعه الشاعر عن معانيه فتشير بذلك إلى أنه شيء منفصل عن الشعر ، لأنّ الإنسان لم يخترع الوزن – لا ولا القافية – ولكنهما نشأا منه ، ولا شعر إلاّ بهما أو بالوزن على الأقل . قال بيتهوفن « النغم حياة الشعر (الحسية) ألا ترى كيف أن ما تحتويه القصيدة من معاني الروح يصير شعوراً حسياً بالنغم ؟ » ا هـ .

فليس الشعر كما يقول وردزورث نقيض النثر — كلا ! كذلك ليس الحيوان نقيض النبات ، ولكن بينهما على ذلك فرقاً عضوياً لا سبيل إلى إغفاله ، وليس النظم مرادفاً للشعر ولكن الوزن على هذا جثمانه لابد منه ولا غني عنه ، وقد يكون النثر شعريا جائشاً بالعواطف ولكنه ليس شعرا ، ولا بد من تفهم ذلك فان فيه الحد بين الشعر وبين غيره من فنون الكلام .

* * *

نتتقل الآن إلى الكلام عن واسطة الشعر وأن ابرسه الجمال وهي مسألة كثيراً ما يغفلها الكتاب والنقادة والشعراء أيضاً لسوء الحظ : قال جان بول رختر :

« إن عالم الفنون يجب أن يكون أسمى العوالم وأبهاها — حيث يحور كل ألم إلى لذة مضاعفة ، وحيث نشبه الواقف على قمة شامخ من الجبال تنفجر العاصفة على العالم تحته ولا يصيبه منها إلاّ نسيم برود . . . فكل قصيدة غير شعرية إذا كان ختامها غير موسيقى . . » اهـ .

ولعمري إنه عالم آخر يتراءى فيه عالمنا ولا يراق في معاركه من الدماء إلاّ مثل ما يريقه الإلـٰه المجروح من دمه المعسول ، وأظهرُ ما يكون ذلك ، في الموسيقى « الصارخة كالإله الموجع » — كما يقول كيتس — حيث ترى الألحان التي تحيّر الدموع في الجفون لا تزال تلطف منها روحُ الجمال السائدة عليها ، وإنّ في ذهن كلّ شاعر للحناً يخفّف من ألم خواطره ، وأظهر ما يكون الشاعر ، في هذا اللحن ، وليس تعييه قيود الوزن ولا تبرّح به أغلال القافية — فانه لا يشقى بالوزن ولا بالقافية — إلاّ العقل الأسير المكبول ..

وإذا كان امتياز الشعر بالتأثير فليس لشاعر على شاعر فضل في مذهبنا إلاّ بسهولة مدخل كلامه(١) على النفس وسرعة استيلائه على هواها ونيله الحظ الأوفر من ميلها ، وإنما يلائم الشاعر بين أطراف كلامه ، ويساوق بين أغراضه ، ويبني بعضها على بعض ، ويجعل هذا بسبب من ذاك لتكون عبارته أفعل باللب ، وأملك للسمع والقلب ، وأبلغ في التأثير . والشاعر في ذلك كصانع الديباج ، يوشيّه بمختلف التصاوير « ومتناسبها » ليكون أملأ للعين ، وأوقع في النفس ، وأعلق بالقلب ، وليست المزية كما يتوهم من لا يتدبرون الكلام ، في أنّ هذا أكثر تأنقاً من ذاك ، وأحسن تحبيرا ، بل المزية في أن أحدهما أقدر على إيلاج المعنى ذهنَ القارىء — وذلك هو الأصل في جميع فنون الكتابة .

قد يكون عمق الفكرة مانعاً من فهمها ، ولكنّ الغموض على أية حال عيب في الشاعر أو الكاتب ، لأن الكلام مجعول للإبانة عن الأغراض التي في النفس ، وإذا كان كذلك وجب أن يُتخير من اللفظ ما كان أقرب إلى الدلالة على المراد وأوضح في الإبانة عن المعنى المطلوب ، ولم يكن مستكره المطلع على الأذن ، مستنكر المورد على النفس ، حتى يتأبّى بغرابته في اللفظ عن الأفهام أو يمتنع بتعويص معناه عن التبيين فمنا كان أقرب في تصوير المعاني وأظهر في كشفها الفهم ، وكان مع ذلك أحكم في الإبانة عن المراد وأشد تحقيقاً في الإيضاح عن الطلب وأعجب في وضعه ، وأرشق في تصرفه ، وأبرع في نظمه ، كان أولى وأحق بأن يكون « مؤثرا » ، وليس معنى هذا أن « التأثير » لا يتأتي إلا ببراعة اللفظ ورشاقة العبارة ، فقد يكون الكلام حسنا « مؤثرا »

(١) المراد سهولة مدخل الكلام — لا سهولة الألفاظ . . . .

ويتفق له ذلك من غير رشاقة ولا نضارة ، وإنما الألفاظ أوعية للمعاني فأحسنها أشفّها وأشرقها دلالة على ما فيها .

فقد تبلغ بالعبارة العارية العاطلة مالا تبلغه بالكلام المفوّف ، بل قد يكون التأنق إذا أسرف فيه الشاعر أو الكاتب أو جهل مواضعه ، وأخطأ مواقعه ، أو تكلف له على غير حاجة إليه ، حائلاً بينه وبين ما يريد من نفس القارىء ، ألا ترى كيف جني (أبو تمام) على نفسه بحبه لتطريز الكلام ، ومبالغته في تدبيجه ، وإسرافه في استعمال الخشن النافر من الألفاظ ، وإكثاره من الاستعارات والتكلف لها اغتراراً بما سبق من مثل ذلك في كلام القدماء ، حتى كثر في شعره الرث الفاسد ، والغامض الذي ينبو عنه الفهم ، وحتى صار أصبر الناس لا يقوى على إتمام قصيدة من شعره من غير تحامل على نفسه ، وإرهاق لذهنه . وحتى جاء شعره غير مستو ، لكثرة اعتسافه ومزجه الغرر بالعرر ، والمأنوس بالوحشي الكدر . انظر إلى قوله يصف قصيدة له :

لها بين أبواب الملـــــــلوك مزامــــر
من الذكـــر لم تنفـــخ ولا هي تزمر

فجعل كما ترى للقصائد مزامر إلاّ أنها لا تنفخ ولا تزمر ، ثم تأمل قوله وما أحسنه وألطفه :

أيامنـــــا مصقولــــة أطرافها
بك والليـــالي كلها أسحــــــار

فقد تراه يخلط الحسن بالقبيح والجيد بالرديء والحلو بالمر ، وذلك لا ريب نتيجة التكلف ، ولو أنه أطلق نفسه على سجيتها ما اختلف

شعره هذا الاختلاف ولا عظم الفرق بين جيده ورديئه ، وإنما رأى أبو تمام أشياء يسيرةً من بعيد الاستعارات متفرقة في أشعار القدماء وإن كانت لا تنتهي في البعد إلى هذه المنزلة – فاحتذاها وأحب الإبداع في إيراد أمثالها فاحتطب واستكثر منها . . وقد وقع في هذا العيب كثير من كتاب العرب وشعرائهم .

على أني لست أنكر أنّ الاستعارات المصيبة وما يجري مجراها من أنواع البديع قد تبرز المعنى في أحسن معرض ، مثل قوله (هن لباس لكم وأنتم لباس لهن) فان ذلك أدل على اللصوق وشدة المماسة ، ومثل قول الشاعر :

(رأيت يد المعروف بعدك شلتِ)

ومثل قول البحتوى في وصف البركة :

فحاجب الشمس أحياناً يضاحكها
وريق الغيث أحيانا يباكيها

وقول أبي تمام :

« فقد سحبت فيها السحاب ذيولها »

وهو كثير في كلام العرب وشعرهم وخطبهم وأمثالهم وليس بنا إلى استقصاء ذلك حاجة ، ولكن للجمال العاطل أيضاً روعة وجلالا ونضرة وملاحة ، وموقعاً حسنا ، ومستمعا طيبا ، وعليه فرند لا يكون على غيره مما عَسر بروزه واستكره خروجه ، وتأثير العبارة لا يكون بحسن تأليفها ، وجودة تركيبها ، وجمال وصفها ، فان ذلك وحده – على شدة الحاجة إليه – غير كاف ، بل لابد للشاعر كما أسلفنا أن

تكون نواحي نفسه جائشة بما يحاول أن ينسجه من خيوط الألفاظ ، ولهذا كان المديح ثقيلاً على النفس ممجوجا في الأذن إلا في الندرة القليلة والفلتة المفردة ، فليست فضيلة التأثير براجعة إلى ارتباط الكلم بعضها ببعض ، وتناتج ما بينها ، ولا إلى خصائص يصادفها القارىء في سياق اللفظ ، وبدائع تروعه من مبادىء الكلام ومقاطعه ، ومجاري الفقر ومواقعها ، وفي مضرب الأمثال ومساق الأخبار ، ولا إلى أنك لا تجد كلمة ينبو بها مكانها ، أو لفظة يُنكر شأنها ، بل فضيلة التأثير راجعة أيضاً وفي الغالب إلى شعور جم وإحساس قوي بما يجري في الخاطر ويجيش في الصدر وإلى القدرة على إبرز ذلك في أحسن حلاه .
انظر إلى أبيات البحتري في وصف الإيوان إيوان كسرى :

حضـــرت رحلـى الهمـوم فوجهت
(م) إلــى أبيــض المـدائــن عنسى

أتســاى عــن الخطـوب وآسى
لمحــل من آل ساسان درس

ذكرتنيهــــمُ الخطــوب التوالي
ولقـــد تذكـــر الخطــوب وتنسى

وهـــمُ خافضـون في ظـل عال
مشــرفٍ يحســر العيـون ويخسى

جلل لـم تكـن لأطـــلال سعدي
في قفــار من البسابس ملــس

ومســاع لــولا المحــاباة مني
لـم تطقـها مسعاة عنسى وعبس

نقـــل الدهر عهدَهــن عن الجدة
(م) حتـــى غدون أنضاء لبـــس

فكـــأن الجرماز مـــن عـــدم الأنس
(م) وإخـــلاله بنيــــةُ رمســـ

لـــو تـــراه علمت أن الليالـــي
جعلـــت فيـــه مأتماً بعد عرس

وهـــو ينبيك عـــن عجائـــب قـــوم
لا يشـــاب البيـــان فيهـــم بلبس

فـــاذا ما رأيـــت صورة إنطـــا
كيـــة ارتعـــت بين روم وفرس

والمنـــايا مواثـــل وأنـــو شروان
(م) يزجـــي الصفوف تحـــت الدرفس

فـــي اخضـــرار من اللباس على أصفر
(م) يختـــال فـــي صبيغـــة ورس

وعِـــراكُ الرجال بيـــن يديـــه
فـــي خفوت منهم وإغماض جـــرس

مـــن مُشيح يهوى بعامـــل رمـــح
ومُليـــح مـــن السنان بتـــرس

تصـــف العيـــنُ أنهـــم جـــد أحيا
ء لهم بينهـــم إشارة خـــرس

يغتلي فيهم ارتيابي حتى
تتقراهم يداى بلمس

قد سقاني ولم يصرد أبو الغوث
(م) على العسكريين شربة خلس

من مدام تقولها هي نجم
أضوأ الليل أو مجاجة شمس

وتراها إذا أجدّت سرورا
وارتياحا للشارب المتحسى

أفرغت في الزجاج من كل قلب
فهي محبوبة إلى كل نفس

وتوهمت أن كسرى أبرويز
(م) معاطيّ والبلهبذ أنسى

حلم مطبق على الشك عيني
أم أمانٍ غيّرن ظني وحدسى

وكأن الإيوان من عجب الصنعة
(م) جوب في جنب أرعن جلس

يتظنى من الكآبة أن يبدو
(م) لعيني مصبّح أو ممسى

مزعجاً بالفراق عن أنس ألف
عزّ أو مرهقاً بتطليق عرس

عكســـت حظّـــه الليـــالي وبات
المشتـــري فيــه وهو كوكب نحس

فهـــو يبدي تجلـدا وعليـــه
كلكل مـــن كلاكـــل الدهر مرسى

لم يعبـــه أن بزّ من بسط الديباج
واستـــل مـــن ستـــور الدمقس

مشمخـــر تعلو لـــه شرفات
رفعـــت في رؤوس رضـــوى وقدس

لا بســات من البياض فمـــا تبصر
(م) منـــها إلاّ فلائل برس

ليـــس يدري أصنـــع إنس لجـــن
سكنـــوه أم صنـــع جـــن لإنس

غيـــر أني أراه يشهد أن لم
يـــك بانيـــه في الملوك بنكـــس

فكأنـــي أرى المراتـــب والقـــو
م إذا ما بلغـــت آخر حســـى

وكـــأن الوفود ضاحيـــن حســرى
مـــن وقوف خلـــف الزحام وخنس

وكأن القيـــان وسط المقاصيـــر
(م) يرجّعـــن بيـــن حـــو ولُعس

وكأن اللقاء أول من أمس
ووشك الفراق أول أمس (م)
وكأن الذي يريد اتباعاً
طامع في لحوقهم صبح خمس
عمرت للسرور دهراً فصارت
للتعزي رباعهم والتأسي
فلها أن أعينها بدموع
موقفات على الصبابة حبس
ذاك عندي وليست الدار داري
باقتراب منها ولا الجنس جنسي
غير نعمى لأهلها عند أهلي
غرسوا من ذكائها خير غرس
أيدوا ملكنا وشدوا قواه
بكماة تحت السنور حمس
وأعانوا على كتائب أريا
ط بطعن على النحور ودعس
وأراني من بعد أكلف بالأشراف
طرا من كل سنخ وأسس

ألست تحس وأنت تقرأها كأنك شاهد الإيوان وحاضر أمره في حالتي نعيمه وبؤسه؟ وهل كان هذا كذلك لأن الشاعر طابق بين المأتم والعرس، والبيان واللبس والمصبح والممسى، والجن والأنس،

واللقاء والفراق وجعل المشتري كوكب نحس وقديما كان يطلع بالسعد ، ومزج لك الشك باليقين ، وجمع بين المؤتلف والمختلف ، وقدم وأخر ، وعرّف ونكّر ، وحذف وأضمر ، وأعاد وكرر ؟ ؟ . كلا ! فانّ في شعره ما هو أحفل من هذه الأبيات بأنواع البديع ولا يبلغ مع هذا مبلغها في التغلغل إلى النفس والولوج إلى القلب ، بل الفضيلة كل الفضيلة في أن الشاعر كان ملآن الجوانح ، مفعم القلب من إحساس مستغرق آخذ بكليتيه ولهذا ترى روحه مراقة على كل بيت ، وأنفاسه مرتفعة من كل لفظ ، وهل الشعر إلاّ مرآة القلب ، وإلاّ مظهر من مظاهر النفس ، وإلاّ صورة ما ارتسم على لوح الصدر وانتقش في صحيفة الذهن ، وإلاّ مثال ما ظهر لعالم الحس وبرز لمشهد الشاعر ؟

نعم إن الاحساس الجم والشعور الملحّ لا يكفيان ، بل لا بد من قوة التأدية وعلو اللسان للترجمة عنهما ، ولكنك إنْ عوّلت على ملاحة الديباجة وجمال الأسلوب وحسن السبك لم تعدُ أن تكون صنعا حاذقاً بصيرا بصرف الكلام ، متصرفا في رقيقه وجزله ، مجودا في مرسله ومسجعه يتخرج عليك طلبة الكتابة وينسج على منوالك روام الانشاء نسجهم على منوال الجاحظ والصابيء . . ألا ترى ما في كلامهما من الفتور — فتور الصنعة لا الطبع ؟ فتور القدرة لا العبقرية — على اختلاف بينهما في الأساليب ، وتباين في مذاهب الكتابة ؟ ؟ أترى الجملة من كلام أحدهما تستفزك كما تحركك الكلمة من خطب الإمام علي ؟ كلا ! إنما كان هذا كذلك لأن الجاحظ والصابيء وإن تباينت مذاهبهما كتاب صنعة ، والإمام علي لم تكن به حاجة إلى الصنعة ، لمجيئه في شباب اللغة ، والألسنة طليقة ، واللهجة بطبعها أنيقة ، والترسل وتطريز الكلام على نحو ما ترى في كلام المتأخرين ليسا معروفين ، هذا إلى أن

أيامه كانت حافلة بما يحرك الخاطر ويبسط اللسان ، فأما الجاحظ مثلا فقط كان من أدباء العلماء ولهذا ترى في كلامه فتور العلم ، والعلم ليس من شأنه أن يستثير العواطف أو يهيج الاحساس ، وسبيل الجاحظ إذا قال أن يمط الكلام مطاً ويطيل مسافة ما بين أوله وآخره ، وهذا أيضاً من دواعي الفتور وبواعث الضعف ، وإن أردت دليلا آخر على أن أشد الكلام تأثيرا ما خرج من القلب فليس أقطع من أن تأثير الشعر أبلغ من تأثير النثر وأن النسيب والرثاء وما يجري مجراهما من فنون الشعر أبلغ تأثيرا من المدح والحكم وأملك لأعنة القلوب :

تأمل قوله المجنون :

كأن القلب ليلة قيل يُغدى
بليلي العامرية أو يراح

قطاة غرّها شرك فباتت
تعالجه وقد علق الجناح

إلى آخر الأبيات ، وقول جليلة بنت مرّة ترثي زوجها كليبا حين قتله أخوها جساس :

يا قتيلاً قوّض الدهر به
سقفَ بيتيّ جميعاً من علِ

هدم البيت الذي استحدثته
وسعى في هدم بيتي الأول

مسني فقد كليبٍ بلظى
من ورائي ولظى مستقبلي

يس من يبكي ليومين كمن
إنما يبكي ليوم ينجلي

درك الثائر شافيه وفي
درك ثأري ثكل المثكل

إلى آخر ما قالت . ثم انظر إلى قول الشمّاخ في المدح :

رأيت عرابة الأوسيّ يسمو
إلى الخيرات منقطعَ القرين

إذا ما رايةٌ رفعت لمجد
تلقاها عرابة باليمين

أو قول زهير :

وإن جئتهم ألفيت حول بيوتهم
مجالس قد يشفى بأحلامها الجهلُ

على مكثريهم حق من يعتريهمُ
وعند المقلين السماحة والبذل

وقل أي هذه الأبيات أشجى وأشد إثارة للنفس وتحريكا للقلب ؟ أأبيات زهير والشماخ وهي من أحسن الشعر وأجوده وأرصنه ؟ أم شعر جليلة وليست من طبقتهما ولا لها دقة معانيهما وشرف أساليبهما وجودة حبكهما ؟ أم أبيات المجنون المستوحش في جنبات الحيّ منفردا عاريا لا يلبس الثوب إلاّ خرقة ، ويهذي ويخطط في الأرض ويلعب بالتراب والحجارة وينفر من الناس ويأنس بالوحش ؟ ؟ أليس لبيتيه

نَوْطَةٌ في القلب وعلوق بالنفس لا تجدهما في أبيات الشماخ وزهير وهما من فحولة الشعراء المعدودين وزعماء القول المتقدمين ؟

ولكنه ليس يكفي المرء أن يكون صائب الفكر صحيح النظر ، ولا أن يجعل صدره رائدا لقلمه ، وقلبه صورةً للسانه ، بل لا بد له إذا ملك أعناق المعاني أن يحسن تسخير الألفاظ لها ، فانه كما لا تكون الفضة أو الذهب خاتماً أو سوارا أو غيرهما من أصناف الحليّ بأنفسهما ، ولكن بما يحدث فيهما من الصورة ، كذلك لا تخلص المعاني من أكدار الشبهات ولا يتم استيلاؤها على هوى النفوس ، إلاّ بما يحدث فيها من النظم ، وإذا كان لا معنى إلا باللفظ ، فما أحراه أن يكون مشرقاً محكمَ الأداء ، والشعر بعدُ فنٌ ، ولا بد في كل فنّ من الإحسان والتجويد ، وإلاّ بار على أهله وأنت فبأي شيء تفضّل قول أبي تمام :

أخـــو عزمـــاتٍ فعله فعلُ محســـنٍ
إلينـــا ولكن عـــذره عـــذر مـــذنب

على قول المتنبي :

يعطيـــــك مبتدئـــاً فان أعجلتـــه
أعطـــــاك معتذراً كمن قد أجـــرما

أو قول البحتري :

إذا محاسنـــــى اللاتـــي أدلّ بهـــا
كانـــتْ ذنوبي فقل لي كيف أعتذر

على قول أبي تمام :

لئـــن كان ذنبي أنّ أحسن مطلبـــي
أساء ففي سوء القضاء ليَ العـــذرُ

أو قول أبي تمام :

وإذا المجـد كان عـوني على المـــر
ء تقاضيتـــه بتـــرك التقــاضي

على قول المتنبّي :

إذكـــارُ مثلك تركُ إذكاري لـه
إذ لا تـــريد لمـــا أريد مترجماً

نقول بأي شيء تفضل البيت على أخيه وهما في المعنى سواء إن لم يكن باحكام السبك والبراءة من وصمات التعقيد والقلق والضعف ؟ ؟

قد يكون الرجل غمرَ القريحة صادق النظر « لو حلّ خاطره في مقعد لَعدا » ثم تراه يعجز عن إبراز هذه الخواطر التي تتدفّق بها بديهتُه ، وتهضب بها قريحته ، في أحسن حلاها ، بل ربما أفرغها في قالب تتعاوره الركاكة ، ويتجاذبه التعقيدُ فلا يكون من ورائه محصولٌ ، على أنه لا ريب في أنّ فن إبراز المعاني رهنٌ أيضاً بصحة النظر وسلامة الذوق وصدق السريرة ، ولكنه أيضاً فوق هذا وذاك ، وليس يستطيعه إلا من أعدته له طبيعتُه ، وهيأت له أسبابه فطرته ، فهو على أنه فنّ ، يحتاج إلى مواهب وملكات ، كالتصوير والموسيقى ، وليس ثم شك في أن كل متعلم يستطيع الكتابه — كما لاشك في أن كل من درس أصول الرسم وقواعدَ التصوير لا يعجز عنهما — ولكن الإجادة والإحسان في كل من ذلك ، ملكةٌ لا تحصل بالدرس ولا تتهيأ بالمعاناة والطلب ، لأن القدرة على استشفاف الصلات بين الأشياء وإدراكها ليست في كل حال مقرونةً بالقدرة على اختيار أفضل

« الرموز » اللفظية لإبراز هذه الصلات وتوضيحها ، هذه قدرة الكاتب ، وتلك قدرة المفكر .

قال « دي كوينسي » — للأسلوب عملان : إيضاح المعنى المستغلق على الأذهان ، وإحياء قوة المعنى وتأثيره بايقاظ الذهن له — نقول ولا بدّ لذلك من حافظة قوية بعيدة النسيان ينتقي منها الكاتبُ أو الشاعرُ خير « الرموز » وأكفلها بأحداث الصور المطلوبة في ذهن القارىء ، وذوق سليم يحور إليه المرء في اختيار هذه « الرموز » ، ليكون حسنُ الأختيار واتّساق النظام معينين للذهن على قبول ما يُراد نقله إليه . ولتعلم أنّ قدرة الذهن على استظهار الألفاظ — كقدرته على إدراك الحقائق ووعيها — ليست إلاّ مصدراً واحداً من مصادر القوة العقلية ، إذا لم يؤازرها الذوقُ السليم والسليقة صارت قوةً تنتهي بصاحبها إلى ضعف . فعلى قدر نصيب المرء من سلامة الذوق ولطف السليقة يكون انتفاعه بمحفوظه ، فقد يستطيع قليلُ المحفوظ — بما رَزق من الذوق ووهب من ملكة الاختيار — أن يفرغ خواطره في قوالبَ منتقاة ملئت جمالاً وقوةً ، يُعيي القوي الذاكرة مكانُ ندّها ، كما يستطيع نزرُ العلم — بما مُنح من حدة الفؤاد وصفاء الذهن — أن يستخلص لك من الصلات الخفية الدقيقة ما يَعمى عنه أولو البسطة وذووا العرفان الشامل المحيط . وإنّ من الخطأ الفاحش أن يظن المرء أن الألفاظ — وهي أدوات الكتابة وآلاتها — هي كل ما يحتاجه ليكون منه كاتب أو شاعر ، كما أنه من أفحش الغلط أن يحسب حاسبٌ أنّ الأصباغ والألوان — وهي مادة التصوير ووسائطه — حسبُ المرء ليكون مصوّرا ، فالمحفوظ الكثير من من أسباب قوة الكاتب أو الشاعر ، ولكنه قد يكون أيضاً من بواعث

ضعفه وتخلّفه ، ولقد صدق بعضهم إذ قال : إنّ الناس يستعملون كثيراً من الصفات والنعوت والمترادفات لعلّ بعضها يصيب إذا طاش أكثرها ، هذا دأب السباعي (١) ووكده ، وهو من أكبر أسباب ضعفه وفتوره وفيما يجد قرّاؤه من الثقل والملال ، ولكن المطبوع يعلم ماذا يأخذ وماذا يطرح ، وإنما يتسرب الضعف إلى الكتابة من ناحيتين : التساهل في العبارة وقلة العناية والتدقيق في استعمال الألفاظ ، والمبالغة في التحبير والتزويق .

فاذا صح ما نذهب إليه من الرأي استوجب ذلك أن لا تكون لغة الشاعر كلغة الناس، بل لغة تصلح لهذه الأفواه السماوية الّتي تخرج منها وتندّ عنها ، ولا يتهيأ ذلك بالمجاز والاستعارة وما إلى ذلك فقط: بل باغفال كل لفظ وضيع مضحك ، ونعني باللفظ الوضيع ما تحوم حَوله ذِكَرٌ وضيعةٌ ، فان كل لفظ لو تفطّنت مبعث طائفة من الذكر بعضها وضيع وبعضها جليل ، ولا مسمح للشاعر عن التنبه إلى ذلك ، وإلاّ أساء إلى نفسه وإلى جلالة خواطره وإحساساته وخيالاته ، وكثيراً ما يسيء الشعراء من هذه الناحية عن قصد وعن غير قصد فيخلطون الغث بالسمين ويطوون المضحك في ثنايا الجليل — أترى لو كان كافور نبياً أتعبأ به شيئا أو يكون له قدر في نفسك وجلال في صدرك بعد هجاء المتنبي له ، وسخريته به ، والتهكم عليه ؟ فاذا شبه أحد الشعراء ملكاً به على سبيل المدح فماذا يكون قولك ؟ ألا تستخف التشبيه وتظن الشاعر

(١) لقد قتل السباعي نفسه بالترجمة وعدم الاعتماد على نفسه في كتاباته ثم بمبالغته في التظاهر بكثرة محفوظه ، فضعف ذهنه وعجز عن التفكير لأنه لم يتعوده . وفترت كتابته لفرط عنايته بتزويقها وإن أضر ذلك بالمعنى فصار لا هو كاتب ولا هو مترجم .

قصد إلى الهجاء لا المدح ؟ وما يقال في الأعلام يقال في غيرها من الأسماء والصفات الخ . لأن لكل لفظ تاريخاً وقد ينحط اللفظ في زمن من الأزمان أو يرقى حسب ظروفه ، شأن كل شيء في هذه الدنيا التي لا يبقى فيها شيء على حال .

* * *

قد نبغ الشعراء من كل أمة كائنة ما كانت ، وظهروا في كل شعب ، كل على قدر مبلغة من الرقي الفكري أفلا يستشف المرء من ذلك شيئاً ؟ وهل ليس للشعر غاية إلا ما يعزونها إليه من إدخال اللذة على القلوب والسلوان على النفوس . أم هل صحيح ما يزعمون من أن الفنون تنشأ من أميال الإنسان الطبيعية وتملأ فراغ الرجل المستوحش والمتمدين المترف سواء بسواء ، إن هذا الرأي الذي لا يخرج إلا من رأس منطيقي جاف يسفل بالشعر إلى منزلة الأ لا عيب ويا سوءها منزلة ، ولكن هذا المنطق مكذوب لحسن الحظ . وذلك أن السرور واللذة الحاصلين من الشعر إحدى غاياته ولا ريب لأنه إذا لم تحدث المتعة فقد ضاع فعله وصار كأنه لم يكن ، ولكنها ليست الغاية القصوى وإنما نتج هذا الغلط من الجهل وعجز الذهن عن التفكير الصحيح . ألا ترى أن المرء يأكل ولا ترى مع هذا أحدا يقول إن اللذة المستفادة من الطعام هي غاية الحاجة إليه . بل الناس جميعاً يعلمون أن الغاية من الطعام الصحة والقوة والقدرة على استخدام قوى الجسم ، فكأنما أرادت الطبيعة أن تجعل من اللذه المكتسبة من الطعام شاحذاً لشهوته حتى يتم لها ما تريد منه ويستيسر ما قصدت إليه .

إن من يتدبر تاريخ الشعر لا يسعه إلا التفطن إلى عنصر مكون له في كل دور من أدواره وصفة غالبة عليه في كل طور من أطواره وهي ما اسميه « الفكرة الدينية » فان كل شاعر في كل عصر نبيه وطفله معاً. ومهما تكن أغانيه مصبوغة بألوان عواطفه وإحساساته وخيالاته فانه لا يزال لها هذه الغاية: السمو بقومه إلى درجة من الفكر أعلى ومستوى من التصور أرقى: قال سكوت: « إن آلهة الشعر يقيدن في ما يوحين تاريخ المبتوحشين وشرائعهم ودياناتهم ولذلك لا تكاد تجد شعبا مهما بلغ من استيحاشه وعنجهيته لا يصغي إلى أغاني شعرائه وما تضمنت من أخبار آبائه وأجداده وشرائعهم ومبادئهم وأخلاقهم ومدح آلهتم» وليس في الأرض من ينكر فعل الشعر وتأثيره الأخلاقي ولكن هذا التأثير إذا حللته صار ماذا؟ أليس هو « الفكرة الدينية؟ » ولسنا نعني بالفكرة الدينية هذه الأديان التي جاء بها محمد وعيسى وموسى وغيرهم وإنما نعني أن كل « فكرة » عليها مسحة من الصبغة الدينية التي هي قاعدة كل حقيقة تدفع إلى تدبر اللا نهاية تدبرا جديدا أو إلى مظاهر جديدة في صلاتنا الاجتماعية، فالحرية والمساواة والأخوة (وتلك شعار القرن المنصرم) ليست قوانين في شريعة العصر ولكنها لما كانت غايتها النهوض بغرض اجتماعي فلسنا نرى ما يمنع من أن نسميها دينية. وليحذر القارئ من تضييق الخناق على مدلول ألفاظنا ولا يتعجل في تطبيقها إذ لا ريب أن الشاعر لا يسوق لك هذه « الفكرة » عريانة الهيكل وقد لا يحسها أو يدركها، ذلك سبيل الفيلسوف. وعلى أنا وإن كنا نستعمل لفظة « الفكر » بأوسع معانيها العامة وكنا نعني بها روح العصر جملة إلا أنه لا تخفي عنا عناصرها المتضادة التي تتألف

منها ولا يغيب عنا أنه قد لا تحتوي القصيدة إلاّ بعض هذه العناصر ولكن ندع شرح ذلك وتبينه لما نحن موردوه عليك بعد .

ليس أظهر في تاريخ الشعر ولا ألفت للنظر من علاقته بالدين ولقد كان عماد الشعر القديم وقوامه الأناشيد الدينية والأساطير المقدسة والآمال الحارة ، قال الدكتور أو لريكي في كلامه عن شاكسبير : « الأصل في الشعر وفي الدين واحد — وفي هذا دلالة على أنه إلهي وأنه إلهام ثان ا هـ » وأنهما لكذلك في جوهرهما أيضاً وليس جنوح الشعر في عصور المدنية عن وظيفته المقدسة إلا في الظاهر لأن غاية الدين وغاية الشعر كانتا ولا تزالان واحدة ، وغاية الدين فيما نعلم ليست العقيدة النظرية بل النتيجة العملية أي السمو بالناس إلى منزلة لا تبلّغهم إياها غرائزهم الساذجة وعواطفهم الطليقة ، وتلك لعمري غاية الشعر أيضا ولكن من طريق الجمال . فالفرق بينهما ليس في الغاية ولكن في الوسيلة لأن الشعر يطهر الروح من طريق العواطف والإحساسات لا بالصوم والصلاة وغيرهما من مراسم العبادة . وقد يستعين الدين بالعواطف ولكنه أبدا يستعين بالعقل ويخاطبه أكثر مما يخاطب العواطف .

وغاية الشعر أن يُدخل في متناول الحس العواطفَ والمدركاتِ وكلَّ ماله وجودٌ في العقل ، وأن يوقظ الحواس الخامدة والمشاعر الراكدة ، وأن يملأ القلب ويشعر النفس كلّ ما تستطيع الطبيعة البشرية احتماله وكل ماله قدرة على تحريكها وابتعاثها ، وأن يدربّ المرء على الاستمتاع بتدبر عظمة الجلال والأبد والحق ، وأن يمثّل ذلك للإحساس ويحضره للذهن . وأن يكشف لنا عن وجوه الألم والحزن

والخطأ والإثم ، وأن يعين القلب على تعرّف الهول والفزع والسرور واللذة ، وأن يخفق بالوهم على جناح الخيال ويفتنه بسحر عواطفه وخواطره ، وأن يسدّ النقص في تجاريب المرء ، وأن يثير فيه تلك العواطف التي تجعل حوادث الحياة أشد تحريكا له وتجعله أشد استعدادا لقبول المؤثرات على اختلاف أنواعها ودرجاتها ، لأنه ليس بالإنسان حاجة إلى التجريب الشخصي لتتحرك فيه هذه العواطف ، بل حسبه «ظاهر» التجريب الذي يهيئه له الشعر ، وإنما يستطيع الشعر أن يقوم مقام التجربة الشخصية الواقعة بما يمثّل للمرء ، لأن كل حقيقة واقعة يجب أن تمثّل في الرأي قبل أن يتعرّفها الذهن أو تؤثر فيها الإرادة . ومن أجل ذلك كان سواءاً على المرء أن تؤثر فيه الحقيقة الواقعة بالذات أو يأتي التأثير من طريق آخر كالصور والرموزالتي تمثل صفات هذه الحقيقة، فان في طاقة الإنسان أن يصور لنفسه ما ليس له وجود حتى يعود وكأن له جسما يحس ويلمس ، فسيان عند الإنسان أن يؤثر فيه الشيء نفسه أو مثاله لأنه يحرك فيه عوامل الفرح والحزن على كل حال وسواء أكان الشيء حاضراً أم ماثلاً في الخيال بصورته فان الإنسان لا يسعه إلا أن يحس حركات الغضب والبغض والرحمة والقلق والفزع والحب والإجلال والعجب والشرف والشهرة ، فكأنّ هذه الرموز الشعرية اللسانُ المترجم (كما يقول هوريس) عن الحقائق .

قال هجل : « حتى الدموع على الأحزان أعوان ، وحتى رموزها فيها للشجيّ سلوان . لأن الإنسان إذا كظه الحزن تلمس مظهرا لذلك الألم الباطن ، ولكن العبارة عن هذه الإحساسات «الألفاظ والصور والألحان أوقع في القلب وألطف في النفس وأروح للصدر ، ولقد فطن

القدماء إلى نفع ذلك. فكانوا يقيمون المآتم فيتأمل الحزن مظهره ويرى الحزين غيره ينطق بلسان كمده ويحمله كثرة ما يسمع وترديد ذكر ما يفجع على التفكير فيه ، فيروّح عنه ذلك ويمسح أعشار قلبه بيد السلوان ولذلك كان غزارة الدمع ووفرة النطق خير وسيلة لاطراح أعباء الهموم عن عاتق الشجى والترفيه عن القلب المثقل بالأوجاع » .

ولا يجهلن أحد فيحسب أن الدين والفلسفة والشعر شيء واحد ، فانها على اتصال ما بينها وإحكام رابطتها ، لكل منها مظاهر خاصة ، جميعاً على اختلاف مظاهرها ومناهجها تمثل « وجوه الفكرة » في كل عصر . قال ريتر : « لو كان للدين دقة العلم لما عاد دينا ولصار فلسفة. الأصل في الدين الوحي والإلهام لا التدقيق والتقرير أما الفلسفة فانها تستقي عقائدها من موارد العقل المحاذر الخ » وقال كوزان : « كل عصر من عصور المدنية تغلب عليه (فكرة) حيوية عميقة غامضة ولكنها أبداً تحاول أن تتكشف للناس في مظاهر حياتهم وفي قوانينهم وآدابهم وديانتهم . وتلك هي وسائطها المترجمة عنها » وقال جوفروي في الفرق بين الشعر والفلسفة : « الشاعر يترجم في الأغاني عن عواطف العصر وإحساسه بالخير والجمال والحق ، وهو يعبر عما يجيش بصدور الجماعة من الخواطر الغامضة ولكنه لا يستطيع أن يوضحها لأنه أحس منهم ولكنه ليس أقدر على تفهمها ، وما يتفهم هذه الخواطر الغامضة إلا الفلاسفة ، ولو أن الشاعر استطاع أن يقف عليها ويكشف عنها لصار فيلسوفا لا شاعرا » .

وبعد ، فان كان رأينا غير صحيح وليس ثمت « فكرة » ينطق بها الشاعر ويترجم عنها ، ولم يكن الشعر إلا عبارة عن الإحساس من

أجل أنه إحساس ، فما تأويل أن كل العصور لا تنتج الشعراء على السواء ؟ ولماذا يظهر الشعراء في عصر من العصور ثم ينام بأمثالهم الزمن قرونا ؟ لا أرى (الصدفة) تكفي في شرح ذلك وتعليله ، لأنّ الذي يقلب تاريخ الأمم لا يسعه إلا نبذ هذا الرأي إذ كان الشعراء لا ينبغون في عصور الترف والخمول والسلم السمين بل في عصور النزاع والقلق والاضطراب — تأمل أثينا بلاد القلق والاضطراب وإيطاليا أيام دانتي وبترارك حين كان يتنازعها الأحزاب وتفت في عضدها الحروب — وإنجلترة في عهد اليزابث وجيمس وبعد الثورة وبعد الثورة الفرنسوية والعرب في جاهليتهم وفي عصور النزاع والاضطراب التي تلت الإسلام. وفي غير هذه فانك حيثما قلبت طرفك لابد واجدٌ مصداق قولنا وإنما كان هذا هكذا لأن كل ثورة أو انقلاب إيذانٌ بمولد فكرة أو مذهب يحسه الناس جميعاً فينشأ الشعراء ليعبروا عن هذه الفكرة أو المذهب وليشرحوا للناس آمالهم في الحياة وفي المستقبل ولكن الشاعر كما أسلفنا القول لا يعطيك من هذه (الفكرة) جثمانها العريان ولعله لا يفهم هذه الفكرة كل الفهم ولا يحسها كل الإحساس ولا يتناول إلا وجوها منها: ومن هنا نشأت الحاجة إلى أكثر من شاعر واحد ليتم إيضاح الفكرة من جميع جهاتها وعلى كل وجوهها . وهذا أيضاً هو السر في كثرة المقلدين الذين يتعقبون آثار الشاعر لأنهم يجدون خواطرهم وإحساساتهم مترجمة لهم في كلامه فيشايعونه ويجرون وراءه رافعين أصواتهم بمثل ندائه وشبه آماله ومخاوفه .

* * *

- ٢ -

شعر حافظ

وهى مقالات عدة فى نقده
نشر بعضها فى « عكاظ »

بقلم

ابراهيم عبد القادر المازنى

الطبعة الاولى

١٣٣٣ — ١٩١٥

مطبعة البوسفور شارع عبد العزيز بمصر

مقدمة

كتبنا هذا النقد منذ عام ونشرناه تباعاً في عكاظ ولم يكن الباعث لنا عليه كما حسب بعضهم ضغينة نحملها الرجل أو عداوة بيننا وبينه ، وكيف يكون شيء من ذلك ولا علم لنا به ولا صداقة ولا صحبة ، ولا نحن نرتزق من الكتابة والشعر . أو نزاحمه على الشهرة لأن ما بيننا من تباين المذهب واختلاف المنزع لا يدع مجالاً لذلك ولكني لسوء الحظ أحد من يمثلون المذهب الجديد الذي يدعو إلى الاقلاع عن التقليد والتنكيب عن احتذاء الأولين فيما طال عليه القدم ولم يعد يصلح لنا أو نصلح له . أقول لسوء الحظ لأنه لو كان الناس كلهم يرون رأينا في ضرورة ذلك وفي وجوب الرجوع عن خطأ التقليد لربحنا من الوقت ما نخسره اليوم في الدعوة إلى مذهبنا ومحاولة رد جمهور الناس عن عادة اذا مضوا عليها أفقدتهم فضيلة الصدق ومزية النظر وهما عماد الأدب وقوام الشعر والكتابة .

ولو كان الناس اعتادوا النقد وألفوا الصراحة في القول وتوخي الصدق في العبارة عن الرأي لما كانت بي حاجة إلى هذه المقدمة أو ضرورة إلى تبرئة نفسي ودفع ما يرمونني به ولكنت أنشر النقد على ثقة من حسن ظن القراء وبخلوص نيتي وبراءة سريرتي مما تصفه الأوهام ويصوره الجهل . ولكنا لسوء الحظ مضطرون أن نثبت حسن القصد في

كل ما ننقد كأن المرء لا يمكن أن يفعل شيئاً الا ودافعه الضغائن والأحقاد. ومن سوء حظ الناقد في مصر انه يكتب لقوم لا يستطيع أن يركن إلى انصافهم أو يعول على صحة رأيهم وليسامحني القراء في ذلك فقد رأيت عجباً أيام كنت أنشر هذا النقد : من ذلك أني كنت اذا قلت ان حافظاً اخطأ في هذا المعنى أو ذاك قال بعضهم « لم يخطئ حافظ وانما اتبع العرب وقد ورد في شعرهم أشباه ذلك » كأن كل ما قال العرب لا ينبغي أن يأتيه الباطل ولا يجوز أن يكون الا صحيحاً مبرّءاً من كل عيب. الى غير ذلك مما يزري المرء باليأس ويحمله على القنوط من صلاح هذه العقول .

واذا فرضنا ان العرب أصابوا في كل ما قالوا أفترى ذلك يستدعي أن نقصد قصدهم ونحتذي مثالهم في كل شيء ونحن لا نحيا حياتهم ؟ ألسنا الوارثين لغتهم وللوارث حق التصرف فيما يرث ؟ هل تقليدك العرب وجريك على أسلوبهم يشفع لك في خطأ نحوي أو منطقي ؟ كلا : إذاً فكيف يشفع لك في غير ذلك مما لا يصح في العقول ولا يتفق مع الحق ؟ وكيف نتحاكم الى العقل في الأولى ولا نستقضيه في الثانية ؟

لا ننكر ما لدراسة الأدب القديم من النفع والفائدة وما للخبرة ببراعات العظماء قديمهم وحديثهم من الفائدة والأثر الجليل في تربية الروح ولكنه لا يخفي عنا ان ذلك ربما كان مدعاة لفناء الشخصية والذهول عن الغاية التي يسعى اليها الأديب والغرض الذي يعالجه الشاعر والأصل في الكتابة بوجه عام .

على انه مهما يكن فضل القدماء ومزيتهم فليس ثم مساغ للشك في أنك لا تستطيع أن تبلغ مبلغهم من طريق الحكاية والتقليد فان الفقير

لا يغني بالاقتراض من الموسرين ولست أقصد الى نبذ الكتاب والشعراء الأولين جملة وعدم الاحتفال بهم فان ذلك سخف وجهل ولكني أقول انه ينبغي أن يدرس المرء في كتاباتهم الأصول الأدبية العامة التي لا ينبغي لكاتب أن يحيد عنها أو يغفلها بحال من الأحوال – كالصدق والاخلاص في العبارة عن الرأي أو الأحساس – وهذا وحده كفيل بالقضاء على فكرة التقليد .

وبعد فانة لا يسع من ورد شرعة الأدب ، وعلم انه يحتاج الى مواهب وملكات غير الكد والدؤوب والاحتيال في حكاية السلف والضرب على قلبهم والاقتباس بهم فيما سلكوه من مناهجهم ، ومن تبسط في شعر الأولين لا ليسرق منه ما يبتني به بيوتاً كبيوت العنكبوت ، ولكن ليستضيء بنوره ويستعين به على استجلاء غوامض الطبيعة وأسرارها ومعانيها ، وليهتدي بنجوم العبقرية في ظلمة الحياة وحلوكة العيش ، وليتعقب بنظره شعاعها المتغلغلة الى ما لم يتمثل في خاطر ولم يحلم به حالم – أقول لا يسع من هذا شأنه وتلك حاله الا أن ينظر الى حال الأدب العصري نظرة في طيها الأسف والخيبة واليأس وكأنما شاءت الأقدار أن يذيب أحدنا نفسه ويعصر قلبه وينسج آماله ومخاوفه التي هي آمال الانسانية ومخاوفها ويستوري من رفات آلامه شهاباً يضيء للناس وهو يحترق ، ثم لا يجد من الناس أخاً حنّاناً يؤازره ويعينه على الكشف عن نفسه وازاحة حجب الغموض عن احساسات خياله التي ربما التبست على القارىء لفرط حدتها أو غابت في مطاوي اللفظ واستسرت في مثاني الكلام .

أليس أحدنا بمعذور إن هو صرخ وبه من سانح اليأس خاطر

« ياضيعة العمر ! أقصّ على الناس حديث النفس وأبثهم وجد القلب ونجوى الفؤاد فيقولون ما أجود لفظه أو أسخفه كأني الى اللفظ قصدت! وأنصب قبل عيونهم مرآة للحياة تريهم او تأملوها نفوسهم بادية في صقالها فلا ينظرون الا الى زخرفها وإطارها وهل هو مفضض أم مذهب وهل هو مستملح في الذوق أم مستهجن وأفضى اليهم بما يعيي أحدهم التماسه من حقائق الحياة فيقولون او قلت كذا بدل كذا لأعيا الناس مكان نلك ! مالهم لا يعيبون البحر باعوجاج شطئانه وكثرة صخوره ياضيعة العمر ! » .

سيقولون ما فضل مذهبكم الجديد على مذهبنا القديم وماذا فيه من المزية والحسن حتى تدعوننا اليه ؟ وبأي معنى رائع جئتم . وماذا ابتكرتم من المعاني الشريفة والأغراض النبيهة ؟ فنقول قد لا يكون في شعرنا شيء من هذه المعاني الشريفة والأغراض النبيهة التي تطلبونها وتبحثون فيه عنها ولا تألون أنتم جهداً في الغوص عليها وفتح أغلاقها والتكلف لها . وقد لا نكون أحسنا في صوغ القريض ورياضة القوافي ولكن خيبتنا لا يصح أن تكون دليلاً على فساد مذهبنا وعقمه اذا صح اننا خبنا فيما تكلفناه وهو مالا نظنه ، بل هي دليل على تخلف الطبع لا أكثر من ذلك . وعلى فرض ذلك كله فان لنا فضل الصدق وعليكم عار الكذب ودنيئة الافتراء على نفوسكم وعلى الناس جميعاً وحسبنا ذلك فخراً لنا وخزياً لكم .

ليس أقطع في الدلالة على انكم لا تفهمون الشعر ولا تعرفون غاياته وأغراضه من قولكم ان فلاناً ليس في شعره معان رائعة شريفة لأن الشاعر المطبوع لا يعنت ذهنه ولا يكد خاطره في التنقيب على معنى لأن هذا

تكلف لا ضرورة له . أو ليس يكفيكم أن يكون على الشعر طابع ناظمه وميسمه ، وفيه روحه واحساساته وخواطره ومظاهر نفسه سواء أكانت جليلة أم دقيقة ، شريفة أم وضيعة ؟ وهل الشعر الا صورة للحياة ؟ وهل كل مظاهر الحياة والعيش جليلة شريفة رفيعة حتى لا يتوخّى الشاعر في شعره الا كل جليل من المعاني ورفيع من الأغراض ؟ وكيف يكون معنى شريف وآخر غير شريف ؟ أليس شرف المعنى وجلالته في صدقه ؟ فكل معنى صادق شريفٌ جليل ، ألا أن مزية المعاني وحسنها ليسا في ما زعمتم من الشرف فان هذا سخف كما اظهرنا في مامر ولكن في صحة الصلة أو الحقيقة التي أراد الشاعر أن يجلوها عليك في البيت مفرداً أو في القصيدة جملة ، وقد يتاح له الأعراب عن هذه الحقيقة في بيت أو بيتين وقد لا يتأتى له ذلك في قصيدة طويلة وهذا يستوجب أن ينظر القارىء في القصيدة جملة بيتاً بيتاً كما هي العادة فان ما في الأبيات من المعاني اذا تدبرتها واحداً واحداً ليس الاّ ذريعة للكشف عن الغرض الذي اليه قصد الشاعر وشرحاً له وتبييناً .

وأنتم فما فضل هذا الشعر السياسي الغث الذي تأتوننا به الحين بعد الحين وأي مزية له ؟ وهل تؤمنون به ؟ وهل اذا خلوتم إلى شياطينكم تحمدون من أنفسكم أن صرتم أصداء تردد ما تكتبه الصحف ؟ وهل كل فخركم انكم تمدحون هذا وترثون ذاك ؟ وأنتم لا تفرحون بحياة الواحد ولا تألمون موت الآخر ؟ ما أضيع حياتكم ؟

ليس أدل على سوء حال الأدب عندنا من هذا الشك الذي يتجاذب النفوس في أولى المسائل وأكبرها ولقد كتب نقادة العرب في الشعر على قدر ما وصل اليه علمهم وفهمهم ولكنهم لم يجيئوا بشيء يصلح أن يتخذ

دليلاً على ادراكهم لحقيقته . ولسنا ننكر أن كتاب الغرب متخالفون في ذلك ولكن تخالفهم دليل على نفاذ بصائرهم وبعد مطارح أذهانهم ودقة تنقيبهم وشدة رغبتهم في الوصول الى حقيقة يأنس بها العقل ويرتاح اليها الفكر كما ان اجماع كتاب العرب وتوافقهم دليل على تقصيرهم وتفريطهم وانهم كانوا يقلد بعضهم بعضاً ان لم يكن دليلاً على ما هو أشين من ذلك واعيب .

غير أنّ هذا القلق والشك المستحوذين على النفوس لعهدنا هذا هما الكفيلان بأن يفسحا رقعة الأمل ويطيلا عنان للرجاء لأن القلق دليل الحياة والشك آية الفطنة وما يدرينا لعلنا في غد نجني من رياض هذا القلق أزاهير السكينة والطمأنينة ؟

المازني

* * *

شكري وحافظ

قد اثرنا ان ننشر النقد كما هو ولم نر ضرورة للتبديل فيه لأن رأينا لم يتغير ولكنا زدنا عليه اشياء خطرت لنا فيما بعد .

(١)

لا نجد أبلغ في اظهار فضل شكري والدلالة عليه ، وبيان ما للمذهب الجديد على القديم من المزية والحسن ، من الموازنة بين شاعر مطبوع مثل شكري ، وآخر ممن ينظمون بالصنعة مثل حافظ بك ابراهيم ، فان الله لم يخلق اثنين هما أشد تناقضاً في المذهب وتبايناً في المنزع ، من هذين والضد كما قيل يظهر حسنه الضد ،

حافظ رجل نشأ أول ما نشأ بين السيف والمدفع ، ومن أجل ذلك ترى في شعره شيئاً من خشونة الجندي وانتظام حركاته واجتهاده وضعف خياله وعجزه عن الابتكار والاختراع والتفنن ، ولعل هذا هو السبب أيضاً في أن حافظاً لا يقول الشعر الا فيما يُسأل القول فيه من الأغراض بيد أنه على ما به من ضيق في المضطرب ، وتخلف في الخيال ، كان أفصح لسان تنطق به الصحف وأقدر الناس على نظم معانيها ، وتنضيد أخبارها ، وتنسيق فقرها لو أن هذا مما يحمد عليه الشاعر أو أن في هذا فخراً لأحد شاعراً كان أو غير شاعر .

أما شكري فشاعر لا يصعد طرفه إلى أرفع من امال النفس البشرية

ولا يصوبه إلى أعمق من قلبها – ذلك دأبه ووكده – وهو لا يبالغ كحافظ في تحبير شعره وتدبيجه بل حسبه من الوشي والتطريز أن يسمعك صوت تدفق الدماء من جراح الفؤاد، وأن يفضي اليك بنجوى القلوب والضمائر ، وأن يريك عيون الندى على خدود الزهر ، وافترار ضوء القمر على مكفهر القبور، ووميض الابتسامات في ظلام الصدور ، وأن ينشقك نسيم الرياض وأنفاس السحر ، وأن يشعرك هزة الحنين ودفعة اليأس والأمل . وأن يغوص بك في لجج الفكر ليكشف لك

(عن) معان يـود لو صاغـها المرء
وحلي بهـا وجـوه البيـان

لـن تراها بالرأي حتـى تراها
بفـؤاد مـوفـق يقظـان

طالمـا نالها أخـو الصمـت والصمـ
ـت كـريـم البيـان جـم الأمان

يتناول أبسط معاني الطبيعة والعقل وأشدها ارتباطاً بالحياة وتصالاً بالنفس ثم يصوغ لك منها شعراً نقي المستشف ، كثير الماء ، جم لمحاسن

يحـدث النفس بأمـر الهـوى
ويسـأل الأرواح رجـع السؤال

وعلى الجملة فان شعره وحي الطبيعة ورسالة النفس

وليس شعر شكري ببدعة في هذا العصر ، ولكنه نتيجة طبيعية اتمادي الشعراء في المنهج القديم ، ولجاجتهم في احتذاء المثال العتيق ،

والضرب على قالب المتقدمين من شعراء العرب ؛ ولو لم يكن شكري لنبغ من غيره هذا الشعر الذي نقرأه له اليوم .

وكذلك يختلف اسلوبه الكتابي عن اسلوب حافظ كما تختلف أغراضهما الشعرية ومناهجهما في استفتاح أغلاق المعاني ، وذلك أن حافظا شديد التعمل ، مفرط التكلف ، كثير التأنق وشكري يسحّ بالشعر سحاً لا يسهر عليه جفنا ، ولا يكد فيه خاطرا ؛ ولا يتعهد كلامه بتهذيب أو تنقيح ؛ وحافظ يكسو المعاني المطروقة الاسمال البالية ، وشكري لا يبالي أي ثوب لبس بمعانيه مادامت هذه صحيحة لا يقوم بينها وبين النفوس حجار ،وبعد فان حافظاً اذا قيس الى شكري لكالبركة الآجنة الى جانب البحر العميق الزاخر ، وحسب القارىء أن يتأمل ديوانيهما ليعلم ما بينهما من البعد وليعرف كيف يقعد الخيال بحافظ ويسمو بشكري في سماء الفكر ، وكيف يجني التقليد على الرجل ويغلق في وجهه أبواب التصرف والتفنن، فان حافظا قد حذا في شعره حذو العرب وقلدهم في أغراضهم وفرط عنايتهم بصلاح اللفظ وان فسد المعنى . وشكري قد صدع هذه القيود وفكها عن نفسه ، لعلمه ان المقلد لا يبلغ شأو المبتكر وانك مهما قلدت العرب فلن تأتي بخير مما جاؤا به ، ولأن له من سلامة الذوق وصدق النظر ما يريه غثاثة هذه الأغراض القديمة الدارسة وفسادها ، ولانه وجد من سخاء خياله ، وخصب قريحته ، وسعة روحه خير معين له على افتراع طريقة بكر لم يبتذلها كثرة الطراق ولا عفى على رسمها القدم .

(٢)

كتبنا عن شكري في العدد الماضي كلمة وجيزة أحفظت بعض

أنصار حافظ وأشياعه ، ولقد عابونا بها على ما بلغنا ، وقالوا أجملت ذكر شكري . ومدحته أحسن مدح ، وغمطت حافظا واستهنت به ، وسخرت منه . فكأن أصحابنا لم يلوموا أنا نقدنا شعر حافظ ، ولكن لاموا أنا لم نتفخمه ، ولم ينكروا رأينا ، ولكن أنكروا استضعافنا للرجل واستصغارنا لشأنه ، وهو الذي سار أسمه كل مسير ، وتجاوبت بصدى ذكره المحافل ، ولعمري كيف أجاه ولا قدر لشعره في نفسي ، وكيف أعظمه وليس عندي بالعظيم ، أو أكبر شعره ولست على يقين من انه سيبقى على الزمن الآتي .

ولقد بلغنا ان حافظا بسط لسانه فينا وندد بنا ، وتناولنا بالذم والتنقص ، وهذا مظهر عجيب من مظاهر الأنانية وجزونها ، وشاهد صادق على ضيق الروح ، وعامية النفس ، لأن العظيم لا يحب المدح لذاته ، ولكن لأن فيه اعترافاً بالحق الخالد والجمال الأبدي وهو لا يحب نفسه أكثر من حبه لمظاهر هذا الحق لأن فطنته لمعاني الحق والجمال تكسر من غلواء أنانيته ، وليس أدل على العظمة ، وسعة الروح من أن الرجل يستطيع أن يصبر على مطل الأيام وتواني الشهرة عنه وانه لا يقبل على الناس باللوم من أجل أنهم لم يشكروا له عملا ولم يشعروا بفائدته ، ولا أحسوا بالحاجة اليه . وأخلق بمن طال ذكره لنفسه أن ينساه الناس وبمن يستعجل الشهرة أن لا يظفر منها الا بنصيب وشيك الزوال ، واذا كان طالب الشهرة لا يستلذ عماه الا بقدر تمداح الناس له فما أخلقهم أن لا يجدوا فيه شيئاً حقيقاً بالمدح والثناء ، وجهل بين ، وغرور كبير في الرجل أن يتوقع الثناء على عمله من أجل انه عمله ، لا على قدر ما فيه من الحق والجمال .

أرى طول عهد الناس بالملق والمغالطة والمصانعة قد أنساهم حلاوة الصدق ، ولكنهم خليقون أن يروضوا أنفسهم على تذوقه ، فان ذلك أجدي عليهم ، وأدل على كرم الشيمة ، وشرف المنزع ، ونحن فلا نرى بأساً من ارضائهم بمجاوزة الاجمال الى التفصيل وان كانا ذلك اغضاب حافظ وهو مالا نحب فان الرجل ليس من أعدائنا وان لم يكن على ذلك من اصدقائنا ..

قلنا ان شكري أسمح خاطراً . وأخصب ذهنا وأوسع خيالاً ، وان سبيله غير سبيل حافظ ، فهل يرى القارىء أنا بعدنا عن مرمى السداد ، أليس شعر حافظ قاصراً على المدح والرثاء ، ونظم منثور الأخبار ، وصوغ مقالات الجرائد . وهل خرج حافظ عن الطريق القديم الدارس أو قال غير ما قالت فيه العرب : هذا ديوانه في « مكتبة الاصلاح » فليبتعه من له به عهد ان كان في شك مما نقول ، وهل أدل من ذلك على التقليد ووهن السليقة وقصور الباع ؟ واذا لم يكن التقليد عنوانا على العجز عن الابتكار فأي شيء أدل منه وأبلغ في اظهار العجز والقصور ؟ على أنهم يقولون ان التقليد ليس بعيب ونحن نقول مهما يكن من الأمر فانه في كل حال دليل على ضعف الخيال ، وعدم القدرة على الابتداع ، وفقدان الشخصية ، وفنائها في غيرها . . . ولعلك وأجد من يقول لك أن حافظاً طرق أبوابا من الشعر لم يسبق اليها فقال في زلزال « مسينا » وحرب « اليابان » والحرب الطرابلسية وفي الحوادث الجسيمة مثل قضية الزوجية ! وحريق ميت غمرو « ودنشواي » وغلاء الأسعار وزاد في الأوصاف وصف الجرائد ونعت البورصة والفونغراف كأنه لم يسبق الى ذلك أو كأن العرب لم

تجعل شعرها ديواناً لاخبارها وأيامها ووقائعها ؟ هاتوا قصيدة لحافظ حقيقة بهذا الأسم نأتكم ببيت واحد من ديوان شكري يفضل كل ما قاله حافظ واضرابه . وبعد فبماذا يفضل حافظ شكري ؟ أبسرقاته التي لا تحصى واغاراته التي يكاد يخطئها العد ؟ أم بتشببه بصفراء مسلولة ؟ تنسى اليهود الذهبا ، أم بسقم خيانه الذي زين له أن يقذف بالوابور من فوق الجسور ليحض الناس على البذل لجمعية رعاية الأطفال ومؤاساتها بالمال أم بقوله يصف الجرائد .

جــــرائـــد ما خـــط حـــرف بها . لغيــــــر تفــريــق وتضليــــل
يحـــــلو بهــــا الكــذب لأربابها كأنـــــها أول ابــــريــــل

وفيها من ثقل الروح ، وبرود الفكاهة ، وجمود الخيال ، مالا يخفي على العامي فضلاً عن الأديب . أم بقوله ينعت الفونوغراف .

وجــــدوا السبيــل الى التقاطـــع بيننا والسمــــع يملكه الكذوب الحــاذق
لا تجعلي الواشيـــــن رسلك في الهوى فــلأصــدق الــرسل الجمــاد الناطق

وفيهما من السخافة والبعد عن الفرض ما فيهما . وأين يقع هذان وأين يقع هذان البيتان من قول شكري في الفونوغراف .

هــــل علـــم الغريـــد في وكـــره شـــأن الـــذي خفض من قـــدره

وهـــل درى المطـــرب ماذا الــذي
يستحضـــر المحـــود مـــن قبـــره

ياعجبـــا مـــن ناطق أبكـــم
تأتلـــف الألحـــان في صـــدره

يستخـــرج اللحـــن بمسنونـــة
تـــزيـــل داك اللبس عن امـــره

تخـــط في اعطـــاف احـــرفاً
كأنهـــا تبحـــث عـــن ســـره

يـــروي أحاديـــث اناس مضـــوا
كأنهـــا مـــرت على فكـــره

وأنت أيها القارىء فقل أيهما أبعد غاية ، وأرشق معنى ، وأرق فكراً ، وألطف تخيلا . ولكنا نقول مع شكري :

كـــم وردة ليس لهـــا ناشـــق
يحفـــها الروض بواد سحيـــق

وخامـــل والفضـــل مـــن حظه
قـــد احرجوه بالأذى والعقـــوق

(٣)

قال لي صديق « لقد تاب حافظ عن قول الشعر ، وزجر غراب غروره ، فهلا أقصرت أنت أيضاً عن نقده ؟ » فقلت « لئن كان حافظ قد تاب فان الناس لم يتوبوا ، وما زال فيهم من يعده في الشعراء .

ويسميه شاعر النيل وشاعر الشرق ، ولن اكف عنه حتى يثوب الناس إلى رشدهم ويعلموا انه لا يعدّ الا في رجال المكتبة الخديوية » .

ولو كان للأدب حكومة تنتصف له من المسيء ، وتكافىء المحسن لكان أقل جزاء حافظ على ما ارتكب من الشعر ان يبتاع ما اشتراه الناس من كتبه ثم يحرقها بيده لأن شعره جناية على الأدب ، وأنت فقد تعلم ان من الشعر ما يكون آثماً ، ومنه ما هو بريء صالح ، أما الآثم فذلك الذي يفسد الذوق ، ويعود الناس الكذب ، ويضلل النفوس ، وشعر حافظ من هذ النوع .

وذلك لأن حافظا ليس صادقاً في شعره ، فهو يذم اليوم ما امتدحه بالأمس ، وانما تراه يفعل ذلك لأنه ضعيف الذهن لا رأى له في شيء ما وسبيله اذا أراد أن يقول شعراً في (حادثة) ان يغشى مجالس أهل الحصافة ويذاكرهم الحديث ، ليعرف ما ينبغي أن يكون رأيه ، رغبة فيما يتبع ذلك من طيب الثناء ، وجميل الذكر ، ومن كان هذا شأنه فليت شعري كيف يعد في الشعراء ، ألا ترى كيف أنه مدح السلطان عبد الحميد قبل الدستور ثم صرف بعده الثناء الى رجال تركيا الفتاة وجعله وقفاً عليهم ؟ وهل أدل من ذلك على انه ليس بصاحب رأي وانه انما يتابع الجمهور ويجاريهم في آرائهم وأميالهم ، لا لرياء في طبعة ، ولكن لعجز وضعف في ذهنه ؛ وهل اشنع من هذا الصنيع ، وأفسد للنفوس ، واقتل للعقول . أو اسوأ منه في رياضة للناس على الملق والنفاق والافك. وصدهم عن توخي الحق .

وعلى ذكر عبد الحميد نقول إنا ما رأينا أفحش من غلو حافظ ومبالغته ولكن مبالغة حافظ تشف عن قصر في النظر ، وعجز في

الخيال ، ومبالغة غيره تشف عن قوة في الذهن ، وبعد في مرمى النظر فأني ما قرأت قصيدته في تهنئة عبد الحميد بعيد الجلوس الا استغرب عليّ الضحك حتى خشيت على نفسي منه . وأي شيء اسخف من قوله .

سلوا الفلك الدوار هل لاح كوكب
على مثل هذا العرش أو راح كوكب

وهل أشرقت شمس على مثل ساحة
الى ذلك البيت الحميدي تنسب

وهل قر في برج السعود متوج
كما قر في يلديز ذاك المعصب

فقد لاحت الكواكب على خير من هذا العرش وطلعت الشمس على أبدع من ساحة ذلك البيت ، وقرت ملوك لا يقاس بهم عبد الحميد ، كما لا تقاس أنت ياحافظ بشكري :

ثم تأمل بالله قوله من قصيدة يرثي بها الأستاذ الشيخ محمد عبده .

. . . . . فمال الى الثرى
ومالت له الاجرام منحرفات

وشاعت تعازي الشهب باللمح بينها
عن النير الهاوي الى الفلوات

بكى الشرق فارتجت له الأرض رجة
وضاقت عيون الكون بالعبرات

من هو الشيخ عبده أو غيره حتى تميل لموته الأجرام . وتشيع من أجاله تعازي الشهب ، وترتج لحينه الأرض ، وتضيق لمصرعه عيون. الكون بالدموع ؟ لقد مات النبيون والمصلحون ومات العظماء وأودى. رجال السيف والقلم ، والكون ما زال على عهدهم به أيام كانوا أحياء يرزقون . ولو فنيَ الكون كله اتظن ان مبدعه يعبأ بذلك شيئاً ؟ أليس من غرور الانسان ان يحسب ان الكون يكترث لما يصيبه وأن يتوهم انه اكبر شأناً من النبات والجماد وسائر الظواهر الطبيعية ؟ ألا ترى أيها القارىء أن في مثل قول حافظ هذا تضليلاً للنفوس ، وتدليساً عليها وتغريراً بها ، وزجراً لها عن أبصار الحق ، وعن عرفان قدرها

أما فساد ذوق حافظ فحدث عنه وكفى بقوله .

وأصبحـــــت مكـــدن ياقوتـــة
يغـــار منها الـــدر والجوهر

دليلاً على سقم ذوقه وخشونة نفسه التي ارته في منظر الدماء ما يغار منه الدر والجوهر . ولو أني كنت أجهل نشأة حافظ الأولى لكان هذا البيت وحده كفيلاً بالدلالة عليها .

وعلى ذكر هذا البيت اقول اني لا أعرف قولاً ادل على الخمول والضآلة ، ولا أغري للناس بالقعود والتلكؤ والأحجام عن خطيرات الأمور من قول حافظ ..

انـــي على الشـــرقـــيّ حين اذا
ماذكـــر الأحيـــاء لا يذكـــر

ومـــر بالشـــرق زمان ومـــا
يمـــر بالبـــال ولا يخطـــر

حتى اعتاد الصفر أيامه
فانتصف الأسود والأسمر

لأنه ليس في انتصار اليابان ما يفخر به الهندي أو الصيني أو المصري لأن فخر الرجل بجاره دليل على عجز همته ووهن عزيمته ، وفي هذا الفخر باعث على التواكل والتخلف . وأنت أفتظن أن الفرنسي يباهي باستظهار الألماني على الانجليزي أو الانجليزي على الألماني . كلا ! وانما كان هذا كذلك لأن الأحوذي صاحب الهمة القصية لايعتز الا بما يدرك هو من الغايات على أن البيت الثاني مكرر للبيت الأول فهو حشو .

حسبنا اليوم ما آخذناه على حافظ وانما ترانا أيها القارىء نعني بنقد شعره لأن جناية الأديب أشنع من جناية القاتل وليس لنا عنده كما توهم بعضهم ثأر نجزيه به فان الرجل كما أسلفنا في كلمتنا الثانية ليس لنا بصديق ولا عدو ، ولسنا نحتقره كما توهم آخرون ولكنا نحتقر شعره ونزدري مظاهر نفسه ؛ فان الرجل ظريف مليح النكتة، عذب المحادثة ولا عيب فيه الا أنه يحاول أن يقول شعراً، ويعالج ما ليس في طبعه . رحم الله الأستاذ الأمام فانه هو الذي ورطَّة وزين له هذا المحال .

(٤)

(سرقاته)

كتب الى من لست أعرفه يلحاني أجل أنني أنقد شعر حافظ زاعماً أنه لا يمكن أن يكون قد نال ما نال من الشهرة بغير حق ، وأنه كان

أولى بالنقد الكاشف وغيره ممن لا يكادون يقيمون وزن الشعر — قال :

« وهؤلاء بعد خير مثال يضرب لنضوب القريحة ، وتخلف الطبع ، وجمود الخيال ، وسقم الخاطر ، ان كنت الى هذا قصدت ، أما حافظ فان له براعات مأثورة ، وأبيات سائرة ، أراك تؤثر الأغضاء عنها ، وتتحامى ذكرها » الى آخر ما ورد في كتابه .

فأما أن الشهرة ليست دليلاً على الفضل ، فهذا مالا ريب فيه ، وأما غرضنا الذي قصدنا اليه من النقد فهو تصحيح خطأ الناس في أمر حافظ والناس لم يختلفوا في أن الكاشف ليس في العير ولافي النفير ، وأما أن لحافظ اجادات معروفة فهذا مانحب اليوم أن نظهر بطلانه .

قلنا أن حافظاً نكد القريحة ، ونقول اليوم انه لزمانة سليقته يلجأ الى السرقة ، وانتحال شعر الأوائل ، وليس أدل من كثرة السرقات على على جمود الخاطر ، على انه لا يحسن السرقة لانه لا يعمد إلا الى المعاني الصغيرة فيطلق يده فيها إذا كانت روحه لا تسع المعاني الجليلة ، فهو كثير الأسفاف ، قليل السمو ، حتى في سرقاته . ويذكرني حافظ بحكاية قديمة ، قالوا أن « كانوفا » كان من عادته إذا أراد أن يصنع دمية أن يعمد الى ما حوله من التماثيل فيأخذ من واحد أنفه ، ومن ثان رجله ، ومن ثالث يده ، حتى تتم له الصورة التي يريد أن يصنعها » قال حافظ :

جنيــــت عليك يا نفسي وقبـــــلي
عليك جنــــى أبي فدعي عتابي

وهو مأخوذ من قول المعري :

هذا جناه أبي على (م) وما جنيت على أحد

وقال :

ليــت شعري هل لنا بعد النـــوى
مــن سبيــل للقائم لات حيــن

أخذه من قول بشار

ياليــت شعري وقد شط الزار بهــم
هـــل تجمــع الدار أم لا نلتقي أبدا

وقال :

لســـت أدعوك بالتراب ولكن
بقـــدود الملاح والأجيـــاد

بخـــدود الحسان بالأعيــن النجل
بتلك القلــــوب والأكبـــاد

نظر فيه الى قول المعري

خفـــف الوطــأ ما أظــن اديــم الأ
رض إلامــن هــذه الأجســاد

ولا يفوت القارىء تأمل مافي قوله بتلك القلوب والأكباد من القلق والركاكة .

وقال :

رحــــم الله منــه لفظــا شهياً كان
أحلـــى مــن رد كيــد العــدو

أخذه من قول الخوارزمي

وكيف ونظرة منها اختلاساً
ألذ من الشماتة بالعدو

وقال :

وكنت اذا عمدت لأخذ ثار
أسلت البر بالأسد الضواري

أخذه من قول ابن المعتز

سألت عليه شعاب الحي حين دعا
انصاره بوجوه كالدنانير

وقال :

اني فتاك فلا تقطع مواصلتي
هبني جنيت فقل لي كيف اعتذر

أخذه من قول جميل

فان لم يكن قولي رضاك فعلمي
نسيم الصبا يابثن كيف أقول

وقال :

لا تعيبنن ياشكيب دبيبي
انما الشيخ من يدب دبيباً

أخذه من قول الشاعر

زعمتني شيخاً ولست بشيخ
انما الشيخ من يدب دبيباً

وقال :

وحســـــرة في القلـــب لو قسمـــت
علـــى ذوات الطـــوق لم تسجـــع

أخذه من قول صردر

قـــد مربـــي من صرفـــه حاصب
لـــو مـــر بالورقاء لم تسجـــع

وقال :

ولـــولا سورة للمجـــــد عنـــدي
قنعـــــت بعيشتي قنـــع الظليـــــــم

ألمّ فيه بقول امرىء القيس :

ولـــو أن ما اسعـــى لأدنى معيشـــة
كفانـــــي ولم أطلـــب قليل من المال

ولكنمـــــا اسعـــى لمجـــد مؤثـــل
وقـــــد يدرك المجدَ المؤثل امثالي

وقال :

وتمشـــــي السافيـــات بها حياري
إذا نقـــــل الهجيـــر الى الجحيم

أخذه من قول مسلم بن الوليد :

تمشـــــي الرياح بها حسرى مولهـــة
حيـــــرى تلوذ بأكتـــاف الجلاميد

وقال في وصف الأرض في حرب اليابان

وأصبحـــت تشتاق طوفانهـــا
لعلـــها مـــن رجسهـــا تطهر

أخذه بلفظة ومعناه من قول المعري

و الأرض للطوفـــان مشتاقـــة
لعلـــها مـــن درن تغســـل

وقال من قصيدة يمدح بها البارودي :

تيممتها والليـــل في غير زيـــه
وحاسدها في الأفق يغري بي العـــدا

أخذ معنى الشطر الثاني من قول المتنبي :

ازورهم وســـواد الليـــل يشفـــع لي
وأنثني وبياض الصبـــح يغـــري بي

وقال منها أيضاً :

كلانا له عذر فعذري شبيبتي

أخذه من قول ابن المعتز :

وذاك اذ لي فـــي الصبـــا عـــذر
قبـــل أن يؤمـــن شيطانـــي

وقال :

ومـــا الـــذي تخشاه لو انهـــم
قالـــوا فـــلان قد غـــدا عبدكـــا

أخذه من قول مهيار الديلمـــي :

مـــــا على قومـــك ان صـــار لهم
أحـــــد الأحرار من أجلك عبداً

هذه طائفة من سرقاته ولو كان في الصحيفة متسع لاتينا عليها جميعاً ، ولكنا نرجىء البقية للاعداد الآتية ، ونرجو ان يكون القراء قد آمنوا بقولنا واتفقوا معنا على أن حافظا من ساقة أهل الشعر ومتلصصيهم وانه لولا مؤازرة الأستاذ الامام له ، وتنويهه به ، وحث الناس على اقتناء ديوانه ، لكان اليوم نكرة من النكرات ، وغفلاً من الأغفال .

(٥)

« سرقاته »

مالقيت أحداً الا رأيت على وجهه سمات العجب والدهشة من نقدي لشعر حافظ والا أخذ على قولي ان حافظاً ليس بشاعر وأنما أنا فلست أرى ان في قولي أن حافظاً ليس بشاعر وانه كبعض الطيور يأوي الى عش غيره تنقصاً له ولا زراية عليه والا اضطررنا أن نعد كل أمرىء شاعرا وان لم يكن في أرث الشعر لئلا يرى في سلبه هذه الفضيلة « المشاعة على ما أرى » ذما له وثلبا ! ! أو ليس بحسب حافظ أن يكون رجلا من أهل الوجاهة والرفعة . وهل من الذم في شيء أن أقول لك أيها القارىء انك لست بالطويل أو القصير أو انك لا تحسن الغناء أو انك لا تحفظ حرفا من اللغة السريانية « وان كانت في ظن العوام لغة الملائكة» أو أن أقول ان راحتك أيها القارىء ليست غضة بضة كراحة هذه السيدة المترفة أو تلك ، وان عليها اثراً من خشونة ما تزاول من عملك ! وهل

تحسب أيها القارىء ان الثور الذي يجر المحراث تحت عين الشمس يعز عليه أن الكلب يرتع في القصور ويجلس على حجور السيدات أو يود ان يكون من أجل ذلك كلبا ؟

اني ليضحكني جداً رغبة حافظ في أن يعد شاعراً وليس له ما يجعله حقيقاً بهذا الأسم ، ولجاجة الناس في التغرير به وتشجيعه على الاحتفاظ بهذا اللقب ، والغيرة عليه ، والذب عنه ، ويذكرني ذلك بحكاية رواها « هايني » الشاعر الألماني قال : ان ملكاً من ملوك افريقيا السود رغب الى مصور أن يرسمه فامتثل امره ثم انه امسك الريشة وأخذ يصوره غير أنه رأى على وجه الملك من دلائل القلق والاضطراب ما حمله على الاستفسار منه عما يقلقه والح عليه في الاعراب عن رغبته فقال الملك ليتك تستطيع أن تجعلني في الصورة أبيض الوجه ؟ ؟ ؟ فما اشبه حافظ بهذا الملك ؟ ولنعد الى سرقات حافظ قال من قصيدة يرثي بها الأستاذ الامام .

لقــد كنــت اخشى عادي المــوت قبــله
فأصبحـــــت اخشــى أن تطــول حياتي

أخذه من قول الشاعر بلفظه ومعناه .

كنـــت أخشى صرف الحمام فلـما
راح يحيبـــي أصبحت اخشى حياتي

وقال :

سخــــروا مــن الفضل الــذي أوتيتــه
والله يسخــر منهـــم في النــــار

أخذه من قوله تعالى : « ان الذين اجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون واذا مروا بهم يتغامزون واذا انقلبوا الى أهلهم انقلبوا فكهين واذا رأوهم قالوا ان هؤلاء لضالون وما أرسلوا عليهم حافظين فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون » .

وقال :

نامـــــت بمصـــر وأيقظـــــت
لحـــــوادث الأيـــام سعـــدا

أخذه من قول بشار .

اذا أيقظتـــك صعـــاب الأمـــو
رفنبـــه لهـــا عمـــراً ثم نـــم

وقال :

وكـــم حاولوا في الأرض اطفاء نـــوره
واطفـــاء نور الشمس من ذاك اقرب

أخذه من قول المعري .

ومضطغـــن عليـــك وليس يجـــدي
ولا يعـــدي على الشمس اضطغـــان

وقال في مطلع قصيدة يرثي بها بنت البارودي .

بين السرائر ضنة دفنوك

أخذه من قول أبي تمام يرثي امرأة محمد بن سهل

لها منزل بين الجوانح والقلب

وقال في رثاء الأستاذ الامام أيضاً

بكينـــا على فــرد وان بكــاءنا
على أنفــــس لله منقطعـــات

أخذه من قول الشاعر

ومــا كان قيس هلكه هلك واحــد
ولكنـــه بنيــان قوم تهــدما

أو قول أبي تمام يرثي عمير بن الوليد

لم يــــود منــه واحــد لكنمــا
أودي بــه من أسودان قبيــــل

وقال أيضاً من قصيــدته هذه :

فياسنـــة مرت بأعواد نعشــه
لأنــت علينــا اشأم السنــوات

أخذه من قول أبي تمام

فيــا يــوم الثــلاثاء اصطبحنــا
غــــداة منــك هائلــة الورود

وقال يرثي البارودي :

ان هُدِّركتــك منكوباً فقــد رفعــت
لك الفضيــلة ركنــاً غير مهــدود

أخذه من قول أبي تمام :

فــان يــوه في الدنيــا دعائــم عمــره
فمــا جــوده فيها بواهــي الدعائم

اذا المرء لـــم تهدم عـــلاه حيـــاتـــه
فليـــس لها المـــوت الجميـــل بهادم

وقال يذكر منزل الامام

عليـــك سلام الله مالك موحشاً
عبـــوس المغاني مقفـر العرصات
لقـــد كنت مقصود الجوانب آهلا
تطـــوف بك الآمال مبتهـلات

أخذه من قول محمد أبي عطاء السندي .

فـــان يمس مهجـــور الفناء فربمـــا
أقـــام به بعد الوفـــود وفـــود

وقال أيضاً يرثي الأستاذ الامام .

لقـــد جهـــلوا قمر الامـــام فأودعـــوا
تجاليـــــيده في موحش بفـــلاة

أخذه من قول محمد بن بشير الخارجي .

أقـــول وما يـــدري انـــاس غـــدوا به
الى اللحـــــد ماذا أدرجـــوا في السبائب

وقال يرثي البارودي .

لـــو أنصفـــوا أودعوه جوف لؤلؤة
مـــن كنـــز حكمته لا جوف أخدود

نظـــر فيـه الى قول مويلك المزموم يرثي امرأته

صـلى عليك الله مـن مفقـودة

اذا لا يـلائمـك المكان البلقـع

(٦)

سرقاتـه ايضـاً

أنــذرتنــي أم سعد أن سعـدا

دونـا ينهـد لي بالشـر نهدا

ونما اليّ من العجائب أن حافظ يحرش بنا نظارة المعارف ويرمينا عندها بأنا كاتبو مقالة « حسن الأختيار » التي نشرها « عكاظ » في بعض أعداده الماضية عسى أن يصيبنا ما يكفنا عن نقده ، وقد علم الناس أنا لا نكتب شيئاً الا ذيّلناه بتوقيعنا الصريح ، فليرح نفسه حافظ فان تعبه ضائع ، وسهمه طائش ، وليعلم أن ذلك لا يرجعنا عن رأينا فيه ، ولا يحملنا على القول بانه شاعر .

تمنـاها بجهـل الظـن سعـد

وما هـي مـن مطـايا الظن بعدُ

ان لك أن تشعر بأنك شاعر ، وأن تغش نفسك اذا شئت ، وأن توهمها أنك أطبع الناس ، وأن الشعر راجع منك اليك ، وأن أبا تمام كان يصف قلمك حين قال :

لـك القلم الا علـى الـذي بشباته

تصـاب من الأمـر الكلى والمفاصل

وينعت شعرك بقوله .

أمـــــا المعانـــي فهي أبكار (؟ ؟) اذا
نصـــــت ولكــــن القوافي عـــون

وأن البحتري كان يقصدك بقوله .

لتفننـــــت في الكتـــابة حتـــى
عطـــــــل الناس فن عبد الحميـــد

وان المتنبي كان يعني قلمك حين قال .

فصيـــــــح متى تجـــد كل لفظـــة
أصـــــــول البـــراعات الّتي تتفـــرع

وان الشريف الرضي كان يتنبأ بك حين قال .

للـــك القلـــم الجـــوال اذ لا مثقـــف
يحــــــول ولا عضـــب تهاب مواقعه

وان السريّ الرفاء كان يفكر فيك لا في نفسه حين قال يصف قصيدة .

نظــــــام من السحر الحلال مخيـــل
لسَــــامعـــــه أن الكوَاكــب تنظم

وان مهيارا لم يصف الا قلمك حين قال :

نفثـــــــاتـــه السحر المبلبـــل لا كما
خبــــــرت ان السحر صنعة بابل

والأُ دواتك بقوله .

لهـــا من سبيك التبر ثـــوب مورّمــــس
ووجـــــه مــن العـــاج النصيع وسيمُ

وان صر در كان يتصور دواتك حين قال .

ياحبـــــدا هي والاقـــــلام واردة
فيــــها وصادرة سحـــــم المناقير

وأن الابيوردي كان ينطق بلسانك حين قال :

كلمـــــاتي قـــلائــد الأعنـــــاق
سوف تفنـــــى الدهور وهي بـــــواق

وانك أنت حامل واء الشعراء . . . لا امرؤالقيس ، لك أن تتصور كل ذلك اذا خلوت الى نفسك في المكتبة الخديوية وأحاطت بك دواوين الشعراء وأقبلت جماجمهم تمسح رأسك وتفتل منك في الذروة والغارب رجاء أن تأمر باستنساخ شعرها وصيانته من أيدي البلى ، ولكنا لا نرى لك علينا سطانا يضطرنا الى مصانعتك كما اضطرت هذه الجماجم أن تحمل نفسها على مكروهها .

على اني أيها القارىء أحب أن أقر لحافظ بشيء من الشاعرية ولكني كلما حاولت ذلك طلع على مثل هذا البيت :

فأنشـــأوا ألف كتـــــاب وقد علمــوا
أن المصابيـــــحّ لا تغنـــي عن الشهب

فأخرسني ، لأن أطفال هذه الكتاتيب تعلم أن المصابيح تغني عن الشهب

ولكن الشهب لا تغني عن المصابيح ، وليت اختراع حافظ يصح ، إذاً لكافأته الحكومة ببعض ما تنفقه على انارة الطرق وكافأه الناس بنصف ما يبتاعون به صفائح الغاز ، أو ربعه ، لان في البيوت زوايا لا يصل اليها نور الشهب .

وليت حافظاً كان حاضري وقد التفت بي أرواح شعراء العرب وانتبرت(١) كل روح ديوانها وأخذت تخطب محتجة على ما سلبه حافظ من معانيها، وانتحله من أفكارها، ومسخه من شعرها ، إذاً لسمع روح الشريف تقول بعد ديباجة طويلة أبانت فيها فضلها وسبقها ومكانتها

لنـــا كل يوم منه ذئـب عمــرّد
دم الشعـــر في انيـــابه والبرائن

فقد أخذ حافظ بيتي .

تســاقينـا التـذكر فانثنينـــا
كــأنـــا قـد تـسـاقينـا الطلاء

فقال :

سقـــاني في منــادمــة حديثـــاً
نسينـــا عنــده بنـت الكروم

وقلـــت :

أخـــيّ لا رغبــت عيني ولا أذني
مــن بعد يومك في مرأي ومستمــع

(١) اتخذت منه منبرا .

وكررته في موضع آخر فقلتُ .

فبعـــداً لطيـــب العيش بعـد فراقكم
فـــلا أسمـع الداعـي اليـه ولا دعا

فأخذ المعنى وقال :

أبعـــد عثمـان أبغـي مأربا حسنـــا
مـــن الحيـــاة وحظـا غير منكود

وهنـا قاطعتـها روح مهيار وقالت : انـــه اخذ هذا المعنـى مـن قولي :

ابعـد ابن عبد الله احظـي بـراجـع
مـــن العيـــش أو أسى على اثر ذاهب

وقلت ايضاً .

ســلام على الأفـراح بعـدك انهـا
وان عشـــت ليســت اربة من مآربـي

فسرقه وقال :

فأمســكا الراح اني لا اخامـرها
وبلغـــا الغيـــد عني سلوة الغيد

فقامت على أثر ذلك ضجة شديدة وصارت كل روح تدعي المعنى فقلت انه سرق منكما فسكتنا واستأنفـت روح الشريف الكلام فقالت:

وقلت : كنتم نجوماً لدى الدهمـاء زاهرة
تضـــيء منها الليالي الســود والـدرع

فأخذه وقال :

لقد كنت فيهم كوكباً في غياهب

وقلت :

رزآن يزدادان طـــول تجـــدد
ابـــد الـــزمان فناؤهـــا وبقائي

فأخذه وقال :

انـــي ليحزنني ان جـــاء ينشـــده
داعـــي المنـــون واني غيـــر منشود

فعادت روح مهيار الى مقاطعتها وقالت بل انه أخذه مني أنا فقد قلت .

اذا كان ســـهم الموت لابـــد واقعاً
فياليتنـــي المرمـــي من قبل صاحبـــي

ولكنـــي حكمـــت للشريف في هذه المرة ثم قام التميمي فقال : وأنا أيضاً قلت :

أمـــا القبـــور فانهن آوانس
بجـــوار قبـــرك والديار قبـــور

فأخذ المعنى وقال :

لبيـــك يامؤنس الموتـــى وموحشنا
يا فارس الشعـــر والهيجـــاء والجـــود

فنهض ابو تمام فقال انه أخذ الشطر الثاني من قولي

يعــزون عــن ثو تعــزي به العلــى
ويبكــي عليــه البأس والجــود والشعر

وقلت أيضاً .

اذا ظلمات الرأي أسـدل ثوبهـا
تطلــع فيهــا فجره فتجلــت

فأخذ المعنى وقال :

ذا مس خــد الطرس فاض جبينـه
باسطــار نــور باهر اللمعــات

وقلــت :

ليهــن امرؤ يثنــي عليك فانــه
يقــول وان أوبــي ولا يتقــول

فأخذه وقال :

عذب القريض قريض بات يعصمــه
ذكر ابن توفيــق عن اللغو وعن كــذب

ثم تلاه الهمذاني فقال وأنا أيضاً قلت .

الذنــب للأيــام لا لــي
فاعتــب على صــرف الليالي

فأخذه وقال :

لا تلــم كفــى اذا السيــف نبــا
صح منــي العــزم والدهر أبــى

ثم قام آخر وقال وقد سرق مني قولي .

فالنـــاس مأتمهـــم عليـــه واحـد
فـــي كل دار رنـــة وزفيـر

فقال :

ففـــي الهند محزون وفي الصين جازع
وفـــي مصـــر باك دائـــم الحسرات

وكرره في موضـــع آخر فقـــال :

أنـــى حلــلت أرى عـــليك مأتمـــا

وتلاه آخر فقال اني قلت .

فلّلـــــه در الدافنيـــــك عشيـــة
أمـــا راعهـــم مثواك في القبر امردا

فأخذه وقال :

تركـــوا شبــابك فيـــه نهبا للبلي
واهـــاً لغضـــن شـــبابك المتـــروك

وتلاه الجرمي فقال ، وأنا قلت :

أحقـــا عباد الله أن لســـت رائيـــاً
رفاعـــــة بعــــد اليوم الا توهمــا

فاغار علي وقال :

فهـــوا لهفـــي والقبـــر بيني وبينـــه
علـــى نظرة مـــن تلكـــم النظرات

ثم انفضت الجلسة .

(٧)

كنت أحسب أن الخلف بيني وبين الناس في أمر حافظ قد ذهب كل مذهب ، واني على الباطل وغيري على الحق حتى لقد هممت أن أعتذر لحافظ بك من نقدي لشعره ، واستسخافي لنظمه ، واستضعافي لسليقته ، ولكني استحييت من أن ألقي اليه معاذيري في صحيفة يطالعها كل هذا السواد الأعظم ، وأشفقت مما عساه يتبع ذلك من تضاحك الناس بي ، وسخرهم مني ، فقلت اكتب اليه كتاباً « خصوصياً » افتتحته بما يأتي :

« الحمد لله الذي هداني الى الحق ، وبصرني وجوه الرشد ، وأوضح لي معالم القصد ، والصلاة والسلام على خير بريته ، والمصطفى من أمته ، محمد سيد المرسلين ، وعلى أصحابه الخلفاء الراشدين ، وآله الاخيار أجمعين ، وبعد فكفي بالجهل داء ، وبالغباوة محنة وبلاء ، وبخلوص النية شفيعاً وبالاعتذار من فارط الذنب . . . »

وهنا أعيتني السجعة ، فوضعت القلم وجعلت أفكر في كلمة صالحة ، فمرت بالخاطر ألفاظ كثيرة أذكر من بينها « رجرعاً » و « نزوعا » و « تقريعاً » ولكني لم استصلح واحدة منها ، ففتحت ديوان بعض الشعراء المكثرين عند قافية العين كما يفعل حافظ واشباهه اذا نظموا لعلي أظفر بطلبتي ولكن رائد التوفيق اخطأني في هذه المرة أيضاً ، فيئست من كتابة الاعتذار ، ومما كنت ارجوه من الصفح ، واتوقعه من الغفران ، واني لفي هذه الحيرة الشديدة واذا بعدة رسائل قد جاءتني ففتحت الاولى وبي من الكسل والملل مالا يخفي عن القارىء فاذا كاتبها يقول بعد الديباجة .

« أراك قد أطلت في ايراد سرقاته (يعني صاحبنا بالطبع) حتى ضايقتنا وامللتنا . حسبك ما أخذت عليه من ذلك ، لانه ليس بالشاعر المكثر حتى تغفر له كثرة سرقاته من أجل كثرة حسناته . . . وعلى انه حتى في اعتذاره من اقلاله لم يأنف من السرقة والانتحال ألا ترى كيف أخذ قوله .

وأنشد أشعاري وان قال حاسد
نعم شاعر لكنه غير مكثار

من قول البحتري يرد على عبيد الله بن طاهر .

والشعر لمح تكفي اشارته
وليس بالهذر طولت خطبه

وأخذ البيت الذي بعده وهو

فحسبي من الأشعار بيت أزينه
بذكرك يا عباس في رفع مقداري (١)

من قول الشريف الرضي يمدح الطائع .

قليل مدحك في شعري يزينه
حتى كأن مقالي فيك تغريد

أقول كفى ما أظهرت من سرقاته وانما ينبغي ان تكشف للناس عن فساد معانيه وقلق اسلوبه وركاكة تعابيره فان الناس « يتهمونه » بحسن

---

(١) لا ينبغي أن يفوت القارىء مافي قوله في رفع مقداري من الشرف والحسن والطلاوة وكثرة الماء وان كان قد ذهب بعضهم الى أن هذه العبارة قلقة لا يقرلها قرار في هذا الموضع ! !

الديباجة ، وانسجام التراكيب ، وسلامة الذوق في الصناعة ، ولا يصدقون انه قائل هذا البيت .

أرى سمو خديرينا وقد بسطت
بالعدل والبذل يمناه ويسراه

وليت شعري اين كانت فصاحته وبيانه وذوقه حين قال « سمو خديوينا » وأين كانت يقظته وفطنته وذكاؤه وعلمه حين قال .

أروني نصف مخترع ! !
أروني ربع محتسب ! !

فأنا ما علمنا ان في العالم نصف مخترع ولا ربع محتسب وما يدرينا لعله يقول بعد ذلك ثلث فيلسوف وسدس وطني وسبع شاعر وعشر كاتب وخمس رجل ، وما الذي منعه أن يكتب البيت هكذا .

أروني ٢/١ مخترع ! !
أروني ٤/١ محتسب ! !

وعلى أن البيت بعد لا يساوي واحدا « صحيحاً » ! !

وما عساك تقول اذا سمعت قوله في مطلع قصيدة يمدح بها الجناب العالي ويهنئه بعيد الفطر .

مطالع سعد أم مطالع أقمار
تجلت بهذا العيد (أم تلك أشعاري)

فان في قوله (أم تلك أشعاري) من السماجة وسقم الذوق والغرور مالا يطاق ، وليت شعري أكان حافظ يمدح الجناب العالي أم يفاخره ويتبجح عليه بقوله من هذه القصيدة بعينها .

كـــــذا فليكـــن مدح الملوك وهكـــذا

يســـوس القوافي شاعر غير ثرثـار »

إلى آخر ما كتب هذا الناقد الثرثار ، غير أني لا اكتمك أيها القارىء ان هذه الرسالة اعادت الى ثقتي بنفسي ، واذهبت عني القلق والاضطراب فقلت اطوي كتاب الاعتذار الذي كان العزم أن ارسله لحافظ وأنشر هذه الرسالة .

ثم فضضت الرسالة الثانية فاذا فيها سؤال هذا نصه :

« ماذا يعني حافظ بقوله .

رأيـــت فيها بساطا جــل ناسجــه

عليـــه فاروق هـــذا العصر يختال

بمشيـــة بيـــن صفيّ حكمـــة وتقى

يحبـــها الله لاتيـــه ولا خـــال ؟ »

والجواب على هذا — بعد مراجعة البيتين — هو اني لا أظن حافظاً يعني شيئاً ، وانما هي الفاظ مرصوفة لا يعلم الا شيطانه البليد الذي وكله به ابليس كيف وفق بينها . أما الذي أعلمه أنا فهو انه اراد ان يمدح الأستاذ الامام ويصف حضرته كما يزعم شارح الديوان ، وان كنت لا أفهم من البيتين الا انه قصد الى هجائه ، والتهكم به ، والسخرية منه ، لأنه يقول انه رأى في دار الأستاذ بساطا جل ناسجة (اعتذر للسائل من عجزي عن تفسير قوله جل ناسجه !) وانه رأى الأستاذ الذي هو عمر هذا العصر يتبختر على هذا البساط ويرفع يديه ويضعهما في المشي اختيالا (وهو المفهوم من قوله يختال) وانه كان يمشي بين صفين

صف حكمة: وصف تقي ؛ كما يمشي الضابط بين صفوف الجنود وان الله يحب هذه المشية التي ليس فيها لاتيه ولا خيلاء (مع انه قال أنه رآه يختال) هذا ما أفهمه وهي صورة مضحكة جداً اذا كان الغرض منها المدح ، ومن لي بمن يعلمني هذه المشية التي يحبها الله ؟ ! ! !

أيها القارىء : ألم تشهد مرة ليلة عرس وقد ارتقى بعضهم كرسيا وجعل يتنطع بفضول الكلام ، ويتكثر بلغو المقال ، ويرسل على الناس طوفاناً من الهذر والهراء ويقرع آذانهم بمثل هذا الشعر :

انــــي أرى عجباً يدعو الى عجــب
الدهـــــــر أضمره والعيــد أفشـــاه

هــــل ذاك ما وعد الرحمــن صفوته
روض وحــور وولـــــدان وأمواه

أم الحديقــة ذات الوشــى قــد جليــت
فــي منظــر يستعيــد الطــرف مرآه

أرى المصابيــح فيها وهــي مشرقـــة
كأنــــها النـــور والوسمــى حياه

أرى بني مصر تحــت الليــــل قد نسلوا
الى سعــــود بـــه ضـــاح محياه

أرى على الأرض حليـــا قد نسيت بـــــه
حلــــى السماء وحسنا لست أنســاه؟

ولمن تظن هذا الشعر الذي أوردته بكرهي ؟ أخشى أن أقول لحافظ

فتقول اني أقوّله مالم يقل ؟ ولكني أقسم لك بكل محرجة من الايمان ؛ ومؤكدة من الأقسام ، وبكل ما يحلف به البر والفاجر انه له ،

سيقول بعض أنصاره انه قال هذا الشعر في أول نشأته فليس بمستغرب أن يكون تافهاً بشعاً في الذوق ، ولكن أنظر ما قال بعد أن بلغ كمال البنية والعقل ، فليكن ما تريدون . قال حافظ في الصفحة الثامنة والتسعين من الجزء الثاني من ديوانه بعد أن بلغ كمال البنية والعقل ، وارتفع عن سن الحداثة ، وصار عليماً بأسرار اللفظ واشتقاقه عارفا بفصيحه وركيكه ، ومأنوسه وغريبه . وبعد أن « أغرى أقلامه بالغوص على المعاني » حتى .

شكـــى عمــان وضــج الغائصون به
علـــى اللآلي وضج الحاسد الشانـــي

يمدح الجناب العالي .

أغليـــنت بالعدل ملكاً أنـــت حارسه
فأصبحـــت أرضــه تشري بميزان

جـــرى بها الخصب حتى أنبتت دهبا
فليـــــت لي في ثراها (١/٢ فدان (١)

بحقي عليك ياحافظ ؟ وبمالي عندك من حرمة ؟ ؟ لتريني هذا الميزان الذي أصبحت الأرض تشري به ؟ انه لم يبق عليك الا أن تقول

---

(١) آليت لا أكتب النصف والربع والعشر كلما أخذت عيني شيئاً من ذلك في شعر حافظ الا هكذا ، وليت شعري ما هذا الولع بالحساب وما هو السر في ذلك أكان حافظ في صدر ايامه « شاطراً » في الحساب

انها تباع بالرطل كاللبن والجبن ؟ ؟ ولتقولن لي هل كنت تمدح الجناب العالي أم . . تمازحه وتضاحكه وهل من أدب المديح أن تذهب مذهب الهزل ، في موقف الجد ، وأن تجعل ختام قصيدتك هذا البيت

هـــــذا هو الملك فليهنـــــأ مملكـــــه

وذا هـــــو الشعر فلتنشده أزماني

كأنك تجاذبه حبل الفخر وبينك وبينه على ما أعلم

« أبعد مما بين بصرى والحرم »

أخلق بمن كثر ذكره لنفسه أن ينساه الناس ، وانت أيها القارىء أتظن أن روفائيل كان يفكر في نفسه حين صور العذراء وولدها ، أو أن شاكسبير حين كتب هملت وعطيل كان يفكر في سواهما أو أن ممثليهما يكترثان لجمهور النظار والمتفرجين ؟ كلا فأنه ينبغي لمن يريد أن يكبر في عيون الناس أن يتضاءل أمام نفسه .

سيقول البعض أنه يسمت سمت العرب ويجري على أسلوبهم ، ولكن العرب قد ذهبوا في سبيل العصور الخالية ونحن اليوم في عصر له آدابه ومطالبه وليس ينبغي لنا أن نقلدهم ، وإن كنا نجلهم ونعظمهم وانما مثل من يقلدهم مثل الساجد أمام دمية خفيت معارفها ، وطمست محاسرها ، ولم يبق منها إلا الحجر الذي نحتت منه ، والا المصباح المعلق فوقها ، أو مثل من يهب قلبه لا مرأة حطمتها السن حتى اصبحت لا يحمل بعضها بعضاً .

وقال حافظ .

غمضـــت عينيك عنها وازدريـــت بها

قبـــــل الممـــات ولم تحفـــل بموجود

فأخطأ في قوله ازدريت بها لأن الفعل يتعدى وليست به حاجة الى حروف الجر فهل لايعرف حافظ الفرق بين اللازم والمتعدي وأي فائدة في قوله « قبل الممات » فهل رأى حافظ أحدا من الناس يحفل بعد موته بشيء حتى خاف اللبس وأراد أن يجتنبه بقوله قبل الممات ؟ ما أكثر غرائب حافظ لكأني به لايفهم الموت ولا يعرف الفرق بينه وبين الحياة . لولا اني أحب له طول العمر ليقف على حقيقة أمره وليعلم انه ليس من الشعر ولا قلامة ظفر لدعوت الله أن يذيقه الموت حتى يجربه ويعلم انه كان مخطئاً حين قال « قبل الممات » فلا يعود إلى أمثال هذه السخافات ! ! ! نعود الى ماكنا فيه فنقول: أن حافظاً كثير الخلط بين الأضداد واني ماقرأت اه قصيدة الا رأيت فيها مثلا لذلك كقوله .

هبـــوا الاجيـــر أو الحراث قد بلغا
حـــد القراءة في صحف وفي كتب

فان قوله قد بلغا من مستغربات الزمان ، وذلك انه جعل « أو » بين الأجير والحراث فكان ينبغي أن يقول بلغ وقد كان يجوز له أن يقول بلغا لو أنه عطف بالواو لا بأو ولكن حافظا كما قلنا لا يعرف فرق ما بين الواو — وأو

ومن أمثلة هذا الخلط قوله يهنىء شوقي بك للانعام عليه برتبة

قـــد كان قـــدرك لا يحـــد نبـــاهة
وسعادة فغـــدا بها محـــدودا

ما ترى في رجل يريد أن يمدحك فيقول لك أن قدرك ونباهتك وشرفك وسعادتك لم يكن لها حد تقف عنده ولكنها الآن أصبحت

محدودة لا تجاوز حداً بعينه ؟ أليس هذا أشبه بالذم منه بالمدح ، وأقرب الى الهجاء والطعن ؟ أليس هذا دليلا على أن حافظاً يحسد شوقي على منزلته وينفس عليه ادبه وعبقريته ويتمنى لو كان له مثل طبعه وسليقته وهل الحسد دليل على سعة الروح وعظم الثقة بالنفس واحتقار المظاهر اللذين هما نتيجة لعظم الروح وجلال النفس ؟ ؟

(٩)

أنشر في هذا المقال الرسالة الثالثة براً بالوعد ، ووفاء بالعهد ، وقد جاءتني من صديق أظنه توقع أن أنشرها لما فيها من صدق النظر ، ودقة الفكر ، وسلامة الذوق ، كما فعلت بغيرها فسألني أن لا أعلن اسمه اذا خطر لي أن اذيع ما فيها من النقد قال :

« أنا كما تعلم صديق حافظ ، ولست أحب أن اوغر صدره عليّ فانه على سخافة شعره ، اطيف ظريف ، وليت شعره كحديثه ، ولكنه يتكلف في شعره ولا يتكلف في حديثه ؛ ولعل هذا هو السبب في ثقل ظل الأول وخفة روح الثاني . » ثم انتقل من ذلك الى الكلام على شعره فقال :

« كأني بحافظ قد أدرك انه شعرور متكلف ينظم بالصنعة (ليت شعري ماذا يقول حافظ عني اذا قرأ قولي انه شعرور وعلم ان صديقه الذي لا يستريب به أول من وصفه بذلك واطلق عليه هذا اللفظ — لا أدري ولكني أرجوك مرة ثانية ان لا تذيع اسمي اذا اذعت رأيي ؟) أقول كأني به قد عرف انه ليس من الشعر في شيء فهو لا ينفك يتنازل لكل شاعر يظهر عن ملكه الذي اغتصبه — فقد قال لما صدر الجزء الأول من ديوان شكري :

شهـــــدت بأن شعـــرك لا يجارى
وزكيـــت الشهادة باعتـــرافي

لقـــد بايعـت قبـل الناس شكـري
فمـــن هـذا يكابـر بالخـلاف

وقال يقرظ ديوان الرافعـي :

وهـــذا الصولجـان فكـن حريصاً
علـى ملك القريض وكـن أمينا

كأن هذا المسكين لا عمل له الا ان يبايع الشعراء ويشهد لهم بالسبق والمزية ، أو كأنه فطن الى ان ملكه هذا أسمي فتنازل عنه في حياته قبل ان يُنتزله عنه الموت بكرهه ؟

وعلى ذكر الموت والحياة ارجوك (لاني كما اسافت صديق حافظ) ان تهبه ثلثمائة عام من خلودك – كما فعل فولتير – فان حاجته والله الى يوم واحد لشديدة على أن يفسر لك هذا البيت :

ذرّ الكتاتيـب منشيها بـــلا عـــدد
ذر الرمـاح بعيـن الحاذق الأرب

فهل حسب جنابه ان الرماد المذرور في عين الحاذق الارب لابد أن يكون اكثر من الرماد المذرور في عين الأبله السخيف حتى تمثل به أو أن عين الحاذق أوسع من عين الغبي – وهذا البيت أيضاً .

ومـــن يطل على الافـلاك يرصـدها
بيـــن المناطـق عن بعد وعن كثب(١)

(١) عن كثب أي عن قرب .

ليس في العالم طفل لا يعلم ان علماء الافلاك لا يرصدونها الا عن بعد فهل رأى جنابه أحدا صعد في طيارة ورصد الافلاك عن قرب — ان الوقت الذي تطير فيه الناس بين الكواكب لم يأت بعد . . . وهذا البيت أيضاً .

متـــى نراه وقد باتــت خزائنـــه
كنزا من العلم لا كنزا من الذهـــب(١)

تضحكني جداً هذه الغفلة من حافظ فقد أراد ان يغني بلدنا فافقره وذلك لأنه تمنى ان يرى خزائنه ملأى من العلم — فارغة من الذهب . وليست شعر حافظ أي خير في العلم اذا لم يكن لدينا الى جانبه مال نستدر به منافعه ومرافقه ؟ لا خير مطلقاً : كما انه لا خير في ما يعرف حافظ من مفردات العربية ما دامت خزانة معانيه فارغة ، ومن غفلة حافظ قوله :

لا نحـــن موتي ولا الأحيـــاء تشبهنـــا
كأننـــا فيـــك لم نشهد ولـــم نغب

أراد أن يقول لا نحن موتي ولا نحن نشبه الأحياء فقال ولا الأحياء تشبهنا وهذا يشبه قول القائل .

« أما في عقلهم رأس »

أو قول القائل « مطلي به القار »

(١) الضمير في يراه يعود على «بلد» في البيت الذي قبله — والبلد المقصود هو مصر .

يريد « مطلياً بالقار » أو قول الآخر :

ومهمــــهٍ مغبــــرة أرجــــاؤه
كــــأن لــــون ارضه سماؤه

أقول هب حافظاً ثلثمائة عام من خلودك فان حاجته اليوم الى الخلود أشد من حاجته الى غيره . فان ادركك الحرص فاعطه مائة ، واجمع من العقاد وشكري مائتين ، وفي مرجويّ أن لا تضن عليه بهذا الرفد الضئيل والسلام » .

أشكر لصديقي ظنه بي وثقته بكرمي ولكني لا استطيع أن أصل رجلاً يقول :

ولا تنســـس من أمسى يقلــب طرفـــه
فلــــم ترالا « أنت » في النـــاس عيناه

فان طلاب الجزء الثالث من كتاب النحو يعلمون ان الصواب أن يقول (الا اياك) أو (الآك) لا الا أنت (راجع باب الاستثناء) ولا يأنف أن يقول .

فمـــا مطـــوقة قد نالهـــــا شرك
عنــــد الغـــروب اليـــه ساقها القدر
باتــــت تجاهـــد همـــاً وهي آيسة
مـــن النجـــاة وجنـــح الليل معتكر
وبـــات زغلـــولها في وكرها فـــزعا
مروعـــاً لرجـــو الأم ينتظر .

منـــــى بأسوأ حالا حيـــــن قاطعني

هــذا الصــديــق . . . . الـــــخ

- فان قوله في البيت الأول « عند الغروب » لا معنى له فهل كان في بعض أيامه بومة أو غراباً فعلمته التجربة أن الوقوع في الشرك عند الغروب أصعب منه في العصر ، أو في الظهر . أو في منتصف الليل — هذا الى أنه أخطأ في قوله«لرجوع الأم ينتظر»والصواب حذف اللام واسقاطها من رجوع لان الفعل متعد ولكنه كما قلنا في المقال السابق لا يعرف الفرق بين اللازم والمتعدي ثم أن الفزع والمروع بمعنى واحد فكيف أمنحه يوماً واخذاً ؟ ؟.

على أن الأبيات مسروقة من قول المجنون .

كـــأن القلـــب ليلة قيل يغـــدى

بليـــلي العامــــرية أو يـــــراح

قطـــاة عـــزها شرك فباتـــت

تعالجــــــه وقـــد علق الجنــاح

لهـــا فرخـــان قد غلقـا بوكر

فعشهما تصفقـــــــه الريـــاح

فـــلا بالليـــل نالـــت ما ترجي

ولا بالصبـــــح كان لها بـــراح

لا تزال الرسائل تأتيني ممن أعرف وممن لا أعرف كأني أهاجم حصنا منيعاً وأنا وان كنت في غنى عن هذه الأمداد لان هذا الحصن قاعدته من الرمل وآجره من الهواء الا أني على ذلك أشكر لمن يكاتبوني تفضلهم

بمؤازرتي وتبرعهم بمحالفتي وسأنشر ما يأتيني من الرسائل اعترافا لأصحابها بالفضل واليك الرسالة الرابعة قال كاتبها الفاضل بعد الديباجة :

« أليس من التطفل أن يكتب حافظ في مسألة الزوجية وأن يتداخل فيما لا يعنيه لان المسألة شخصية لا يجوز لاحد أن يتناولها بقلمه. ثم هي بعد ليست مما يقال فيه الشعر وأي شأن لحافظ في جنون صاحب المؤيد ببنت النبي أو ببنت غيره من الناس وهل حرم الله على الناس أن يعشقوا بنات النبي ؟ ولماذا « يضج العرش والحاملوه ويضج قبر النبي » من أجل ذلك ؟ وماذا على حافظ من كل ذلك وماذا يعنيه ان كان المؤيد لصيقاً ببيت الرسول أو غير لصيق به ؟ هل هو موكل بحراسته وهل ورد في الحديث الشريف عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال « آتينا حراسة بيتنا ؟ » أليست هذه القصيدة أدخل في باب الرقاعة منها في باب الشعر * ؟ ؟ »

وهذه هي الرسالة الخامسة :

« سيدي »

كن عذيري اذا أنا أخذت عليك واحدة في نقدك شاعر النيل — حافظ — فليس من شروط النقد الصحيح لا ولا من العدل أن تعدد سقاط الرجل وسرقاته وتغفل حسناته . . . فأنا مهما جردنا الرجل من الشاعرية فان له على الرغم من ذلك شعراً جيداً عذباً وخواطر مستحدثة رائعة . . . وأين أنت من قصيدته التي بعث بها الى « البابلي » يعاتبه بها وتودد اليه فيها والتي لوقرأها ابن الرومي لخجل من همزيته التي يقول فيها.

(*) يشير الكاتب الى واقعة زواج الشيخ علي يوسف صاحب جريدة المؤيد من ابنة احد الأشراف وفسخ هذا الزواج فيما بعد بحجة عدم أهلية الشيخ علي « العامي » للزواج من « سلالة الاشراف » لانه غير كفوء . م.ك.خ

ياأخــــي ياأخــا الدماثة والرقة
(م) والظــرف والحجــــا والذكاء

أنـــت عيني وليس من حق عينــي
غض أجفانــــانها على الأقــذاء

أعني قصيدته التي يقول في مطلعها .

أدلال ذاك أم كســــــل
أم تنــــاس منـــك أم مللل

والتي يقول في ختامها :

أم وشــــى واش اليــــك بنا
فاحتــــواك الشــــك (يابطــل)؟؟

ياصـــــديقــي لا مؤاخــذة
انـــت يا ابــن البابلي (. . . ل)

فما عساك قائل بعد (يابطل) ؟ أو لم يبرز الرجل في النكتة على « الفار » والسيد قشطه وكامل الأصلي ؟ ؟ »

أقول ان شراً من قوله يابطل وافظع وصفه لصديقه (بالخول) وان كان قد حذف الخاء والواو ولم يبق من الكلمة الا اللام ولكن القارىء لا يبه أن يفهم المراد ؟ وشر من كل ذلك أن ينشر هذه القصيدة مع سائر شعره ولكن الآداب في مصر غير مرعية ! والا فأي شيء أهتك لستر الحياة وأخدش لوجه الادب من قوله ياخول ؟

على أنا لا نريد ان نحاسب حافظاً على نكاته العامية وانما نريد أن نظهر للناس ان جده ليس خيرا من هزله — قال حافظ :

وافـــــــى كتابك يزدري
بالـــــدر أو بالجـــوهـــر

فان قوله يزدري بالدر خطأ والصواب يزدريه وقد وقع في هذا الخطأ في موضع آخر ونبهنا عليه :

وقال حفظه الله .

يـــــا همـــاما فـــي الزمان له
همــــــة دقـــت عـــن الفطـــن

فان قوله دقت عن الفطن من المضحكات وذاك لأن الهمة التي تدق عن الفطن لابد ان تكون ضئيلة جداً لا تبين للمتوسم وهو يريد أن يصفها بالعظم ، ولكن حافظا كما قلنا غير مرة شديد الغفلة اذا أراد الذم مدح وان أراد المدح ذم انظر قوله للامبراطورة يوجيني :

ان يـــــكن غاب عن جبينك تـــاج
كـــان بالغـــرب اشـــرف التيجان

فلقـــــد زانك المشيـــــب بتـــاج
لا يدانيـــــــه فـــي الجـــلال مداني

فقد اخطأ في قوله غاب عن جبينك لأن التاج لا يكون على الجبين ولكن فوق الرأس وبين الرأس والجبين بون وأخطأ في ظنه ان في المشيب عوضاً من التاج وانما المشيب بريد الفناء ورسول الموت وأي شيء أبغض عند النساء من المشيب ولكني لا اظنه يفهم شيئاً من ذلك . وقال أيضاً :

أو كـــان (في) ظبـــــي الحمى مغرما
أمـــا لهـــذا الظبـــــي من مرتـــع

والصواب ان يستبدل (في) بالباء لأنه يقال مغرم بكذا ولا يقال مغرم فيه وقال أيضاً :

وعيـــن اليـم تنظـــر للبخـــار
بنظـــرة وأجد قلـــق الرجـــاء

أخطأ في قوله بنظرة وأجد والصواب حذف الباء — وبعد فمن لي بمن يسأل حافظاً عن هذه العين التي استعارها للبحر ؟ ومتى كان للبحر عيون كعيون السماء مثلاً ؟ ومن لي بمن يقول لي لماذا ينظر اليم إلى البخار نظرة واجد قلق الرجاء ؟ ؟ إلا أن حافظاً لا يزال يأتينا في كل يوم بما لم يسبق إليه من السخافات وقال :

هذا هو العمل المبرور فاكتتبـوا
بالمال إن اكتتبنـا فيـه بـالأدب

ليس أثقل على النفس من قوله إكتتبنا ولكن حافظاً لا يعرف الفرق بين همزة الوصل وهمزة القطع ألم يكن خيراً من ذلك أن يقول «إنّا» اكتتبنا .

وقال يمدح المويلحي :

« لك في دمي حق أردت وفاءه »

فهل للمويلحي عنده ثأر ؟ والا فماذا يعني بقوله في دمي ؟ لست ادري ولا المنجم يدري ؟ ولا حافظ نفسه فيما أظن : لقد كان الصواب أن يقول في ذمتي وقال أيضاً :

لئـــن غـــدا الدهر بنا مدبـراً
لابـــد للمـــدبر أن يقبـــلا

من أعلم حافظاً ان المدبر لابد أن يقبل ؟ — هل يقبل الشباب بعد

ذهابه وهل يعود الأمس وهل يحيا الميت وهل وهل ؟ ؟ ؟ ؟ ؟ أم تراه أخذ ذلك من حركات الطابور ؟ ؟

(١١)

بلغنا أن حافظ بك ابراهيم يتوعدنا ويزعم أن كلمة تخرج من فيه تكفي لطردنا من النظارة، أو احراجنا فيها على القليل ، ونحن لا يعنينا هذا القول ، ولا يفزعنا هذا الوعيد ، وما كان ليميلنا تهديده عن رأينا فيه أو يمنعنا من اعلان سخافاته واظهار المخزيات المنديات التي جاء بها في شعره ، والا فانا نعلم مكانته من صاحب العطوفة ناظر المعارف ولا نجهل جاهه العظيم جداً جداً ، ولو كنا نتخشى شيئاً لما أقدمنا على نقد شعره ،وهبه استطاع أن يلحق بنا ضرراً فهل ينفي ذلك أنه ليس بشاعر ، ولكن وزان تفاعيل ، ومقطّع أبيات ، وانه أخطأ أفحش الخطأ في قوله من قصيدته في حريق ميت غمر :

رب ان القضـــاء انحـــى عليهـــم
فاكشـــف الكرب واحجـب الاقدارا

وذلك انه كان ينبغي أن يجعل « الأقدار » موضع « القضاء » والقضاء موضع الأقدار ، لان الاقدار ، هي التي تقدر القضاء ، فاذا انحى القضاء على قوم لم يغن حجب الأقدار شيئاً وانما يجدي حجب القضاء لو كان الى ذلك سبيل — وفي قوله من القصيدة بعينها .

غشيتـــهم والنحس يجـري يمينـــا
ورمتهـــم والبـؤس يجري يسارا

لان الصورة المودعة في البيت مضحكة وأغلب الظن أنه أخذها من حركات « الطابور » وأوامر اليوزباشية ، وأي شيء اسخف من قوله النحس يجري يمينا والبؤس يجري يسارا ؟ ولماذا كان هذا كذلك ؟ أليس هذا أشبه بالجنود الهاربة من وجه اعدائها ؟ على ان الشطر الثاني في معنى الأول فهو اذاً حشو وتكرار . — وفي قوله .

أكلــــــت دورهـــم فلمـــا استقلت

لــــــم تغـــــادر صغارهـــم والكبارا

لست أدري لماذا كان هذا الترتيب ؟ هل حسب حافظ ان كل شيء يشبه نظام الجيوش .

فانه اذا صح ما يقول فقد كان ينبغي أن تأكل النار الناس ثم تأكل بعد ذلك دورهم وإلافإنه لا يعقل أن يكون الناس قد انتظروا في دورهم حتى أكلتها النار — على انه ليس من الضروري اذا احترقت البيوت أن يحترق سكانها أيضاً وفي قوله .

أخرجتـــــــهم مـــن الديار عراة

حـــــذر المـــــوت يطلبون الفرارا

فاني لا أفهم لماذا أخرجهم من ديارهم عراة لا ثياب على أجسامهم ؟ فهل حرقتها النار أيضاً؟ وهل ظن أن احتراق الدور يستلزم احتراق ثيابهم على أن في البيت خطأ آخر وذلك أن خروجهم من الديار هو فرار فلا معنى لقوله بعد ذلك أنهم يطلبون الفرار ثم كيف يوفق بين قوله انهم خرجوا يطلبون الفرار حذر الموت (أي أنهم أحياء) وقوله

في البيت الذي قبله ان النار لم تغادر صغارهم والكبار (أي انهم ماتوا جميعاً) — وفي قوله أيضاً .

أيـــــها الرافلون في حلل الوشـــي
(م) يجرون للـــــذيول افتخـــــارا

فقد أخطأ في قوله يجرون للذيول والصواب اسقاط اللام لان الفعل متعد ولكن حافظاً كما أسلفنا غير مرة لا يعرف فرق ما بين اللازم والمتعدي هذا الى انه أخطأ في قوله افتخارا واحسبه اراد اختيالا — والافتخار والأختيال كما يعلم كل واحد ليسا شيئاً واحدا — وفي قوله .

« مر بألف لهم وان شئت زدها » .

فانه لا معنى لهذا التحديد ولماذا لم يخله وشأنه فان شاء وهبهم ألفاً وان شاء زادها ؟ ألا ترى ان قوله مر بألف هو غاية ما وصل اليه الانسان من التحكم البارد .

وفي قوله :

ســـــال فيـــه النضـــار حتى حسبنـــــا
ان ذاك الفنـــــاء يجـــري نضارا

لان معنـــى البيت : (سال) فيه النضار حتى حسبنا ان ذاك الفناء (يسيل) نضارا او أي شيء بالله أسخف من قوله ان الذهب سال حتى حسبناه سال ؟ ؟ ؟ ؟ — وفي قوله :

يكنســـــون السرور طورا وطـــــورا
فـــــي يد الكأس يخلعـــون الوقارا

من لي أن أراه لابسا « رد نجوت » منسوجة من خيوط السرور ومن لي بمن يفسر لي قوله في يد الكأس ؟ فهل يعني ان الناس كانوا في يد الكأس ! أم يعني انهم خلعوا الوقار في يد الكأس ؟ وكلاهما لامعنى له . الحقيقة ان حافظاً لم يعن شيئاً ولم ينظر الاالى المطابقة بين اكتسى وخلع وفي قوله .

رب ليـــل في الدهــــر قد ضم نحســـــا
وسعـــــودا وعســـــرة ويسارا

فهل يعرف ليلا في غير الدهر حتى قال « في الدهر » وهل رأى ليلا لا يضم سعدا ونحسا وعسرا ويسرا حتى قال « رب » أم تراه لا يعرف معنى رب ؟ ؟ وهل تعد من الدهر ليلة لا تضم السعد النحس .

وبعد فأي شيطان غبي أملى عليه هذه القصيدة التي لا يخلو فيها بيت من خطأ ولا يقع فيها القارىء الا على مترقع ولكنا ندعها الى سواها قال :

رجـــوتك مرة وعتبــت اخـــرى
فـــــلا أجـــــدى الرجـــــاء ولا العتاب

الصواب أن يقول (فما) بدل (فلا) وقال .

وأكبـــــر ظنـــي أن يـــوم جـــلائهم
ويــــوم نشور الخلـــق مقترنــــان

أخــــــذه مــــن قـــول الشاعـــر :

ويا سلــــوة الأيام موعدك الحشــــر

أو من قول ابن الرومي :

فكـــأن ليلتنـــا عليّ لطـــولها
ثبتـــت تمخـــض عن صباح الموقف

أو من قول العاري .

ســـهرت ليلى فنـــوم العين متبـــول
كـــأن ليلى بيوم الحشر موصول

وقال :

ظبـــي الحمـــى بالله ما ضركا
اذا رأينـــا في الكرى طيفكـــا

فأخطأ لان حبيبه لا حيلة له في نفرر طيفه كما يعلم الناس وكما لا يعلم حافظ على ما يظهر وهو لا يمنع طيفه ان يزوره في المنام فبيته لا يدل الا على السخف والغفلة وماذا يصنع حبيبه اذا كان طيفه لا يحب حافظاً ولا يأنس به واي ذنب لحبيبه حتى يعاتبه على جفوة طيفه ! وهل يلام حبيبه من أجل ذلك ! ! أم هل حبيبه عذوله في طيفه ! ! !

وقال :

وسكنـــت القصور في بيت خلـــد
وسكنـــا عليـــك بيـــت الحـــداد

فأخطأ في ثلاثة مواضع فى بيت واحد الأول أن القصور كما يعلم الاطفال الصغار لا تكون في البيوت والثاني انه لا يقال بيت خلد ولكن جنة خلد والثالث انا سمعنا بثوب الحداد ولكنا لم نسمع ببيت الحداد ؟ لأن الناس لم يروه أبدا .

علم الله أنا لا نحتقر من حافظ الا شعره ، ولا نناكر الا مذهبه ولا نناصب الا قريحته ، والا ألفاظه الرثة ، وأساليبه القلقة ، ومعانيه السقيمة وذوقه الفاسد ، وأغراضه المبتذلة المطروقة ، وقوالبه المشوشّة ، وتكلفه الشديد ، ومن‌ذا الذي يحق له أن ينكر علينا ذلك أو يعيبنا به أو يذمه الينا ، أو ينعى علينا مقتنا لما يستحق المقت ، وأنت فقد تعلم أن الطبيعة البشرية مبنية على التعادي ، وأن الفكر والعمل يبطلان اذا لم يجد الأنسان ما يبغض ، وأن الحياة لولا تناطح العواطف ، وتزاحم الأضداد ، ماء آجن آسن ، وان بياض النهار لا يوضحه الا سواد الليل ، وانك ان لم تجد ما تكره ، فأنت حقيق أن لا تجد ما تحب ، لأن حسن الجميل لا يظهره مثل قياسه الى قبح القبيح ، وكذلك عبقريات الفحول من الشعراء وبراعاتهم وعقائلهم لا يكشف لك عن حسنها ونباهتها مثل سخافات المقصرين والمتخلفين أمثال حافظ الذي اتخذتُ من شعره « توابل » أشحذ بها شهوة الذهن الى ما يعرضه علينا الفحول من شهي الألوان وكريم الطعام ومستطرفة : هذا هو ما دفعني الى تذوق شعر حافظ لا ما ذهب الناس اليه وتوهموه بيننا من العداء ، غير أني لا أرى بدأً من الاعتراف بأن حلقي لم يسغ هذه التوابل البشعة الخبيثة فلفظتها ، وخفت أن يصيب الناس منها ما أصابني ، فأعانت حربي عليها ، وأوضحت لهم ما عساه يحل بهم من المكروه اذا هم تطعموها ، وهذا هو الحامل لي على نقد شعر حافظ ولقد كان بودي أن أجد لحافظ شيئاً لا تنقبض منه النفس ولا ينبو عنه الذوق ، ولكن البحث قد أعياني حتى يئست مما أطلب فان كان لحافظ شيء من الحسنات فليبعث بها من يعرفها الينا وسأمضي في ايراد اساءآته حتى يوافيني الناس باحساناته ، فمن ذلك عدا

ما ذكرنا في مقالاتنا السالفة قصيدته التي يصف فيها « هيجو » الشاعر الفرنسي الذي مسخ حافظ من كتبه « البؤساء » والتي يقول في مطلعها :

أعجمـــــي كـــاد يعلـو نجمه
في سمـــاء الشعر نجـــم العربي

هذا البيت شر ما تفتتح به قصيدة يراد بها المدح وذلك لان قوله أعجمي يشعر بشيء من الاستصغار بشأن الممدوح واستضآله وقد مضى الزمن الذي كان العرب يتوهمون فيه أنهم خير الأمم وأن ما خلاهم همج وأعاجم لا قيمة لهم ولا وزن ولكن ذلك دأب حافظ فانه كما أسلفنا كثيراً ما يذم من يريد مدحه ، ويطري من يقصد إلى تنقصه وعلى أني لا أظنه أراد المدح أو الذم بل الأغلب في الظن انه انما جعل باله الى المطابقة بين الأعجمي والعربي فالبيت على ذلك لا ينطوي على شيء من المعنى .

بيد انه ليس أدل على جهل حافظ بشعر هوجو وبشعر المعري أيضاً (وان كان من المعجبين به والمدمنين قراءة شعره) من قوله في البيت الذي بعد هذا :

صافـــح العليـــاء فيها والتقـــى
بالمعـــري فوق هـــام الشهـــب

وذلك أن القارىء خليق أن يفهم من هذا البيت أن المعري وهوجو سواء في المذهب والرأي والا فلماذا جعلهما يلتقيان فوق هام الشهب . على أن الحال على خلاف ما وصف والأمر على عكس ما خيل إليه لأنه ليس ثم أشد اختلافاً في المنهج وتباينا في المنزع من هذين الشاعرين كما يعلم كل من اطلع على شعرهما ،ولكني لا أظن حافظاً يرى فرق ما بينهما أو يعبأ بشيء من ذلك

وقال من القصيدة نفسها .

سائلـــوا الطيـــر اذ ما هاجكـم
شجـــوها بيــن الهــوى والطــرب

هــل تغنـــت أو أرنــت بسوى
شـعر هوجو بعـ؛ عهد العرب

أليس هذا غاية السخف، وضعف الخيال ، وسقم الذوق ، وجمود الخاطر ، ومن أين علم حافظ ان الطير كانت تتغنى وترن بشعر العرب حتى ظهر هوجو فعدلت عنه وجعلت بعد ذلك تتغنى وتتصادح بشعره؟ وأنت أيها القارىء هل سمعت حمامتين . تتناشدان المجنون أو كثير أو المتنبي أو المعري . وهل رأيت مرة في بعض الأوكار حمامة « عالمة » تقلب بأظافيرها صفحات ديوان واحد من الشعراء وتقرأ فيها ثم تنقل ما فيها الى لغتها التي لا يعرفها من البشر غير حافظ وتكتب الترجمة بمنقارها على أوراق الشجر .

وقال حافظ :

أبـــرىء عنـــه يعفـو مذنـــب
كيـــف تسـدى العفو كف المذنب

الشطران معناهما واحد فلا ضرورة اذاً الى أحدهما ، ولست أدري علة هذا الشغف بالحشو والتكرار تأمل قوله من قصيدته بعينها .

قلـــت عن نفسك قـــولا صادقا
لم تشبـــه شائبـــات الكـــذب

فان قوله: «لم تشبه شائبات الكذب» لاضرورة اليه بعد قوله «صادقاً» في البيت ولكني أظن حافظاً يحسب التكرار أبلغ في التأكيد لا سيما اذا أعيا الشاعر أن يتم البيت وانه خير في الجملة أن يكرر الشاعر المعنى من أن يختصر البيت هكذا :

كيـــــف تسدى العفو كف المذنب

أو هكذا .

قلـــــت عن نفســك قــولا صادقــا

ومن أمثلة هذا الحشو قوله :

غفـــى المحزون والشــاكي وأغفــى

أخــــو البلـــوى ونام المستهام

فان معنى البيت نام المحزون والمحزون ونام المحزون ونام المحزون.

وأنظر قوله على لسان اللغة العربية ما أسخفه وأضعفه وأوهى حجته :

وسعـــــت كتاب الله لفظــا وغاية

وما ضقـــــت عن آي بـــــه وعظــات

فكيـــف أضيــق اليوم عــن وصف آلة

وتنسيـــــق اسمــــاء لمختــرعات

فقد كانت هذه الحجة تصح لو سبق للعرب بهذه المخترعات عهد أو لو وردت اسماؤها في كتاب الله،فأما وذلك لم يكن فلا غرابة أن

ضاقت اللغة عن هذه الأسماء الجديدة والمخترعات الحديثة — على انه ليس ثم لغة تضيق عن العظات ولا تسعها وانما تضيق اللغة عن اسماء المستحدثات اذا جمد أهلها .

(١٣)

زلزال مسينى

ليس من فضل ومزية لقصيدة من القصائد الا بحسب المعاني التي يريد الشاعر ، والغرض الذي يؤمّ ، وعلى قدر روعة الموضوع وفخامته ، أورقته ولطافته ، ينبغي أن تكون روعة المعاني وفخامتها ، اورقتها وظرفها ، فانه ليس أدل على سقم الذوق وتخلف الملكة من تباعد ما بين الغرض وطريقة العبارة عنه ، وتعادي ما بين المعنى ولفظه ، وما ظنك بفتاة على رأسها عمامة وفتى يلبس أساور وحلقانا . . وانما سبيل الشاعر في ذلك سبيل المصور فكما أن الثاني يلزمه أن يتهدى الى ضرب من التخير والتدبر في انتقاء الأصباغ وتأليف الألوان وفي مواقعها ومقاديرها وفي كيفية مزجه لها ، وترتيبه اياها ، كذلك يقتضي النظر شيئاً من الحذق والأستاذية وسعة الذرع حتى تستوفي المعاني حظها وتستكمل زينتها . ولايتوهمن أحد أنا نقول ان الشاعر والمصور سواء في كل شيء فان ذلك مالا نذهب اليه ولا نجرأ أن ندعيه فقد يستطيع المصور أن يرسم لك الصورة كما تأخذها عينه ، ولكن الشاعر لا قبل له بذلك ، اذ ليس في طاقة اللفظ أن يغني غناء الريشة ، ولا في وسع الريشة أن تغني غناء اللفظ ، وانما غاية ما تصل اليه مقدرة اللفظ وأقصى ما يقع في امكانه ان ينقل اليك أثر الشيء في النفس ووقعه في القلب ، وما ذلك باليسير لو ظفرت به حيلة ، أو بلغت اليه وسيلة،وهذا سبب خيبة من يحاول أن يتخذ من قلمه ريشة وأن يكون في شعره مصورا .

قدمنا هذه الكلمة الموجزة لنقول أن «حافظاً» لم يوفق في قصيدته التي حاول أن يصف بها زلزال مسيني ، وينعت حال أهلها . ولست أجهل أن جمهور الناس على غير هذا الرأي وان السواد الأعظم يعدها في المنزلة الأولى بين شعره ويضعها في أخص موضع بين مثيلاتها ، ولكنهم خليقون ان لا يتعجلوا ، فأما اقنعناهم بصحة ما نرى ، وأما صرنا الى ما يرون . حافظ أشبه بالنوائح اللواتي يجتمعن في المآتم يستبكين النساء ، ويستدررن شؤونهن ، ويصفقن بالأيدي وينقرن على الدفوف ، وحولهن معولات يلطمن حر الخدود ، وهن ما يبض لهن جفن ولا تراق لهن عبرة .

وأنت فقد تعلم أن كلام النادبات ليس فيه ما يشجي فيبكي ، ولكن المفؤود يحب أن يسلك سمعه صدى حزنه وشجوه ، وان يتوهم أن غيره يشاركه وجده وترحته ، ويقاسمه كمده وفجعته ، وربما جاوز ذلك فظن الطبيعة تساهمه أساه . وخال أن الظلام حداد الكون عليه، وان الغمائم تبكي لبكائه وان البرق يومض لناره ، وان الرعد صدى تهزُّم الوجد في فؤاده وإلا فكيف تؤول قول الشاعر .

علي والا مـــا نـــواح الحمائـــم
وفـــي والا مـــا بكاء الغمائم

وعنـــي أثار الرعـــد صرخة طالـــب
بثـــأر وهـــز البرق صفحـــة صارم

وما زالت الطبيعة منذ القدم وحي الشاعر ، ترفع مرآتها لعينه فيجتلي في صقالها أعمق أعماق نفسه . وذلك أن قلب الانسان لا يحاول البث

والافضاء بنجواه ما دام لا يدري غير شجوه وألمه ، وربما كان في مثل هذا الألم الذي لا يعرف له شبيها ، شعرا صامتا ، ولكنه ما حرك النفس ودفعها الى العبارة عما تجد والكشف عما تجنّ ، ولا أطاق الألم وفتح فم اليأس الصامت مثل مشاركة المرء آلام غيره والاطلاع عليها والعلم بها غير أنه اذا أحس أن همومه أكبر من أن تقاس اليها هموم غيره من البشر ، عاذ بالطبيعة وناجاها واجدا في شجوها الصامت مثالا جليلا لما يجده في نفسه ، ويحسه في قلبه . . . يزحف الليل فيفنى ظلام صدره في ظلامه الشامل وسواده المحيط ، وتعود الشمس الى الطلوع فيذكر أيامه العذاب السوالف من أحسن عهد مضى وأحلى وأندى ويتبعها قلبه « في حيثما سقطت من الدهر » ويرى الشمس تلثم الفجر فيحلم بما اختلسه من ساعات الوصل في غفلة من الرقباء وأمان من الزمان ، وتجنح الشمس الى الأصيل فيتبعها رسل النظر حتى يخبو ضرامها ويعلو رماد الطفل وهيجها فيشيم مخايل الرجاء في حياة ثانية يعقد بها حبل أمانيه ويصل أسبابه بأسبابها .

بلى ان في قلب الطبيعة لهموماً لا يطلع عليها الأكل من يفهم لغة الحزن الصامت . ولقد كانت هذه الهموم منبع الشعر وما زالت الى اليوم معيناً لا ينضب . تأمل قول « وردز ورث » .

« أن في مطلع الفجر للهيباً متوهجاً قصير العمر يشب للشعراء ، ولكم اضطرم قلبي له حين أطلقت نفسي من عقال النوم » .

أما حافظ فليس من هؤلاء الشعراء الذين عناهم وردز ورث ولا قلامة ظفر ، غير انه ان فاته ذاك فلم يفته أن يكون نائحة البلد ونادبة القوم ، يقولون له نح فينوح ، وابك هذا الراحل فيبكيه ، واندب هذا

الحظ فيندبه ، وما أظن حافظاً ينكر علينا هذا الرأي وهو القائل في ختام قصيدة وداع اللورد كرومر بعد أن سرد آراء الناس فيه .

فهـــذا حديــث الناس والناس ألسن
اذا قـــال هذا صاح هذا مفنــدا
ولـــو كنــت من أهل السياسة بينهم
لســـجاـت لي رأيا وبلغت مقصدا

ولكن دموعه أجف من أشعة الشمس لا يستبرد بها قلب ولا يستروح لسكبها فؤاد كأنها قطع البرد المتساقطة ؛ وانما كان هذا كذلك لانه لا يفضي الى القارىء بعاطفة يجيش لها صدره . ويضطرب بها جنانه ، ولكن بما يظن أنه أبلغ في التأثير . وأوقع في تحريك النفوس ، ومن أجل هذا ترى ابتسامته في شعره جامدة كابتسامة الموتى ينتفض لها البدن ، ودمعته فاترة لا يتحرك لها شجن ؛ وزفرته باردة كفاس ليلة ذات شبم(١) وأناته كصرير الباب طال عليه القدم .

(١٤)

زلزال مسيني

ترى ما عسى قول حافظ يكون لو سأله سائل : ماذا ذهبت اليه في هذه القصيدة ، والى أي غاية نزعت ؛ وأي صورة قصدت تصويرها وأي حقيقة أردت تقريرها ؟

---

(١) أي باردة .

لا أدري بأي شيء كان يجيب ، على أنه مهما يكن جوابه ، فاني لا أحب أن أجشمه مالا يطيق ، ولا أن اطلب المحال أو أحدث النفس بما لا يكون ذاك لان القصيدة من أولها الى آخرها لاغرض لها ولا مرمى ، وما أرى « حافظاً » فيها الا كمن أراد أن يصف البحر فجعل يحث الحكومة على بناء الأرصفة على ساحله لئلا يغرق فيه الاطفال ، وليست هي بحيث اذا حذفت عنوانها ثم اردت أن تتبين غرضها من فحوى بيوتها ، وتتوسم موضوعها من معاريض لفظها ، وجدت ذلك ممكناً ، وألفيته مراماً هيناً ومطاباً ليناً .

ألا ترى كيف أني لو انشدتك هذين البيتين .

ليتــها امهلــت لتقضي حقوقـــاً
مـــن وداع اللـــذات والجيران

لحـــة يسعـد الصديقان فيـها
باجتمـــاع ويلتقـــي العاشقـان

ولم أقل لك أنهما من قصيدة له في زلزال مسيني ، لما جرى ببالك أنه يعني بلدا لأن ذلك بعيد عن المعقول ، ولكان أسبق الخواطر الى ظنك ، وأوقعها في خلدك ، وأشدها تمثلا في نفسك ، وارجحها في رأيك ، انه يذكر فتاة عجلت بها حمة الفراق واسرع بها قدر النوى

ولو اسمعتك هذه الأبيات على غير معرفة بما يحاول الشاعر .

لا رعـــي الله ساكن القمم الشم
(م) ولا حـــاط ساكـــن القيعـان

قـــد اغارا على اكـف براهـا
باريء الكائنـــات للاتقـــان

كيـــف لم يرحمـا انامِلها الغـر
(م) ولم يرفقـا بتلـك البنـان

« يريد النسور والحيتان » أكان يتراءى لك انه يصف الزلزال ؟ كلا وانما كان هذا هكذا لان ما اوردت من أبياته يصلح ان يكون لهذا كما يصلح أن يكون لغيره ، ويصح ان يقال بمناسبة الزلزال ، أو بمناسبة الحرب وفي هذا دلالة على انه حاد عن القصد ، وخرج عن الغرض ، وملأ القصيدة بالحشو ، وكظها بما هو أجنبي منها ، وما هو مستكره على مواضعه فيها . والا فما ذنب النسور والحيتان وأي جريرة اقترفت حتى يلعنها وينحي عليها بالذم ويجعل لسانه عليها مبرداً ؟ أتراه ظن أن الخطب كان يكون أيسر والمصاب أهون لو أن هذه الضواري رحمت ما انتشر على وجه الأرض وانطوى في جوف البحر من الجثث الهامدة فلم تسرف في جسومها « نقراً ونهشاً » ؟ ؟ وهل « لجرح بميت ايلام » وما هذا السخف الغريب الذي يذهل المرء عما هو معلوم في بداءة العقول ؟ وينسى شاعر النيل والشرق جميعاً انه سواء اسرفت النسور والحيتان في « النقر والنهش » أو لم تسرف فان ما كان كان ، ولا حول له ولا قوة ولا ذنب للنسور ولا الحيتان :

وما هذه الغفلة الشديدة التي جعلته يحسب انه لما كانت مسيني تابعة لايطاليا سياسياً ومن بعض املاكها اليوم فلا بد أن يكون قطانها كأهل ايطاليا حذقا في التصوير ، وبراعة في النقش ، ونحت الدمى

والتماثيل ، ومهارة في تشييد « روائع البنيان » ونبوغا في « نصب حبائل الألوان » :

أليست هذه غفلة شديدة منه تدل على انه لا يتدبر ما يقول ، ولا يتبصر ما ينظم ، والا فمن أنبأه .

ان ذاك الغرار من هـــذه البيــض
(م) وذاك الشرار من ذا الزناد ؟ (١)

حتى قال ان بنان المسينيين :

ملهمـــــات مــن دقــة الصنع مالا
يلهـــــم الشعر من دقيــق المعانــي

مـــن تماثيــل كالنجـــوم الدراري
يهـــــرم الدهـــر وهي في عنفــوان

وما لحافظ واعتناف الأمور واتيانها على جهل والخوض فيما لم يدخل له في علم ؟ ومن علّم حافظاً أن « الجغرافيا » اعذب ما تكون منظومة ، واحلى ما تقرأ مقروضة ، حتى داهم الناس من حيث لا يتوقعون بهذا البيت في أول القصيدة .

غليــــان في الأرض نفس عنـــه
ثـــوران في البحــر والبركـــان

---

(١) البيت للشريف الرضى .

على أنا لو سلمنا جدلا مع حافظ وأساتذته الذين أخذ عنهم ان « الجغرافيا » في الشعر أحلى .

« وأعذب من طعم الخلود لطاعم »

وانه لا ثقل لها على النفس ولا تنغيص ولا تكدير ، لكان خليقاً بالشاعر الذي يريد أن ينظمها أن يأتي بها صحيحة على وجوهها لا مقلوبة معكوسة النظريات كدا فعل « حافظ » في نظرية ثوران البراكين فقد خلط فيها ما شاء حتى صار أمرها ملتبساً . وذلك أن ثوران البحر لادخل له في التنفيس عن غليان الأرض،وهو ليس دليلا من دلائل هذا الثوران فقد يثور البركان والبحر ساكن ولكن خيال حافظ مضطرب لا يرى الأشياء الا كذلك .

لو كان لحافظ شيء من سلامة الذوق لفطن الى أنه لا حاجة به الى هذا البيت الجغرافي بعد قوله قبله :

ليس هــــذا سبحان ربي ولا ذا
ك ولكـــــن طبيعـــة الاكوان

وأنت أيها القارىء . فاذا أضفت الى مـــا ذكرنا من المآخذ أغلاطه اللغوية والنحوية كقوله :

فـــــاذا الأرض والبحــــار سواء
فـــــي خـــلاق كلاهـــما غادران

أخطأ في قوله غادران خطأ لا يغتفر ، وذلك لانه لا يصح أن تقول محمد وعلى كلاهما مصيبان أو غادران ، بل الصواب أن تقول مصيب أو غادر كقول الشاعر .

لا تحسبن الموت موت البلى
فإنما الموت سؤال الرجال
كلاهما موت ولكن ذا
أشد من ذاك على كل حال

وقول ابن الرومي يهجو :

ان ابا حفص وعثنونه
كلاهما أصبح لي ناصبا

وقوله :

« خسفت ثم أغرقت ثم بادت »

هذه الألفاظ كلها تؤدي معنى الفناء فهي حشو .

وقوله :

« غالها قبلك الزمان اغتيالا »

لفظة اغتيال لا ضرورة لها بعد غالها — وقوله :

كيف لم يرحما أناملها الغر
(م) ولم يرفقا بتلك البنان

الشطر الثاني في معنى الأول فلا ضرورة لأحدهما، وقوله :

رب طفل قد ساخ في باطن الأرض
ينادي أمي ! أبي ! أدركاني

فانه على وفرة علامات (النداء) لا يعقل أن السائخ في باطن الأرض يستطيع شيئاً من ذلك .

أقول اذا أضفت هذا الى ذاك علمت أن هذه القصيدة ليست من الشعر الجيد في شيء لما فيها من الاغلاط اللغوية والنحوية والمعاني الفاسدة والخطأ الجغرافي والتاريخي والشطط عن الموضوع :

اذا حســـن البكـــاء على مصـــاب
فان بكـــاءه السمـــج الثقيـــلا

* * *

هذا ما كتبنا نقدا لشعر حافظ ولا ندعي أننا أحطنا بكل صغيرة وكبيرة فان ذلك ما لم نقصد اليه فضلاً عما فيه من التطويل الممل وانما اردنا ان نقدم للقارىء « أمثلة » مما نأخذه عليه ونعيبه به من تقليده ونظمه مقالات الصحف وسرقاته وفساد معانيه واضطراب مبانيه وخطئه اللغوي والنحوي ولو كان له حسنات لا غتفرنا له مافي شعره من السيئات فان للمتنبي سرقات كثيرة ولكن حسناته أكثر فليقس القارىء على ما أوردنا ما لم نورد وهو بعد ذلك قمين أن يصل الى ما وصلنا إليه .

أما شعره الذي نظمه أخيرا فلا نتعرض له الآن ولكنا نقول له ياحافظ أن الصدق في العبارة عن الاحساس أو الرأي أول ما ينبغي على الشاعر ولو كان في ذلك عدو الناس جميعاً ،فانه يجب أن يكون المرء مقتنعاً بالرأي اذا أراد أن يقنع غيره به وان يكون الأستاذ تلميذ نفسه وإلا لم يأخذ عنه أحد ــ ولتعلم بعد أن حاجتنا الى الأصوات أشد من حاجتنا الى الأصداء فان كنت تستعجل الشهرة فان الشهرة ليست للأحياء منا ولكن لمن مات وفات وهي في ذاتها خالدة لا يؤتاها الفتى حتى تنقضي أيامه ويستوفى أنفاسه فيحيا في عقول الناس وفي قلوبهم ولتعلم ان الرغبة في الشهرة

تختلف عن الزهو في انها خيال تصوري في التمني والزهو شخصي لان الراغب في الشهرة لا يطلب أن تتطامن لديه المفارق أو تخشع أمامه العيون وانما يرجو ان يعرف الناس لعبقرياته حقها وحب الحق عند الشاعر قبل حبه لنفسه هي أول وله المحل الثاني لان لديه من الشواغل ما يذهله عن نفسه ويسليه عن حبها والافتتان بها والرجل العظيم خليق أن لا تستسر عليه معرفة نفسه أو يغيب عنه قدرها وهو لا يتهالك على الاطراء ولا يتشوف الى حلة يخلعها عليه كاتب أو صديق بخلاف المزهو المنخو فان الاطراء منتجع خواطره ومهوىء فؤاده ومطمح بصره ومن كثر ذكره لنفسه خيف عليه أن ينساه الناس والشهرة لا تنال بقوه الساعد واذا كان طالب المدح لا يلذ ما يكتب الا اذا أثنى عليه الناس وامتدحوه فأخلق بهم أن لا يجدوا فيه ما يلذ لان الناس لا يستحسنون الا ما يمتزج باجزاء نفوسهم ويتصل بقلوبهم فمن اراد أن يكون عظيماً فليتضاءل في مرأى عينه لان حب الشهرة عبارة عن عن حب الاتقان فمن كان حقيقاً بها فلا بأس عليه من ابطائها وتؤدتها فان الحق لا يبلي والطبيعة لا تخلق والزمن يجرد المرء من كل شيء ما خلا العبقرية والفضيلة فأما ضجة الثناء الكاذب فانها لا تغني من الخلود شيئاً اذا لم تكن في الشعر بدرته وما أضأل الشهرة الكاذبة اذا قيست بشهرة تراخت عليها الحقب فأكسبتها وقار السن ومهابته ولا يبتئس شعراؤنا بذلك فسوف يصحبون الأيام الخالية ويخبر الدهر ما عندهم فأما أشاد بذكرهم فنظم حاشيتي البر والبحر وأما حباهم ببرد الغموض فصاروا غفلا من الأغفال .

ابراهيم عبد القادر المازني

الجزء الاول　　　　　　　　　　الثمن ٣٠ مليما

الديوان

كتاب في النقد والادب

يتم في عشرة أجزاء

لمؤلفيه

عباس محمود العقاد　و　ابرهيم عبد القادر المازني

محرر بجريدة الاهرام　　　محرر بجريدة الاخبار

الطبعة الثانية

يطلب من مكتبة السعادة باول شارع درب الجماميز

من جهة باب الخلق بمصر

ابريل سنه ١٩٢١

مقدمة

بسم الله نبتدىء (وبعد) (فان كان للسكوت عن الخوض في أحاديث الأدب داع فقد زال ذلك الداعي اليوم) وقد تجددت دواع للكتابة في أصوله وفنونه أخصها الأمل في تقدمه ، لالتفات الأذهان الى شتى الموضوعات ومتنوع المباحث والحذر عليه من الانتكاس ، لاجتراء الادعياء والفضوليين عليه ، وتسال الاقلام المغموزة والمآرب المتهمة الى حظيرته . وكتابنا هذا مقصود به مجاراة ذلك الأمل ، وتوقي تلك العلل وهو كتاب يتم في عشرة أجزاء*. موضوعه الأدب عامة ووجهته الابانة عن المذهب الجديد في الشعر والنقد والكتابة . وقد سمع الناس كثيراً عن هذا المذهب في بضع السنوات الأخيرة ورأوا بعض آثاره وتهيأت الأذهان الفتية المتهذبة لفهمه والتسليم بالعيوب التي تؤخذ على شعراء الجيل الماضي وكتابه ومن سبقهم من المقلدين . فنحن بهذا الكتاب في أجزائه العشرة وبما يليه من الكتب نتمم عملا مبدوءا ونرجو أن نكون فيه موفقين الى الافادة ، مسددين إلى الغاية . وأوجز ما نصف به عملنا إن أفلحنا فيه — انه اقامة حد بين عهدين لم يبق ما يسوغ اتصالهما والاختلاط بينهما ، وأقرب ما نميز به مذهبنا انه مذهب انساني مصري عربي : انساني لانه من ناحية يترجم عن طبع الانسان خالصاً من تقليد الصناعة المشوهة ، ولانه من ناحية أخرى ثمرة لقاح

(*) لم يصدر الكاتبان الا الجزأين اللذين نعيد نشرهما هنا . م.خ

القرائح الانسانية عامة ، ومظهر الوجدان المشترك بين النفوس قاطبة . ومصرى لان دعاته مصريون تؤثر فيهم الحياة المصرية ، وعربي لان لغته العربية ، فهو بهذه المثابة أتم نهضة أدبية ظهرت في لغة العرب منذ وجدت ، اذ لم يكن أدبنا الموروث في أعم مظاهره الا عربياً بحتاً يدير بصره إلى عصر الجاهلية .

وقد مضى التاريخ بسرعة لا تتبدل ، وقضى أن تحطم كل عقيدة أصناماً عبدت قبلها ، وربما كان نقد ما ليس صحيحاً أوجب وأيسر من وضع قسطاس الصحيح ،وتعريفه في جميع حالاته، فلهذا اخترنا أن نقدم تحطيم الأصنام الباقية على تفصيل المبادىء الحديثة ، ووقفنا الأجزاء الاولى على هذا الغرض ، وسنردفها بنماذج الأدب الراجح من كل لغة ، وقواعد تكون كالمسبار وكالميزان لا قدارها . فان أصبنا الهدف والا فلا أسف . وحسبنا بهذه المقدمة الوجيزة بياناً .

* * *

شوقي في الميزان

توطئـة

كنا نسمع الضجة التي يقيمها شوقي حول اسمه في كل حين فنمر بها سكوتا كما نمر بغيرها من الضجات في البلد ، لا استضخاما لشهرته ولا لمنعة في أدبه عن النقد ، فان أدب شوقي وزصفائه من أتباع المذهب العتيق هدمه في اعتقادنا أهون الهينات . ولكن تعففاً عن شهرة يزحف اليها زحف الكسيح ، ويضن عليها من قولة الحق ضن الشحيح ، وتطوى دفائن أسرارها ودسائسها طي الضريح ونحن من ذلك الفريق من الناس الذين اذا ازدروا شيئاً لسبب يقنعهم لم يبالوا أن يطبق الملأ الأعلى والملأ الأسفل على تبجيله والتنويه به فلا يغنينا من شوقي وضجته أن يكون لهما في كل يوم زفة،وعلى كل باب وقفة.وقد كان يكون هذا شأننا معه اليوم وغداً لولا أن الحرص المقيت أو الوجل علي شهرته المصطنعة تصرف به تصرفاً يستثير الحاسة الأخلاقية من كل انسان وذهب به مذهباً تعافه النفس . فان هذا الرجل يحسب أن لا فرق بين الاعلان عن سلعة في السوق والارتقاء إلى أعلى مقام السمعة الأدبية والحياة الفكرية ،وكأنه يعتقد اعتقاد اليقين أن الرفعة كل الرفعة والسمعة حق السمعة أن يشتري ألسنة السفهاء ويكم أفواههم ، فاذا استطاع أن يقحم اسمه على الناس بالتهليل والتكبير والطبول والزمور في مناسبة وغير مناسبة وبحق أو

بغير حق فقد تبوأ مقعد المجد وتسنم عقوة الخلود ، وعفاء بعد ذلك على الافهام والضمائر ، وسحقا للمقدرة والأنصاف وبعدا للحقائق والظنون، وتبا للخجل والحياء ، فان المجد سلعة تقتني ولديه الثمن في الخزانة ، وهل للناس عقول ؟

ومن كان في ريب من ذلك فليتحققه في تتابع المدح لشوقي ممن لا يمدح الناس الا مأجوراً . فقد علم الخاصة والعامة شأن تلك الخرق المنتنة نعني بها بعض الصحف الأسبوعية.وعرف من لم يعرفها أنها ماخلقت الا لثلب الأعراض والتسول بالمدح والذم وأن ليس للحشرات الآدمية التي تصدرها مرتزق غير فضلات الجبناء ودوي المآرب والحزازات خبز مسموم تستثمره تلك الجيف التي تحركها الحياة لحكمة كما تحرك الهوام وخشاش الأرض.في بلد لولم يكن فيه من هو شر منهم لماتوا جوعاً أو تواروا عن العيون . هذه الصحف الأسبوعية وهذا شأنها وتلك أرزاق أصحابها تكيل المدح جزافا لشوقي في كل عدد من أعدادها ، وهي لا تنتظر حتى يظهر للناس بقصيدة تؤثر ، أو أثر يذكر ، بل تجهد نفسها في تمحل الأسباب واقتسار الفرص . فان ظهرت له قصيدة جديدة والا فالقصائد القديمة المنسية في بطون الصحف ، وان لم يكن شعر حديث ولا قديم فالكرم والاريحية والفضل واللوذعية ، وان ضاقت أبواب الدعاء والاطراء فقصيدة أو كلمة ينشرها شاعر آخر فيستطال عليه بالشتم ويعير بالتقصير عن قدر شوقي والتخلف عن شأنه وهكذا حتى برح الخفاء وانهتكت الدسيسة . والعجب أن يتكرر هذا يوما بعد يوم ويبقى في غمار الناس من يحتاج الى أن يفهم كيف يحتال شوقي وزمرته على شهرتهم ومن أي ريح نفخت هذه الطبول .

وشرفاء الناس كافة يتبرأون من شبهة تربطهم بتلك الصحافة ، ويعلمون أنها آفة وأي آفة : ملدحها تهمة ، وذمها نعمة ، وتقيمها وتقعدها لقمة ، وبقاؤها على المجتمع المصري وصمة ، الا شوقي . فانه يعتدها آلة شرف وأحدوثة حسنة فهو يغمس نفسه في تقريظها ويستزيدها منه ، والطامة الكبرى ان ينصب هجاجات من أوباشها للتكريم بين الناس . ولو عمدة قرية في مثل ثروته بَصُرَ به يمديده بالسلام الخفي لأولئك الاوباش في خلوة من خلواته لرآها نقيصة يخزي لها ويود ان تكتم عليه . ونقول في مثل ثروته اكتفاء بعزة العرف ولا نرهقه بما فوق ذلك من عزة خواص الانسانية وشمم أفذاذ العبقرية. فأما ان تكرم البطالة كما تكرم جلائل الأعمال ، وان يدعي الناس الى المحافل لحمد التسول كما يدعون لحمد الاحسان والمروءة وان يتنادي الي الاحتفاء بناهشي الأعراض كما يحتفى بمهذبي الأرواح وهداة العقول ، وان يؤيد نفاية المجتمع وشذاذه كما يؤيد نوابغ البشر وأفراد العصور ، فتلك الهاوية التي لا يبدو قرارها . . . وواخجله مصر ! ! من الذي يصنع ذلك فيها ؟ ؟ شعراؤها — الشعراء في كل مصر عشاق المثل الأعلى وطلاب الكمال الأسمى ، لا يرضون بما دون غاية الغايات مطمحا لاعجابهم وقبلة لتزكيتهم . ونحن هنا يزكي شعراؤنا من يعد رفق السجانين بهم ضعفا ، وتجاوز الشرطة عنهم ظلما ، واتساع المجتمع لهم رزءا . . . ألا انه والله للعار وشر من العار .

ولقد استخف شوقي بجمهوره واستخف واستخف حتى لا مزيد . ما كفاه ان يسخر الصحف سرا لسوقه اليه واختلاب حواسه واختلاس ثقته حتى يسخرها جهرة ، وحتى يكون الجمهور هو الذي

يؤدي بيده أجرة سوقه واختلاسه . وأقسم لو فعلها رجل في أوربا لما قدر ان يمكث بعدها أسبوعا واحدا في بيئة محترمة ولئن لم يعرف شوقي مغبتها أدبا زاجرا وجزاء وافرا يعلمه الفرق بين سوق البقر وسوم البشر ليكونن بلدنا هذا بلدا يجوز فيه كل شيء ولا يؤنف فيه من شيء ولا يعد المرء ان يخلع فيه عاريا الا اتقاء طوارىء الجو وعوارض الحر والبرد . أما الحياء فلا ولا كرامة .

ان امرءاً تبلغ به محنة الخوف على الصيت هذا المبلغ لا ندري مم يستنكف في سبيل بغيته وأي باب لا يطرقه تقرباً الى طلبته . والحقيقة أن تهالك شوقي على الطنطنة الجوفاء قديم عريق ورد به كل مورد وأذهله عما ليس يذهل عنه بصير أريب ، وليس المجال منفسحاً للتفصيل ولا الفرصة سانحة لجلاء الغوامض ولكننا نذكر هنا ما فيه الكفاية لمن يفقه . أما الذين لا يفقهون فلا شأن لنا معهم . نقول ان تهالك شوقي على الشهرة قديم عريق وقد وجد في مركز أمكنه من قضاء هذه اللبانة اذ كان أشبه بملحق أدبي في بلاط أمير مصر السابق وكانت وظيفته وسيلة لارتباطه بأصحاب المؤيد واللواء والظاهر وغيرها من الصحف المتصلة بالبلاط ، فكانت لا تبخل عليه بالتقريظ والتهليل وتتحاشى أن توسع صفحاتها لنقده كما توسعها لنقد غيره . وأنت اذا قلبت الصحف القديمة رأيت فيها مئات المقالات في نقد الأدباء المشهورين كتاباً كانوا أو شعراء ولا ترى اسم شوقي عرضة لمثل ذلك من حملاتها واستثن مقالتين أو ثلاثاً بدأ بها المويلحي نقده في صحيفته مصباح الشرق ثم قطع سلسلتها ، وهذا أدعى إلى الريبة ، وكان في أمانة شوقي وموظفين آخرين بالبلاط هبات محبوسة على أقلام الكتاب والأدباء فكان شوقي يوظف منها المرتبات على من يتوسم للناس فيهم العلم بالأدب

ويعهدون فيهم سلاطة اللسان ، ليمدحوه في الصحف ويلغطوا في المجالس بتفضيله وتقديمه . ولو شئنا لسردنا أسماءهم واحداً واحداً وأكثرهم أحياء يرزقون . أضف الى هؤلاء من يمدحونه لمشاركتهم اياه في العادات الخصوصية والمنادمات الليلية ، وهم غير قليل ، ومن اعتادوا أن يرتبوا المواهب على حسب الوظائف والألقاب ، فمن هؤلاء من كنت تسأله ترتيب الشعراء فيقول لك : أولهم محمود سامي باشا البارودي (لأنه باشا عتيق) وثانيهم اسماعيل صبري باشا (لانه أحدث عهداً بالباشوية والوزارة) وثالثهم أحمد شوقي بك (لانه بك متمايز) ورابعهم حافظ بك ابراهيم (لانه أحرز الرتبة أخيراً) ويلي ذلك خليل افندي مطران (لانه حامل نيشان) فطائفة الأفندية والمشائخ وهلم جرا كأنهم يرتبونهم في ديوان التشريفات لا في ديوان الآداب!!! فبذلك وما شاكله اعتاد الناس أن يسمعوا أسيم شوقي مشفوعا بافخم الألقاب غارقا في صيغ الأطناب والأعجاب وكأنه يخشى أن ينسى الجمهور اليوم ما وصف به أمس فلا يرضيه الا أن تكرر تلك الصيغ في كل مرة يذكر فيها اسمه . ففي كل قصيدة هو شاعر الشرق والغرب وشاعر العرب والعجم وأمير الشعراء وسيد الأدباء ، وليت شعري ما ضرورة هذا التكرار كله ان كان مفهوما بذاته ؟ ؟ ولما رسخت هذه الألقاب المأجورة صدقها العامة وأشباه العامة ومن يجاملون السمعة والوجاهة فتناقلوها وردوها — ولم لا يصدقونها ويرددونها وأكثرهم لا يعني من الأدب بكثير ولاقليل، وجلهم انما يعرفه بالسماع ويلقنه بالاشاعة؟؟فان كان في الأمر موضع للعجب فهو أن تسمع ثناء متكررا ولا تسمع نقدا — مع ان الأغراق في الثناء احجي أن يغوي بالمنافسة ويكثر من النقاد . ومتى علمت علة السكوت فقد زال موضع العجب .

وأظن السن قد فعلت فعلها في نفس هذا المعذب بمرض الصيت فغلبه الشك وزاده شحا وقلقا فأصبح لا يقنعه ان يعالي بالدهان ، ويؤكد له التفرد والرجحان ، حتى يرتج أبواب المدح ومنافذه على الخلق قاطبة، فلا يروى لاحد شعر ، ولا يستحسن قول ، ولا ينادى باسم ، ولا تقرن الى شهرته شهرة . والا فعقوبة من يرتكب جريمة الاجادة معروفة! وما أطول عذابه ان لج به هذا الوسواس ! ! وان المحنة لتستدر الرحمة ولكن ارحم الناس خليق ان يضحك ممن يخال انه يعقم بطن الطبيعة ويسد الآذان ويضيق رحب الفضاء بالأجرة .

ولو شئنا لا تخذنا من كلف شوقي بتواتر المدح دليلا عن جهله باطوار النفوس فان الاذان أشد ما تكون استعدادا لقبول الذم اذا شبعت من المدح وأسرع ما تكون الى التغير اذا طالت النغمة . واذا تعود الناس ان يسمعوا ضربا واحدا من الكلام عن انسان تاقوا إلى سماع كلام عنه من ضرب آخر . ويارب مشهور انقلبت عليه القلوب بين يوم وليلة وأكبر دنبه عندها أنها أفرطت في محاباته ، فهل يدري شوقي أنه يؤجر أذنابه على النيل منه حين يبذل الأجر على المبالغة في مدحه ؟ ؟ إنه لا يدري ولا يبرىء المريض أن يدري بدائه وعلى نفسها جنت براقش ، فنحن نكتب هذه الفصول لنظهر لشوقي ومن على شاكلته عجز حياتهم ووهن أسلحتهم ونضطرهم الى العدول عن أساليبهم المستهجنة يأساً من صلاحها في هذه الأيام . اد يعلمون انها لا تعصم من النقد الصحيح ولا تموه على الناس اقدارهم الا ريثما تنكشف أسرارهم . ونقول لشوقي أن سنة الله لم تجر بأن يقوض الغابر المستقبل ، ولكنها قد تجري بأن يقوض الحاضر الغابر والمستقبل الحاضر ، فان كان يكربه أن يتنفس

الناس الهواء كما يتنفسه ولا يشتفي الا بأن يصفر الدهر من كل بقية صالحة فلا شفى الله نفسه من غيظها ولا أبرد عليها وغرة قيظها . وانه ليلذ لنا أن نكون نحن حربه وبلاءه وأن نستطيع الإدالة للحق من الباطل في غرض من الأغراض فانها لذة نادرة في هذا العالم .

وانه على قدر استفاضة الشهرة المدحوضة يكون نفع النقد ولزومه ، فان أبلغ ما يكون العيب اذا كان فاشيا ، وأضر ما يكون اذا كان متخذاً نموذجاً للاحسان وقياسا للاتقان . وليس قصارى الأمر ان يقول عامة القراء تلك قصيدة جيدة ونقول نحن أنها قصيدة رديئة فان الذوق والتمييز اذا اختلا لم يكن اختلالهما في الأدب وحده . وأنت اذا استطعت ان تهدي الطبقة المتأدبة من أمة الى القياس الصحيح في تقدير الشعر فقد هديتهم الى القياس الصحيح في كل شيء ومنحتهم مالا مزيد لمانح عليه . وان الأمم تختلف ما تختلف في الرقي والصلاحية ثم يرجع اختلافها أجمعه الى فرق واحد : هو الفرق في الحالة النفسية أو بالحرى الفرق في الشعور وفي صحة تمييز صميمه من زيفه اذا عرض عليها فكرا وقولا أو صناعة وعملا . فليس اصلاح نماذج الآداب بالأمر المحدود أو القاصر على القشور ولكنه من أعم أنواع الاصلاح وأعمقها . وسنتناول شعر شوقي قصيدة قصيدة أو معني معنى حتى نتبين الأثر جلياً في تحول الآراء وسلامة القياس . وسيرى القراء اننا نغلظ له البلاغ ونصحه صحاً شديدا . وكذلك ينبغي أن يجزى الزيف والدسيسة والاستخفاف بالعقول والاستطالة على الناس بالمقدرة على كم الافواه

وتسخير المأجورين . على اننا لا نحتاج ان نقول ان ذلك ليس بمانعنا اعتزام الحق والتزام الصواب ، وفي غنى نحن عن الاحتيال باللين والمداراة على القارىء ليقتنع بما نقول فاننا لا نسأل أحداً اقتناعه . ومن كان يحتكم برأيه إلى غير الحجة القاطعة والكلمة الناصعة فليحفظه لنفسه فما تعودنا ان نوجه لمثله كلاماً . وانا لبادئون .

* * *

رثـاء فريـد

أصاب شوقي حين قال ان قصيدته في رثاء فريد من خيرة قصائده فانها في مستوى أحسن شعره الأول والأخير ، وهي صورة جامعة لأسلوبه وطريقته وفكره ، ولو نظمها قبل عشرين أو ثلاثين سنة لهتف لها المخلصون من المعجبين به والذين يتلقون حكمهم عليه من ديباجات الصحف ، ولكانت حجراً في بناء شهرته ، لأنها من نوع ذلك الشعر الذي كان يشتهر به الشاعر في تلك الفترة ، وفيها مزاياه ومحاسنه التي لم يكن للشعر مزايا ومحاسن غيرها. فقد كان العهد الماضي عهد ركاكة في الأسلوب وتعثر في الصياغة تنبوبه الأذن ،وكان آية الآيات على نبوغ الكاتب أو الشاعر أن يوفق إلى جملة مستوية النسق أو بيت سائغ الجرس فيسير مسير الأمثال وتستعذبه الأفواه لسهولة مجراه على اللسان وكان سبك الحروف وتراصف الكلمات ومرونة اللفظ أصعب ما يعانيه أدباء ذلك العهد لندرة الاساليب ووعورة التعبير باللغة المقبولة — فاذا قيل أن هذه القصيدة يتلوها القارىء « كالماء الجاري » فقد مدحت أحسن مدح وبلغت الغاية . واذا اشتهر شاعر بالاجادة فليس للاجادة عندهم معنى غير القدرة على « الكلام النحوي الحلو » وهذه هي قدرة شوقي التي مارسها واحتال عليها بطول المران والتي هي مزية قصيدته في رثاء فريد وفي أحسن قصائده .

مضى الجيل الفائت وجاء جيل بعده كثر فيه تداول الدواوين البليغة والرسائل الرصينة وأخرجت المطابع مئات الكتب التي صاغها أقلىر كتاب العرب وشعرائهم وانتشرت الصحف فأصبح من مألوفات العامة ترديد جملها « النحوية الحاوة » وترجمت الأسفار الافرنجية أو اطلع عليها الناشئة في لغاتها فعرفوا مزية الكلام البليغ ومعنى الأقتدار الفني أو الأدبي . وسهلت الأساليب لكثرة ما وردت على الاسماع فلم تعد مرونة اللفظ معجزة ذات بال فتعود القارىء أن يبحث عن المعنى بل لا يكفي القارىء المطلع أن يجد المعنى حتى يبحث عن وجهته ومحصله فمزية شوقي عند هذا الجيل الناشيء من القراء مزية تتخطاها العين كما تتخطى المألوف لتبحث عما وراءها .

ولهذا طفق يلقي اليهم القصيدة بعد القصيدة ولا يسمع لهارنة ذلك الصدى، وطفق أذكياء القراء يمرون بشعره الأخير قصيدة في ذيل قصيدة فيعجبون لتغيره ، اغتراراً بما كانوا سمعوه من الصيت الضخم واللقب الفخم، ويتساءلون: « ماذا أصاب شوقي » ؟ ؟ ويغالط قراؤه الاقدمون أنفسهم فيخيل اليهم أنهم كانوا يسمعون منه خيراً من هذا الشعر، وقد يعزون الاختلاف الى كلال الشيخوخة وفتور المزاج ولو كلفوا أنفسهم مؤنة المقارنة بين قديمه الذي يعجبون به على الذكرى وحديثه الذي يغصبون أنفسهم على استحسانه فلا يقدرون — لعرفوا موضع وهمهم ولعلموا أن شوقي الأمس هو شوقي اليوم ولكنهم هم الذين تغيروا .

نعم تغير جلة القراء فأصبح لايرضيهم اليوم ما كان فوق الرضى قبل ثلاثين أو عشرين سنة ،لا بل قبل عشر سنين . ولا عجب في ذلك ولافي بقائهم على احلال شوقي محله الاول مع انحدار

شعره في نظرهم. فأنهم يرون منزلة شوقي بالعادة الّتي لم تتغير منذ قدروه للمره الاولى . ولكنهم يفهمون شعره اليوم بالعقل الذي نما وترقى واتسع اطلاعه. وقد جمد شوقي في مكانه لانه جعل اطراء الناس غايته فلما بلغها لم يحس في نفسه نشاطاً للنمو. ثم لا تنس ان القارىء يرتقي في الاختيار أضعاف ما يرتقي الشاعر في الأداء والابتكار . وقلما يرتقي الشاعر بعد الأربعين فان أخصب أيام الشعر أيام الشباب. واذا ارتقى فانما يكون ذلك باحتثاث الطبع وادمان الاطلاع والتزيد من المعرفة وشوقي لم يجد من نفسه ولامن الناس داعياً إلى ابتغاء المزيد وقد علم أصحابه أن زاده من القراءة لا يتعدى كتب القصص والنوادر .

وقد أحس شوقي بالتغير من حوله فآده أن يستدركه وأعيته الزيادة في سن التقهقر فعوضها بزيادة الطنطنة كما يزاد ترويج السلعة كاما خيف عليها الكساد ولما سئل عن غرضه من قصيدته في فريد وقرىء له في نقدها مالا يحب بهت على ما سمعت وقال: تلك قصيدة أردت بها الكلام في فلسفة الموت . . .

فلننظر اذن فلسفة الموت الّتي استنبطتها حكمة شوقي .

* * *

تعود أيها القارىء الى هذه القصيدة فلا ترى فيها مما لم تسمعه من أفواه المكدين والشحاذين الا كل ماهو أخس من بضاعتهم وأبخس من فلسفتهم — كلها حكم يؤثر مثلها عن حملة الكيزان والعكاكيز اذ ينادون في الأزقة والسبل . دنيا غرور ، كله فان، الذي عند الله باق ، ياما داست جبابرة تحت التراب ، من قدم شيئاً التقاه » الخ الخ .

تلك أقوال الشحاذين وهذه أقوال (أمير) الشعراء :

كـــل حي على المنيـــة غـــاد
تتوالـــى الركاب والمـــوت حـــاد

ذهـــب الأولـــون قرناً فقرنـــاً
لـــم يـــدم حاضـــر ولم يبق باد

هـــل تـــرى منهـــم وتسمع عنهم
غيـــــر باقـــي مآثر وأيادي

الخ الخ .

وما خلا هذه العظات مما نحا فيه فيلسوف الموت منحى الابتكار ونزع فيه إلى الاستقلال بالرأي فمعناه أحط من ذلك معدناً وأقل طائلاً وأفشل مضموناً . والجيد منه لا يعدو أن يكون من حقائق التمرينات الابتدائية « كالزبيب من العنب و ٢ + ٢ = ٤ » وهلم جرا . وأكثره أتفه من هذه الطبقة ، فالقصيدة إما بيت حذفه واثباته سواء ، أو بيت حذفه أفضل ، مثل أخباره بأن جر النعش في مركبة أو حمله على الرقاب سواء .

لا وراء الجيـــاد زيـــــدت جلالا
منـــــذ كانـــــت ولا على الأجيـــاد

ومثل وصفه القبر ذلك الوصف الذي ما أحسب أحداً يمر بقبر فيذكره الا انقلب الأعتبار والهيبة في نفسه هزؤا وعبثاً . وذاك حيث يقول :

كـــل قبـــر من جانـــب القفر يبدو
علـــم الحـــق أو منـــار المعـــاد

وعلى هذا يكون تعريف القبر في جغرافية شوقي الاخروية : « انه منار يقام على جانب القفر لهداية قوافل الموتى إلى طريق الآخرة لئلا يضل أحدهم النهج أو يصطدم بصخرة في دروب الموت ! ! » ومثل تحذيره الناس من تربص الاجل بهم ايقاظاً ونياماً كأنما الموت يلتمس غرتهم ليأخذهم على سهوة .

وعلى نائم وسهران فيها أجل لا ينام بالمرصاد

ومثل تيئيسه من رجعة الميت إلى أهله وتخطئته الذين يزعمون غير هذا الزعم. يقول ذلك بلهجة العارف لما يجهله غيره كأنها مسألة خلافية طال فيها الجدل وانشطرت عليها أحزاب الفلسفة ولم يفرغ الناس يوماً من بحثها وتقليب وجوهها والتنقيب عن أسانيدها وشواهدها حتى جاء شوقي ففض الخلاف ببيتيه هذين :

ســـــر مع العمر حيث شئـــت تـــؤين
وأفقـــــد العمـــــر لا تـــؤب من رقاد

ذلك الحـــق لا الـــــذي زعـــمـــوه
في قـــــديم من الحديث معـــــــاد

ولا غرو فقد كان أهل الميت اذا مات في برلين أو لندن أو الهند لا يزالون يترجون يوم أوبته ويعدون أيام غربته ، وكان العلماء في كل قطر وبلد يتساءلون أفمن مات غريباً عن دياره أيؤب إلى أهله

يوما ناضر الصفحة متهلل الجبين ممتعاً بالعافية أو لا يؤب ؟ ؟ فكان فريق منهم يقول « نعم » وفريق يقول « بل لا » إلى أن جاء شوقي فأفتى فتواه الجازمة وقال « بل لا يؤب » فانحسم الأشكال وقطعت جهيزة كل خطيب .

قال ناقد أديب : ان الشاعر مسبوق الى هذا الحل ، سبقه اليه قائل المثل العامي « اعطني عمرا وارمني في البحر » وانه كان أسوأ منه تعبيراً وأقل ظرفاً اذ يخاطب القارىء بقوله « أفقد العمر » وذلك العامي يتلطف ان يجبه الناس بهذا الخطاب ونقول : ان توارد الخواطر معروف مسلم به من جهة ، ومن جهة أخرى فان من يتجشم لاجل الانسانية أن يغوص على هذه المسائل العويصة ويسهر الليالي في فض مغلقاتها وحل مشكلاتها لحقيق بأن يتجاوز له الناس عن حسن المخاطبة ولا يكافوه ان يؤبه لمثل هذه الهنات ! !

ولنعد الى ما كنا فيه من نقل أبيات شوقي التي لم يرد في فلسفة الشحاذين مثلها — فمن هذه الأبيات نبأ عجيب فحواه ان في العالمين نعشا واحدا تنقلهم أعواده من عهد عاد .

تستـــــريح المطـــي يوماً وهــــــذي
تنقــــل العالميــــن من عهــد عـــــاد

فان لم يكن يعني هذا ويزعم ان الأمم لا تملك منذ وجدت غير نعش واحد لنقل عليه موتاها فسبحان من يعلم مراده . وإلا فان كان يعني ان هذه الخشبة التي ينقل عليها الميت قديمة العهد تبلى وتجدد فأي شيء لا يمكن ان يقال فيه ذلك ؟ ؟ أية مطية لا تنقل العالمين من عهد عاد

كما ينقلهم النعش ، وما بال أي انسان لا يقول اليوم أو بعد مائة جيل انه ركب مركبة فرعون ونام على سرير قيصر ؟ ؟ ويقول :

كرة الأرض كم رمت صولجانـــا
وطـــوت مـــن مـــلاعـــب وجياد

شاعر عصري ولا شك ! ! ألا تراه يدين بكروية الأرض ! ؟ ولكننا نخشى أن لا يكون شوقي قد ذكر الكرة الا ليذكر بعدها الصولجان والملاعب والجياد ، بل نحن لا نخشى دلك : نحن على يقين منه ، فهل كذلك يكتبون الحقيقة الخالدة ؟ ؟ ان الحقائق الخالدة لا تتعلق بلفظ أو لغة لانها حقائق الانسانية بأسرها قديمها وحديثها عربيها وأعجميها ، وأنت اذا نقلت هذا البيت الى أية لغة لم يكن معناه الا هكذا : « هذه الغبراء أسقطت من أيدي الملوك قضبا كثيرة ودثرت ميادين لا عداد لها من ميادين السباق وأبادت خيلا لا تحصى » — فما أشبه الحكماء بالممرورين ان كانت ثرثرة كهذه تقع من نفس أحد موقع الحقيقة الخالدة .

ويقول .

تطلـــع الشمس حيث تطلع نضجا
وتنحـــــى لمنجـــل حصـــاد

تلـــك حمراء في السماء وهـــذا
أعـــوج النصـــل من مراس الجلاد

اليوم لا تخشى بغتة الأجل في كل حين ! ! فالشمس لا تضرج

بدم قتـــلاها الا حيث تطلع صبحا (أي حين تطلع حمراء وفي السماء أما أن طلعت في الأرض فهذا شيء آخر) والقمر لا يكون منجلا حصادا الا في أيام الهالة أو المحاق وفيما عدا هذه الأويقات لا قتل ولا حصاد ، فمن مات ظهرا أو عصرا أو لعشر بقين أو مضين من شهر عربي فلا تصدقوه فان موته باطل . . .

ألا أن شعرا يسف الى هذا المحال لجريرة لم يجنها على لغة العرب الا زغل الصناعة ، لاجزى الله صانعيها خيرا . جعلوا التشبيه غاية فصرفوا اليه همهم ولم يتوسلوا به الى جلاء معنى أو تقريب صورة ثم تمادوا فأوجبوا على الناظم أن يلصق بالمشبه كل صفات المشبه به كأن الأشياء فقدت علاقاتها الطبيعية وكأن الناس فقدوا قدرة الأحساس بها على ظواهرها . نظروا الى الهلال فاذا هو أعوج معقوف فطلبوا له شبها ، وهو أغنى المنظورات عن الوصف الحسي ، لانه لن يهرب يوما فنقتفي أثره ولن يضل فنسترشد بالسؤال عنه ، وان كان لابد من التشبيه فلنشبه ما يبثه في نفوسنا من حنين أو وحشة أو سكون أو ذكرى ، ففي هذا لا في رؤية الشكل تختلف النفوس باختلاف المواقف والخواطر طلبوا ذلك الشبه فقال قوم هو كالخلخال ثم رأوا أن لابد للخلخال من ساق فقالوا هو في ساق زنجية الظلام ، وجاءتهم من هذا الطريق زنجية فأحبوها وشببوا بها الى آخر ما تتدهور اليه هذه الأوهام . وأفتن قوم فقالوا هو كالمنجل ثم التمسوا له شيئاً يحصده فقال ابن المعتز .

أنظـــر الى حســن هــلال بــــدا
يهتك مـــــن أنواره الحندســـا

كمنجـــل قـــد صيـــغ من فضـــة

يحصـــــد مـــن زهـــر الدجا نرجسا

فالهـــلال منجـــل وقد صيغ من فضة وهو يحصد النجوم والنجـــوم نرجس ، ولا حصد هناك ولا محصود فماذا وراء هذا كله ؟ ؟ هذر في هذر . وجاء شوقي فقال انه منجل يحصد الأعمار فاخطأ حتى التشبيه الحسي لان الأعمار لا تحصد حين يكون القمر كالمنجل فحسب ، وأما في سائر الأيام فلا يكون القمر منجلا في شكل ولا في حقيقة . فما المراد بكلامه ؟ ؟ ومثل هذا قوله بعد ذكر كرة الأرض :

والغبـــار الذي على صفحتيهـــا

دوران الـــرحى عـــلى الأجســاد

وذلك من قول أبي العتاهية .

النـــاس فـــي غفـــلاتهـــم

ورحـــى المنيـــة تطحـــن

مثل لفناء الأعمار بالطحن ولا بأس ولا بأس بهذا التمثيل ، واقترض للطحن رحى وجعل المنية الطاحنة فبلغ حدا لا يحتمل بعده الاستطراد . فعز على شوقي الا أن يكون لهذا الطحين غبار وأن يكون الطحين كله غبارا وأن يكون الغبار هو دوران الرحى . عند هذا يركد العقل ويجم الكلام .

ولم أفهم البيتين الآتيين بعد قوله « تلك حمراء في السماء الخ »

ايـــــت شعري تعمــدا وأصــرا
أهم أعانــــــا جنــاية الميـــــلاد

كـــــذب الآزهــرات ما الأمـــــر الا
قـــــــدر رائــــــح بما شاء غــاد

يعني الشمس والنمر . فما التعمد والاصرار وما اعانة جناية الميلاد وما الفرق بينهما ؟ ؟ أيريد ان يطبق على الارهرين المادة القانونية : مادة القتل عن تعمد وسبق اصرار ؟ ؟ وفيم كذبا و كيف يكون جريان الشمس والقمر في حيث أرساتهما القدرة المحركة لهما تفيا للقدر الرائح الغادي ؟ ؟ وهل التعمد والأصرار وإعانة الميلاد الارواح القدر وعدوه بما يشاء ؟ ؟ أسئلة لا جواب عليها ولا لوم في ذلك على شاعر الانس والجن،فلعل هذه من أبياته التي صنعها لاخواننا الجن واختصهم بها دوننا .

ويقول في نعش فريد أو حقيبة الموت كما سماه :

لــــو تركتــم لها الزمام لجــاءت
وحـــــدهـــا بالشهيــد دار الرشاد

أما دار الرشاد فهي مصر كما أرادت القافية لا كما أراد شوقي ولا كما أراد التاريخ والأثر . وأما معنى البيت فيقول شوقي ان نعش فريد لو لم يمنعه ناقلوه مصر لسعي وحده الى مصر ! ! فللّه ما أقدر راثي الشموس على احالة الجليل مضحكاً والتقديس زراية : نعش يسعى وحده في البر والبحار ويجوس خلال المدائن والديار ، يعتدل وينعطف ، ويمضي ويقف ، حتى يستقر ماهما عند قبره ، جاداً لا

يأوي على شيء قبل بلوغه ، والناس متحون عن طريقه ، تاركيه يتهادى لطيته . . أفمن هذه الصور ينتزع الشعر مادة الرثاء والاجلال ؟ ؟

ما أصاب ذكرى الرجل من اجلال شوقي . أراد أن يقول كما قال البحتري :

ولـــو أن مشتــاقاً تكلف فوق ما
فـــي وسعه لسعي اليك المنبـــر

فكبا كبوة حاطمة .

ولقد طمح شوقي الى معارضة المعري في قصيدة من غرر شعره لم ينظم مثلها في لغة العرب ولا نذكر اننا اطلعنا في شعر العرب على خير منها في موضوعها . والمعري رجل تيمم هذه الحياة محراباً واحتواها غابا وصدف عنها سراباً — لا بدر منها خفايا أسرارها ، واشتف مرارة مقدارها ، وتتبع غوابر آثارها ، وحواضر أطوارها . فاذا هو نظم في فلسفة الحياة والموت كما تراءت له فذلك مجاله وتلك سبياه . وأين شوقي من هذا المقام ؟ ؟ انه رجل أرفع ما اتفق له من فرح الحياة لذة يباشرها أو تباشره وأعمق ما هبط إلى نفسه من آلامها اعراضة أمير أو كبير ، وما بمثل هذا ينظم الشاعر في فلسفة الموت والحياة .

ولكي لا يسبق الى وهم شوقي اننا نكبر قصيدة المعري تعصبا للقديم وايثاراً للعرب على العجم نلقي اليه ها هنا درسا في الشعر قد ينفعه .

فاعلم ، أيها الشاعر العظيم ، ان الشاعر من يشعر بجوهر الأشياء لامن يعددها ويحصى أشكالها وألوانها . وأن ليست مزية الشاعر أن يقول لك

عن الشيء ماذا يشبه وانما مزيته ان يقول ما هو ويكشف لك عن لبابه وصلة الحياة به . وليس هم الناس من القصيد ان يتسابقوا في أشواط البصر والسمع وانما همهم ان يتعاطفوا ويودع أحسنهم وأطبعهم في نفس اخوانه زبدة ما رآه وسمعه وخلاصة ما استطابه أو كرهه . واذا كان كذلك من التشبيه ان تذكر شيئاً أحمر ثم تذكر شيئين أو أشياء مثله في الاحمرار فما زدت عن أن ذكرت أربعة أو خمسة أشياء حمراء بدل شيء واحد ، ولكن التشبيه ان تطبع في وجدان سامعك وفكره صورة واضحة مما انصبع في ذات نفسك . وما ابتدع التشبيه لرسم الأشكال والألوان فان الناس جميعاً يرون الأشكال والألوان محسوسة بذاتها كما تراها وانما ابتدع لنقل الشعور بهذه الأشكال والألوان من نفس إلى نفس . وبقوة الشعور وتيقظه وعمقه واتساع مداه ونفاذه الى: صميم الأشياء يمتاز الشاعر عن سواه ، ولهذا لا لغيره كان كلامه مطرباً مؤثراً أو كانت النفوس تواقة الى سماعه واستيعابه لانه يزيد الحياة حياة كما تزيد المرآة النور نورا . فالمرآة تعكس على البصر ما يضيء عليها من الشعاع فتضاعف سطوعه والشعر يعكس على الوجدان ما يصفه فيزيد الموصوف وجودا ان صح هذا التعبير ، ويزيد الوجدان احساسا بوجوده وصفوة القول إن المحك الذي لا يخطىء في نقد الشعر هو ارجاعه الى مصدره : فان كان لا يرجع الى مصدر أعمق من الحواس فذلك شعر القشور والطلاء ، وإن كنت تلمح وراء الحواس شعوراً حياً ووجداناً تعود اليه المحسوسات كما تعود الأغذية الى الدم ونفحات الزهر الى عنصر العطر فذلك شعر الطبع القوي والحقيقة الجوهرية) وهناك ما هو أحقر من شعر القشور والطلاء وهو

شعر الحواس الضالة والمدارك الزائغة وما أخال غيره كلاماً أشرف منه بكم الحيوان الأعجم .

فان تبين لك ما نقول فانظر مكان قصيدتك من قصيدة المعري التي اجترأت على معارضتها .

نظر المعري الى سر الموت فلم يره في مظهره الضيق القريب ، حادثاً متكرراً تختم به حياة كل فرد . بل رآه على حقيقته الخالدة العميمة . رآه كما بدا منذ القدم لبداثه الحكماء وأصحاب الأديان ، وكما تبطنه من قبل بوذا وكنفشيوس وماني . حرباً سرمدية قائمة بين قوتين خفيفتين ميدانهما كل نفس حية وكل ذرة في طباق الأرضين وآجواز السماوات — هاتان القوتان هما الخير والشر أو هما النور والظلام أو هما الحق والباطل أوهما البقاء والفناء . لكل منهما جنود لا تغفل ، وأعوان لاتني تقبل وتدبر ولا تتمهل . والعوالم علويها وسفليها تشهد منذ كانت وقعات هذه الحرب ومساجلاتها ، ولتشهدنها اليوم وغدا ، ولتشهدنها الى ختام الزمان ان كان للزمان ختام .

نظر المعري الى العالم الأرضي فلم يكن سرير محتضر ما رأى ، ولا نحبا مقضيا ما أحس ووعي ، بل كان ذلك الميدان : ميدان البقاء والفناء قائماً في كل كيان قائم ، متقادما في كل ركن متقادم :

كـــــل بيـــت للهدم ما تبتني الـــــورق ـــــاء والســـيد الرفيـــع العمـــاد

وعلم أن القوتين اللتين هذا أثر نضالهما في الأرض فاعلتان هذا الفعل لا محالة في أشرف كواكب السماء وأسماها ، وأضوأ عوالم النور وأذكاها .

زحل أشرف الكواكب داراً
من لقاء الردى على ميعاد

ولنار المريخ من حدثان الـد
هر مطف وان علت في اتقاد

والثريا رهينة بافتراق الشمـ
ـمل حتى تعد في الأفراد

لا بل رأى الكون(١) والفساد متصاحبين متلاحقين في كل حال

واللبيب اللبيب من ليس يغتـ
ـر بكون مصيره للفساد

وكانت العبرة التي استخلصها من هذه الحقائق عبرة الواقف على مشهد من ذلك النضال السرمد ، فوق أفراح الانسان وأحزانه . ولو نطق الأبد لما تكلم بغير قوله :

غير مجد في ملتي واعتقادي
نوح باك ولا ترنم شاد

وشبيه صوت النعي اذا قيـ
ـس بصوت البشير في كل ناد

إن حزنا في ساعة الموت اضعـ
ـاف سرور في ساعة الميلاد

---

(١) الكون هنا وفي البيت مصدر كان بمعنى حالة الوجود لا بمعنى العالم .

أســـف غير نافـــع واجتهـــاد
لا يـــؤدي إلى غنـــاء اجتهاد

كذلك كان احساس المعري بسر الموت ، وهو أوسع احساس قدر لبشري أن يحسه من ذلك السر الرهيب .

أما أنت فقد نظرت فماذا رأيت ؟ ؟ لعلك أدري بما تنظر وترى ولكنا نقول لك ما لست تدريه . انك لم تر شيئاً يحتاج الناظر في رؤيته الى غير الحواس — انك تقول « لم يدم حاضر ولم يبق باد » حيث يسوي المعري بين وكر الورقاء ومعاقل العظماء وبين منازل الأرض ودارات السماء . أردت أن تعمم كما عمم ففاتك مغزى تعميمه وجئت بكلام لا لباب له ولا ترضى قشوره ، اذ ما علمنا بين الحضر والبدو من فرق في التكوين يدعو الى توهم الاختلاف بينهما في حكم الموت . وانما يقولون هذا خبر سمعه الحاضر والبادي لان أحدهما قد يسمع ما ليس يسمعه الآخر لتباعد الدار أو انقطاع الأخبار ويقولون يتسابق اليه الحاضر والبادى لمثل هذا السبب . وأما قولك يموت من في الحاضرة والبادية فكعدك الناس اسما اسما وقولك عن كل واحد انه يموت ، وعلى أنه لو صح أن يقال هذا فأي فضل فيه لغير الحواس وأي دليل فيه على اللب الحكيم والطبع القويم ؟ ؟ وتقول في القبر أنه منار المعاد .

وزمـــام الركاب مـــن كل فج
ومحـــط الرحـــال من كل واد

وهل بين واد وواد فرق في هذا الحكم ؟ ؟ وتقول

وعلـــى نائـــم وسهران منـــها
قـــدر لا ينـــام بالمرصـــاد

وهذا كذاك بل أضعف أما قولك .

لبـــد ساقه الردىء وأظـــن الذ
ـر مـــن سهمــــه على ميعــــاد

فما أحسبك تدعى فيه لنفسك أكثر من فضل السرقة .

واذا تجاوزنا هذا الباب إلى غيره وعمدنا الى مقارنة الأبيات المتشابهة في القصيدتين ألفيناك تخطىء في كل بيت تسرقه من المعري ، أو تأتي بالبهرج من حيث أتى هو بالذهب .

المعري يقول :

رب لحـــد قـــد صار لحدا مرارا
ضـــاحك مـــن تـــزاحـــم الأضداد

ودفيـــن على بقـــايا دفيـــن
فـــي طـــويل الأزمـــان والآبـــاد

وليس أجل ولا أصدق من هذا الشعر . وأن تعبيره عن تعاقب الدفين بعد الدفين في الموضع الواحد بتزاحم الأضداد وقوله أن اللحد يعجب ويضحك من هذا الزحام لأبلغ ما ينطق به اللسان في وصف تهكم الموت بالأحياء وعبث التزاحم على الحياة . ويسلط الله عليك نفسك فتسول لك أن تحاكي هذه المعجزة البيانية بقولك .

هل تـــرى كالتـــراب أحسن عدلا
وقيـــاما على حقـــوق العباد

نـــزل الأقوياء فيـــه على الضعـ
فى وحـــل المـــلوك بالزهاد

صفحـــــات نقيـــة كقلوب الر
سل مغسولة مـــن الأحقـــاد

التراب ينصف العباد ويصون حقوقهم أحسن صيانة لانه يبيدهم جميعاً ! ! فبحقك ياهذا كيف يكون تضييع الحقوق ؟ ؟ وما الذي لقيه أضعف العباد من أقواهم وأظلمهم أشد من هذا الأنصاف والصيانة ؟ ؟ ويخيل اليك أنك أبدعت حين قلت أن الملوك يستضيفون الزهاد في في التراب ، وهذا من فضائل الموت ! ! ، فهل تعني أن الزهاد لا يستضيفون الملوك فيه على السواء ؟ ؟ فان كنت لا تعني ذلك فقد قلت ما تعلم انه خطأ وقلته لغير غرض — أما المعري فقد أحاط بهذا المعنى فلم يخسر شيئاً من الصدق أو بلاغة الأسلوب حين قال .

وعــــزيز علــى خلــط الليالي
رم أقـــدامكـم برم الهــوادي

وهذه هي البلاغة الجادة التي لا لعب فيها .

وعندك ان طهارة القلب هي موته . فاذا خمدت نفس الميت صار قلبه نقياً مغسولا كقلوب الرسل . أفليس من موت القلب أن لا تزال تلهج بذكر الرسل حتى جعلتهم موتي القلوب ؟ ؟

يقول المعري .

خفــف الوطء ما أظــن أديـم الأر
رض الا مــن هــذه الأجــساد

وأنـــت تقول :

والغبار الـــذي على صفحتيـــها
دوران الــرحــى علــى الأجــساد

المعري يسأل :

أبكـــت تلــكم الحمامة أم غنـت
علـــى فـــرع غصنـــها المياد

وأنـت تأبـى أن لا تكون لقصيدتك حمامة تغني وتبكي فتقول .

ضـــاق عن ثكلها البكـــى فتغنت
رب ثكـــل سمعتـه من شـــاد

ثم يروقك وأنت تبارى المعري مباراة المضحكين ان تزعم لناجيتك ولنفسك انك نظمت في فلسفة الموت وبذذت شيخ المعرة في آية من آياته ! !

على انك قد تعذر بعض العذر في قصرك من هذه الناحية لانك مجبر فيه لا مخير . أما الأمر الذي لا نعلم لك منه عذرا فأن ترثي رجلا كفريد بقصيدة لا يرد فيها اسمه ولا سيرته الا عرضا ، وان لا يخرج تأبينك له عما قد يرثي به فرد من غمار الناس . ولو كان ذاك لضيق في مضطرب القول أو لنقص في بواعث الأسى على الرجل لما خفي تعليله ولكنك تعلم كما نعلم أن مصر الحديثة لم تنجب من دعاتها رجلا لقي في حياته وموته مما يستثير دفائن الحزن ويطيل مدد الرثاء بعض ما لقيه فريد . فتهاونك في قضاء حقه وتوفية قدره لا يكون الا لعجز أو كنود . فان لم يكن هذا ولا ذاك فلأحنة لا تزال تغلي في نفسك على الرجل بعد موته : وأنت بأسبابها أعلم .

* * *

رثاء عثمان غالب

من فساد الذوق أن يقصد المرء المدح فيقذع في الهجاء ، أو ينوي الذم فيأتي بما ليس يفهم منه غير الثناء . وأشد من ذلك ايغالا في سقم الذوق وتغلغلا في رداءة الطبع شاعر يهزل من حيث أراد البكاء ، وتخفي عليه مظان الضحك وهو في موقف التأبين والرثاء ، والعبرة بالفناء :

ولست أدري أي ماجن من نظامينا قال هذا البيت في رثاء أحدى القيان :

رحمـــة العود والكمنـــجا عليـــها
وصـــلاة المـــزمار والقانـــون

ولكن لا ريب ان قائلة ، مهما سمج منه الهذر في مثل هذا الموقف، أو عيب عليه سوء الظن بفن الغناء واقدار ذويه أسلم ذوقا في بيته هذا من شوقي في رثائه لعثمان غالب : لانه تعمد الهزل فقاله وما كان شوقي كذلك حين رثي ذلك العالم الجليل بمثل هذا الهراء :

ضجـــت لمصـــرع غالـــب
في الأرضـــ (مملكـــة النبات)

أمســت (بتبجـــان) عليـــ
ـه مـــن الحـــداد منكســـات

قامـــت على (ســاق) لغيــــبته وأقعـــدت الجهات ! ! !

فـــي مــأتم تلقــى الطبيـــعة فيـــه بيــن النائحـــات

وتـــرى (نجــوم الأرض) مـــن جـــزع مـــوائـد كاسفـــات

والـــزهر فـــي أكمـــامـــه يبـــكي بـــدمع الغـــاديات

جبــــست أقاحـــيُّ الربـــى والمـــهد فيـــها مومضـــات ! !

وشقـــائـــق النعمـــــان آ بـــت بالخـــدود مخمشـــات

بل مما لا مراء فيه أن صاحب هذا الرثاء قد صدق نية الرثاء وبر بوعده لنفسه واغتبط بما دب عليه من المعاني الدقيقة والنكات الأنيقة . . . لانه استطاع ان يذكر الزهر بمناسبة ولو في غير موضعها ، ولعمري كيف يكون شاعرا من لا يذكر الزهر أو الثمر كما يذكر العابد الله والعاشق ليلاه : يذكرهما في غضبه ورضاه ، وفي لهوه وبلواه ، وفي فرحة وبكاه ، وفي غيظه وهواه ، وفي يقظته وكراه — ويذكرهما حين يصف الصحراء القاحلة ، وحين يتمثل المدينة الآهلة ، وحين يروي عن النعمة السابغة أو يتحدث بالمصيبة القاتلة والمنية العاجلة : وكيف يكون مطبوعا على الفن ، مدلها بفتن الجمال من اذا وصف

الجثة الجاثلة ، لم يقل انها صفراء كالاقحوانة .. أو المتميز من الحنق يحسب انه يتفلق كما تتفلق الرمانة ، أو المتدلي من المشنقة لم ير انه يهتز اهتزاز البانة ، أو قطع الرقاب والعياذ بالله لم يشبهه بقطف الريحانة !
وشوقي لم يوف هذا الغرض فحسب بل أرانا أن الأزهار لا تجري على سنن المجاملة في النواح ، فعل النساء ، وانما تحزن على من هي غرس يده وجني معرفته ونبت نعمته ورعايته . فلو فجعت البلاد مثلا بموت عالم من علماء المعادن لماسمح لزهر واحدة ان تذيل دمعة أسفاًلفرقته وانما كان لايضيق به الخيال الفسيحوالذوق المليح فكان يجعل اسوداد الفحم حدادا عليه ، وصلابة الحديد جموداً لهول المصيبة فيه .
وكان يجعل اصفرار الذهب وجلا ، واحمرار النحاس احتقاناً ، ولين القصدير ذوبانا ، إلى آخر ما هنا لك من الوان العذاب التي تلم بالمعادن الصلاب — ولو كانت النكبة في عالم « جيولوجي » لما قال شيئاً من ذلك بل كان يقول (مثلا) ان الطبقة الرملية في ناحية كذا تحثو التراب على رأسها فزعا ورعبا ، وان الطبقة الجيرية في موضع كذا تختنق من ثقل الوطأة عليها ، وان هذه الطبقة أو تلك ساخت بها الأرض أو تزلزل بها الكمد وناهيك ما كان يقوله نفذ القضاء في شاعر جليل فانه أبقاه الله لن يقنع بأقل من الحاق الزحاف والإقواء والخبن والسناد وسائر علل العروض والقافية بكل قصيدة قيلت أو تقال من يوم خلق الله الشعر الى يوم يبعثه من القبر الذي ألحده فيه الشعراء الكذبة والنظامون ، وأي تفسير أو تأويل كنت لا تسمعه من الشاعر الندابة في صهيل الخيل ونهيق الحمير ومواء القطط وعواء الكلاب ونقيق الضفادع لو كان العالم المفقود من علماء الحيوان لا من علماء النبات أو صاغة الكلام ؟ ؟

هذا ما نسأل الله اللطف فيه فاننا ان احتملنا حداد الألوان والأشكال فان نطيق الصبر على حداد الأصوات والأقوال .

ولكن وا أسفاه ! ! لابد من التضحية ، لا بد من الفقدان والخسارة في هذه الدنيا الفانية ! ! وليس من السهل ان يقول الانسان ان الأشجار قامت على « ساق » واقعدت الجهات الست التي ما برحت قاعدة في مكانها منذ الأزل ولا من الهين ان يحشر الطبيعة « لا اكثر » في مأتم تكون فيه احدى النائحات «فقط» ولا من اللعب ان يصل في كل ساعة الى ابكاء الرياحين والأزهار والمعادن والأحجار — ولا سيما النفيسة منها — كلا ليس ذلك بالقول الهزل ولا بالمركب السهلُ ، ولكي يقول الرجل الفاني منا هذا القول ويهبط الى قرار هذه المعاني العميقة ، لا غنى له عن التضحية بالذوق السليم والوصف الصادق والتخيل الصحيح والشعر الجدي والشعور القوي ، وهذه كلها ضحى بها شوقي على مذبح فنه فما تأوه ولا صرخ ولا لمح الناظر على وجهه امتعاصة حزن أو مسحة أسى . نعم كل ذلك ضحى به شوقي ولا مبالاة . . . تقول ولكنه مع ذلك كان سخيفاً غثاً صعيف الملكة مشنوء السليقة . . . ونقول هذا صحيح ولكنه قال ما أراد أن يقول وتمنن وروى . أجل ! ! انه لم يرث ذلك الرثاء المكشوف المفتوح الذي يرتبه أولئك السذج البلهاء ، الذين يحسبون ان الاخصائيين اذا ماتوا فجعوا أحدا غير المواد التي تفرغوا لدرسها وتوفروا على البحث فيها ، والذين اذا أودى أحد أولئك الاخصائيين أسفوا ووصفوا أسفهم هم عليه (مباشرة) ولم يتخلوا عن مهمة الحزن ليلقوها على عاتق الزهر تارة وعلى غارب

السحاب تارة أخرى ، أو يكلوها إلى الطبيعة كلها بارضها وسمائها وأمواتها وأحيائها ويجعلوا النفس الانسانية أو نفس المصاب بالبلية ، آخر من يحس في هذا الكون بفقد عزيز ! !

ولقد كنا نود أن نقف عند هذا الحد في الابانة عن براعة شوقي وافتنانه ، والاشادة بخلابنه وبيانه . لولا أننا آثرنا ان لا يفوتنا سؤاله عن أنواع من النبات لم يسمها في تلك المناحة التي أقامها – ماذا كان من شأن القطن بأصنافه وماذا صنع القمح والشعير بل ماذا صنع البصل والكراث والملوخية والقثاء في ذلك المأتم العميم الذي كانت الطبيعة فيه احدى النائحات « فقط » ؟ ؟ انه سكت عن هذه الأنواع وغيرها فهل ذاك لانها لم تكن من اتباع النباتي الكبير أم لان من خواص تلك الأنواع التي يعملها الشعراء ويجهلها النباتيون أنها مضيعة للعهد ناكرة للجميل ؟ ؟ أم لعلها لا تنتمي الى عالم النبات وان ردها الناس اليه ، كالمرجان يحسبه قوم نباتا ويحسبه آخرون جمادا وهو من عالم الحيوان ؟ ؟ أم هو الصدق في الخبر والأمانة في التبليغ أوحيا اليه ما قال فذكر فريقا وسكت عن فريق : رأى الرجل الاقاحي باهتة ذابلة على غير عهدها وأبصر شقائق النعمان تخمش خدودها فابرأ ذمته وأدى أمانته ، ولم ير القطن ولا القمح ولا سواهما يصنع شيئاً فربأ بشعره عن شهادة الزور والتخرص وسجل عليها ما سجل من جمود الطبائع وقسوة القلوب ؟ ؟ تلك أسئلة ما كنا نسألها لولا أهميتها وخطورتها ولولا أننا تعلمنا مذ الآن ان نرقب أعين كل جامد ونابت وحي ، حاشا الانسان ، تعرفا لجلائل الأنباء واستطلاعا لخفايا الحوادث قبل أن تنبض بها أوتار البرق ويطير بها

النجابون ، ولولا أننا عرفنا ماذا ينبغي ان تحذر الأمة من موت الاخصائيين من رجالاتها ،وأنها مسئولة ان تضن بارواحهم مخافة ان تمتقع نرجسة أو تسود فحمة . . .

انتقل شوقي من رثاء العالم النباتي الى رثاء العالم الطبيب فقال مفصلا مقسما :

أمـــا مصـاب الطـب فيـــه فسـل بـه مـلأ الاسـاة
أودى الحمـــام بشيخهـــم ومـــآبـهم في المعضلات
ملقـــي الدروس المسفـــرا ت عـن الغروض المثمـرات

والقارىء يرى انه لم ينح نحوه الاول . وما كان ذلك بلا ريب استهجانا له أو توبة عنه وانما خانته القريحة وخذله الاختراع . والا فماذا كان يمنعه أن يقول فلا يخرج عن تلك الوتيرة — مثل هذه الأبيات .

ضـربت لمصـرع غالـــب فـــي الأرض رســـل الحميات
قـــد مات (غالـــب) جنـدها فتمـــردت بعـــد (الممـــات)
أمســـت جراثيم المـــلا ريـــا مـن سرور (ظاهرات)

وتفــــرق التيفـــــوس والـ
تيفـــــفود في كــل الجهـــــات

وتألـــب المكــــروب والـــ
بكتيــــريـــا بعـــد الشتات

وبكـــــت قواريـــــر الصيـــا
دل بالـــــدموع السائـــــلات

فهذه أبيات ليس لنا من فضل فيها سوى فضل التقليد للشاعر المجيد . ومن لم يعجبه تقليدنا فليقل لنا فيم أخطأنا المحاكاة وخالفنا الاحتذاء ونددنا عن القياس ولكأننا بصاحب « الامتياز » الأصلي يعض بنانه ندما على فوات هذه التتمة الصالحة فأنه ليس أغص للنفس من فرصة يلوح لها تأتيها بعد معالجتها واليأس منها . . . . .

كذلك يؤبنون يامن خلقتهم فكيف تراهم يتهكمون ؟ ؟ وأما والله لو توخي هذا الذي شمر لتأبين عثمان غالب أن يمازح الرجل بكلام يعرض له فيه بعمله وصناعته مسترسلا في الدعابة مستهترا بالمجون متبسطا في الفكاهة لما استطاع أن يضرب على أوقع من هذه النغمة . فليت شعري بأي ذوق مزج بين هذين الشعورين المتباعدين تباعد القطبين ؟ ؟ أبذوق الشاعر المفطور الذي يفرق بين شبهات السرائر وهجسات الضمائر والذي لا تدق عنه أخفت همسات العواطف ولا تلتبس عليه أخفى ألوانها ؟ ؟ يقولون أن اذن الموسيقي المطبوع تميز بين ثلاثة آلاف نبرة مختلفة ولو قلنا أن فطرة الشاعر ينبغي أن تميز بين ثلاثة آلاف خطرة من خطرات الاحساس المتوشجة المتنوعة لما أخطأنا فما ظنك بأمير شعراء

لا يميز بين احساسين اثنين صخمين لا يشتبهان ولا يتقابلان ولا يجتمعان أحدهما لا تحسه النفس الا في أبهج ساعات الحياة : ساعة التبسط والانشراح : والثاني انما يخامرها في أقدس مواقف الموت وأجلها : موقف تمجيد العظيم الراحل والعظة بسيرته . . ! ! ألا هكذا فليمت الاحساس النبيل الصادق والا فلا موت بل نحن في دار الخلود .

مه ! مه ! أن من السخف لما تعافه الجبلة وتتقزز منه النفس تقززها من الشناعات الجسدية . وهذا السخف الذي تمونا بلاده الأغبياء بالتحرك لانتقاده أشنع هذا النوع وأقذره لانه كالورم الذي يخيل الى الغر من احمراره ولمعانه أنه ماء الحسن ورونق الصبا فيهوى اليه يقبله ويرمقه ، وحسب الطبع تقززاً أن يرى الدمامل مقبلة مرموقة .

ومن نظر إلى عشرة ممسوخين في بقعة واحدة فاشمأزت نفسه من رؤية عاهاتهم ومقادرهم خليق أن يدرك اشمئزازناً حين ننظر فنرى حولنا العشرات والمئات من ذوي العاهات النفسية البارزة يستحسنون مثل هذا الشعر على غثاثته وعواره بل هو لايروقهم الا لما فيه من غثاثة وعوار — خلائق كل ما نستطيع أن نعلل به هذا الاعوجاج في طبائعها وأذواقها أنها تالفت لفرط ما أخلدت إلى الكسل والضعة وتلوثت لحقارة المشاغل التي بقي لها أن تعني بها وتكترث لها ونغلت لشدة ما توالى عليها من عنت الدهر ودل الحوادث والحاح الاحساس الدائم بالضعف والجبن حتى أعقبها هذا البلاء اللازب شر ما تمنى به نفس بشرية : أعقبها العجز عن احتمال الجد والتمادي في الهزل واللجاج في السلوى الكاذبة حتى صارت المغالطة والالتواء والهرب من

الحقائق ديدناً لها بل كادت تكون خلقاً ثابتاً فيها . وساء فهمهم للذوق السليم فأصبح جهد الذوق في زعمهم التصنع والاسترخاء وتخنث الترف المؤنث ، وما كان اللين والترطب قط عنواناً على ارتقاء الذوق الانساني وحسن استعداده وانماهما نقيض هذا الذوق وأقرب إلى الوحشية منهما إلى الانسانية — ألا ترى إلى الرومان كيف كانوا يتلهون بتعذيب الآدميين : يطرحونهم للسباع الجائعة تمزق لحومهم وتنهش أحشاءهم وتقضم عظامهم وتلغ في دمائهم وهم يسمعون أنينهم ويتلذذون بأوجاعهم كأنهم تلك السباع الضارية تتلذذ بما تأكل وما تشرب ؟ ! فاذا تذكرت ذلك فاذكر كيف كان الرومان في ذلك العهد ! ! كانوا في عهدهم الذي بلغوا فيه من الترف ونعومة الاخلاق ما لم يروه الراوون عن أمة قبلهم ولابعدهم .

* * *

(وبعد) فكأنما فرغ صاحبنا من التدليل على فساد الذوق فانتقل إلى عيب آخر من عيوبه يرفيه قسطه من الدلائل والعلامات . ألا وهو الاحالة وعقم الفكر . بيد أنه توفق هذه المرة إلى اثبات هذا العيب بفرد بيت فقال :

عثمان قم تر آية
الله أحيا الموميات

يأمر الشاعر المرثي أن يقوم من الموت . ولماذا ؟ ؟ ليرى آية . . . فيحسب السامع أن الآية التي سيراها الدفين بعد بعثه أعجب وأخرق لنواميس الكون من رد الميت إلى الحياة ، ولكنه لايتم البيت حتى يعلم أن الاعجوبة التي يبعث الدفين من قبره ليعجب منها هي النظر إلى

ميت يبعث . . . فهل سمعتم في العي والاحالة ما هو أحمق من هذا اللغط الفارغ الخاوي ؟ ؟ أليس هذا كايقاظ النائم « ليتفرج » على نائم يتيقظ ،وكحمل المقعد إلى أوروبا أو أمريكا ليمتع الطرف بالنظر إلى مقعد يعرض في المسارح للمتعجبين ؟ ؟ وعلى أن بعث العلامة المدرج في أكفانه أغرب وأشد استحالة من بعث الموميات التي يعنيها شوقي لان موت الامم مجازى لاتستغرب الرجعة منه وموت الافراد حقيقي لارجعة منه في هذه الدنيا . وعدا هذا فان كان القصد من بعث الاستاذ غالب أن يرى « الموميات » تحيا فقد شهد الرجل هذه المعجزة وحضر عهدها قبل موته بأشهر فلا حاجة إلى قلب نظام الكون وازعاجه في ضريحه ، لاشيء الا أن يرى المعجزة التي قد رآها . . . وبعد فليذكر شوقي أن الذين يدعوهم بالموميات هم أولئك الذين نفق بينهم شعره. ونفذت فيهم دسائسه وجاز عليهم احتياله على الشهرة، فأن كان هو شاعر آلاحد فهو شاعر الموميات، وان كان لشهرته حد فهو اليوم الذي يقال فيه عن تلك الموميات .

خرجت بنين من الثرى
وتحركت منه بنات

ثم ما هذا الولع من شاعر « الموميات » باقامة الاموات ؟ ! فهو ينادي عثمان « قم تر آية » ويصيح بسليمان « قم ببساط الريح قام » ويهتف بالاستاذ الامام شامتاً « قم اليوم فسر للورى آية الموت » ويقول للشهيد فريد « قم ان اسطعت في سريرك » وغير ذلك مما لا نحصره ولانود أن نحصره . . أفلم يكفيه قيام الاحياء حتى يقوم له كل من في التراب ! ! !

ولم ينس شوقي براعة المقطع فختم القصيدة بأليق بيتين يتممان ما فيها من خطل الادراك وضلال الحس ، وهذان بيتا الختام .

الفكــــر جـــاء رســـولــــه
فأتى بأحـــدى المعجـــزات

عيســـى الشعـــور اذا مشـــى
رد الشعـــوب إلى الحيـــاة

ففي كل مختصر من عجالات علم النفس يكاد يبدأ المؤلف بالفرق بين الفكر والشعور ويكاد يضع كلا منهما بالموضع المقابل للآخر . وقد ألم العامة بداهة بهذه الحقيقة فتسمع منهم من يقول احياناً . « ليست هذه مسألة عقل . هذه مسألة احساس » أو ما في معنى ذلك . ولكن شاعر العامة لايفطن إلى هذا الفرق فيجعل الفكر والشعور شيئاً واحداً ثم يعكس الآية فيقول ان الشعور يرد الحياة وكلنا يعلم أن الحياة هي التي تنشىء الشعور ولا بدع فان من لايفكر الا سهواً ولايشعر الا لهواً ولايمارس أسرار الحياة وقضاياها الغامضة الا عفواً لجري أن يجهل الفرق بين التفكير والاحساس كما جهل الفرق بين مقام السخرية ومقام التعزية ..

* * *

استقبال اعضاء الوفد

قصيدة أوجز ما توصف به أنها نكسة أدبرت بقائلها ثمانية قرون وكان فيها مقلداً للمقلدين في استهلاله وغزله ومعانيه .

مثّل لنفسك أيها القارىء شاعراً من شعراء الغرب هبط مصر مستطلعاً أول عهده بها وبنهضتها الحديثة ، فذهب يرود أكنافها ويتحرى عجائبها ويستكنه شوقي فأسمعه أن ها هنا شاعراً يدعونه أمير الشعراء ، ثم جعل لايذكر له من الالقاب الا لقباً مزدوجاً ، فهو اما شاعر الشرق والغرب أو شاعر الارض والسماء أو شاعر الانس والجن أو شاعر الاقدمين والمحدثين أو شاعر الدولتين والعهدين والقرنين — إلى أشباه هذه الالقاب ، هذا والرجل يستمع ويعجب أن يتفق ذلك لأحد كائناً من كان في العالمين . وقد تعلم أيها القارىء أن أذكياء الغربيين وخاصتهم لايألفون الاطناب والتهويل ، وانهم يقدرون إعجابهم ويزنون كلماتهم ، فهم يستكثرون على شاعر كشكسبير أن يدعى شاعر الاقدمين والمحدثين عندهم بله الانس والجن والارض والسماء ، وان كان لأحق من يدعى كذلك ، ويكبرون أن يلقب دانتي أو هوجو أو جيتي بشاعر أوربا وان كان لكلهم من شيوع صيته وقدم أيامه وكثرة المعجبين به وتداول طبعات كتبه مسوغ لهذا اللقب . يجب أن يرى كيف يكون التعبير عن النفس المصرية

وأن يعرف المعاني والمثل العليا والخيالات التي اذا نطق بها الشاعر وجد في مصر من يمنحه تلك الاوصاف المستحيلة ، وأن يستوضح من ذلك كله مبلغ ما تنطوي عليه نهضة البلد من اليقظة الروحية والتقدم الاجتماعي فيرجو محدثه أن يترجم له قصيدة حديثة من شعر شاعره ، وتكون هي قصيدته في استقبال أعضاء الوفد .

يبدأ صاحبنا معجباً فيقول : « تحول بقلبك عن طريق وانج من جماعة الظباء السائرة في الرمل ومن جماعة الظباء .. » وهو ترجمة قول شوقي :

أثن عنــان القـلب واسلم بـــه

مـن ربرب الرمـل ومـن سـر بـه

فيصفح الرجل عن التكرار ظاناً أنه من مقتضيات التنبيه والتحذير كما يقال « النار ! النار » و « الحصان ! الحصان » الا انه يتوهم أن فصائل الظباء والأيائل والوعول تفتك بالناس وتخيفهم في هذا الجانب من الارض فيتقونها ويهربون منها لضراوتها وعرامها . ويود لو يرى هذه الاوابد الافريقية فما هو الا أن يسأل صاحبه في ذلك فاذا الجواب حاضر يلقي اليه بابتسامة الاستاذ لتلميذه الجهول : « كلا : كلا : ليس في بلادنا ظباء مخيفة ولا أليفة — ما إلى هذا قصد شاعرنا . وانما هو يعني النساء »

نساء وما شأن النساء بهذا الحيوان ؟ ؟ يسأل الرجل مستغرباً فلا تتغير ابتسامة صاحبه المترجم ويجيبه : « نعم نساء . فاننا نشبه المرأة بالظبية اقتداء بالعرب ، فقد كانت تعجبهم عين الظبية الكحلاء فكانوا يشبهون بها عيون النساء ومن ثم صارت المرأة ظبية . »

نقول : ولا يبعد أن يرتضي الشاعر الغربي هذا التشبيه على أنه منقول عن العرب وربما قال بشيء من التهكم : « حسن تشبيهكم هذا ولكني لاأدري لم ينقل شاعركم ومال الصحراء مع العيون الكحلاء ، ولم تكون شوارع مصر تلولا ان كان لابد أن تكون حسانها ظباء ووعولا ؟ ؟ » ثم يغمغم كأنما يخاطب نفسه . « اذن فصاحبكم عاشق يتغنى ! »

وما أشد ما تكون دهشته اذ يقول له محدثه وقد زم شفتيه ومد عنقه كمن لايرى داعياً لذلك الافتراض : « ولماذا ؟ ؟ ان الشاعر ليتغزل على سنة مرسومة سنة وضعها الفحول من الشعراء الاقدمين »

فيفاجأ الرجل ويجد أنه قد أحال غير قليل على تباين الامزجة والمذاهب بين الشرق والغرب ، فهل يطلب منه أيضاً أن يحيل التقليد في الغزل على اختلاف الخلقة وتفاوت التركيب ؟ ؟ ولئن صح ما ترجم له ولم يداخله شك في نهضة الامة ليكون اذن بين فرضين اثنين ليس واحد منهما بجائز في العقول : فأما ان الشرقيين ركبت قلوبهم وأشرجت شهواتهم بحيث اذا أحب السلف العربي أتى الخلف المصري متغزلاً بعد عدة قرون . . ، وهو مستحيل . وأما ان هؤلاء الشرقيين يعيشون في ابان نهضاتهم الاجتماعية بقلبين فينهض أحدهما ويحيا ويموت الآخر حتى ما يحس أقوى خوالج النفس وأعنفها وهي غريزة العشق الجنسي . وما خلق الله لامرىء من قلبين في جوف واحد .

على انه يجنح الى حسن الظن ويخيل اليه انه أخذ يفهم بعض الفهم ويقول لمترجمه : « أخالني قد فهمت . فلعل شاعركم وضع القصيدة

على سبيل المحاكاة المقصودة كما يصنع بعض شعرائنا » فلا يفهم المترجم مراده ، فيقول له مفسراً : « ان الغربيين كما يتسلون أحياناً بلبس ملابس الرومان واليونان الأقدمين أو يتزيون بزي الفرس والهنود، كذلك يخطر للشعراء عندهم ان يتسلوا باحتذاء أسلوب الشعراء من الأمم النازحة والأجيال الغابرة . رياضة وتفكها لاجداً والتزاما . وهذا الاحتذاء عندهم لا يعد من جيد المقاصد ولا من جوهر الشعر وغاية ما فيه انه رياضة مقبولة » .

فيفغر المسكين فاه تحيرا مما يدخل على ذهنه من كلمات يحسبها احاجي والغازا . ويظن انه يذب عن شاعره المزدوج الألقاب حين يسرع فيبرئه من تعمد التقليد والهزل فيخبر الشاعر الغريب بالغرض من نظم القصيدة وان قائلها لم ينظمها محاكيا ولا مستريضا وانما نظمها في مستقبل أمة ناهضة . . وتحية لزعمائها . .

الى هنا ينتهي العجب باليقين — فان كان الرجل قد ارتضى التقليد في التشبيه والغزل واغتفر نقض المدينة العامرة يبابا وقلب الشوارع الممهدة هضابا ، فمن وراء عقله ان يرتضى استهلال الكلام في نهضات الأمم بالغزل صادقا كان أو مستعارا ، وان يفهم الابتداء بوصف محاسن النساء واطراء العيون الكحلاء ، تمهيداً للثناء على مآثر العظماء ومناقب الزعماء ، وان يئن ويتوجع ، في حيث يفخر ويترفع ، وان يوائم بين موقف الوجد والصبابة ، وموقف النصح والاهابة ، فذلك مالا يقبله تفكيره ولا يذهب اليه تخمينه ، وان أعوزته دلائل الحكم على منحى أفكارنا وقيمة آدابنا ومدارج نفوسنا فكفى بما سمع برهانا يحكم

به كيفما شاء ولا يتحرج أن يظلم أو يتجانف ، ثم لا يكون بعد ذلك الا معذورا .

* * *

ونحن لم نمثل في الحديث المتقدم بشاعر غربي لان فهم هذه البسائط وقف على الغربيين ولكن ليسهل على الذين تغيب عنهم بساطتها ان يفهموا على أي وجه تلوح غثاثات التقليد لمن خلصت عقولهم من سلطان تكرارها وجريانها مجرى القواعد المصطلح عليها . والا فأي انسان تجرد . من الانخداع بالتكرار وخلع ربقة التقليد لايشعر لاول وهلة بالخلط الشائن في هذا الضرب من الشعر ؟ ؟ ما الشعر الا كلام فان كانت له ميزة على الكلام المبتذل فميزته أنه أجمل وأبلغ وأحسن وضعاً للمعاني في مناسباتها . فهل يتكلم الرجل في السوق والبيت فيتحرز من الخلط بين تصنع الوجد والهيام وتقدير الحوادث الجسام ، حتى اذا تهيأ للشعر لم يخجل أن يخلط في قصيدة واحدة بين أبعد موضوعين عن الانتظام في نسق واحد ؟ ؟ فلو انه كان صادقاً في عشقه لقبح منه ذلك بين ندمائه وسجرائه ، دع عنك قبح اذاعته بين الملأ ، فكيف به وهو متصنع لا يعشق بغير اللسان ! !

* * *

لقد كان الرجل من الجاهلية يقضي حياته على سفر : لا يقيم الا على نية الرحيل ولا يزال العمر بين تخييم وتحميل . بين نؤي تهيج ذكراه ، ومعاهد صبوة تذكي هواه ، هجيراه كلما راح أو غدا حبيبة يحن إلى لقائها أو صاحبة يترنم بموقف وداعها . فاذا راح ينظم الشعر

في الأغراض التي من أجلها يتابع النوى ويحتمل المشقة ثم تقدم بين يدي ذلك بالنسيب والتشبيب فقد جرى لسانه بعفو السليقة لا خلط فيه ولا بهتان .

ولما تعود شعراء العرب التكسب بشعرهم صاروا يخرجون من جوف الصحراء إلى ملوك الحيرة وغسان وفارس وينتجعون الأمراء والأجواد في أقاصي بقاع الجزيرة يحملون اليهم المدائح يبدأونها أحياناً بوصف ما تجشموه في سبيل الممدوح من فراق الأحبة وألم الشوق وطول الشقة وأحياناً كانوا يصفون الناقة التي تقلهم وخفة سيرها وصبرها على الظمأ والطوى ومواصلتها الليل بالنهار سعياً إلى الممدوح كناية عن الشوق إلى لقائه ، وكان الغرض في الحالتين واحدا وهو تعظيم شأنه وتكبير الأمل في مثوبته ؛ فكان الابتداء بالغزل ووصف المطي في قصائد نظمت في المديح وما شاكله من أغراض حياتهم المتشابهة لا يعد من باب اللغو والتقليد .

ثم نشأت الصناعة فيمن نشأ بعد هؤلاء . ومن عادة الصانع أن يحتاج إلى النموذج والاستاذ فأقاموا المتقدمين أساتذة واتخذوا طرائقهم نماذج لا يبدلون فيها ، وكان شعراء البادية لا يزالون يفدون على الأمصار فينهجون نهج أسلافهم مطبوعين أو مقتدين فكان يختلط المطبوع بالمصنوع في هذا العهد ويتقاربان حتى لا ينتبه الادباء الى الفرق بينهما . ومن شعراء الحضر من تقدم تقدماً حسناً فنعى على المتقدمين بكاء الدمن والطاول وأفرد كثيراً من الغزل في قصائد قائمة بذاتها وأشهر هؤلاء أبو نواس . ومنهم من كان يفتتح مدائحه بالنسيب ويتجنب

ذلك في العظائم كما صنع أبو تمام في بائيته المشهورة التي مدح بها المعتصم بعد فتح عمورية . وفي رائيته التي أولها :

الحـــق أبلـــج والسيوف عوار
فحـــذار من أسد العرين حـذار

وكما صنع المتنبي حين مدح سيف الدولة وذكر نهوضه الى الروم فقال مفتتحاً .

ذي المعـــالي فليعلـــون من تعالى
هكـــذا هكـــذا والا فـــلالا

حـــال أعـــدائنـــا عظيم وسيف الد
ولـــة ابن السيـــوف أعظـــم حالا

ومضى فيها كلها على هذا النمط . وكذلك حين مدحه عند انصرافه من أرض الروم فاستهل قصيدته بالبيت السيار :

الرأي قبـــل شجاعـــة الشجعان
هـــو أول وهـــي المحـــل الثاني

وكما صنع الشريف واضرابه في كثير من قصائد المدح والفخر على إختلاف مناسباتها . ولكن فسدت السلائق وجمدت القرائح وقل الابتكار أو انعدم ونشأ من شعراء الحضر جيل كان أحدهم يقصد الامير في المدينة وانه لعلى خطوات من داره فكأنما قدم عليه من تخوم الصين لكثرة مايذكر من الفلوات التي اجتازها والمطايا التي أنضاها وحقوق الصبابة التي قضاها . وكان الواحد من هؤلاء يزج بغزله في

مطلع كل قصيدة حتى في الكوارث المدلهمة والجوائح الطامة . هؤلاء المقلدون الجامدون . والآن وقد بادت الطلول والقصور ونسخت آية المديح بمطالعه ومقاطعه وتفتحت للقول أبواب لم تخطر لاحد من المتقدمين على بال .. يجيء شوقي فيتماجن ويتصابى في مطالع قصيدة ينظر بها مستقبل أمة ويقول فيها :

قــد صارت الحــال إلى جدهــا
وانتبــه الغافــل مــن لعبــه

ويجيء أناس ممن طمس الله على بصائرهم فيقولون عن هذا المقلد للمقلدين الجامدين انه مجدد وأنه عصري بل أنه شاعر العصر .

وهل تعلم ما الغزل الذي استحل لاجله اتيان هذه المجانة والعبث ؟ فقد يكون له عذر الاجادة لو كان مبتدعاً فيه أقل ابتداع وان حق عليه اللوم لوضعه في غير موضعه — ولكنه هو الغزل الرث الذي ليكت معانيه واوصافه ولم يكن للنظامين والشعارير بضاعة غير ترجيعه منذ عشرة قرون . فأي سوقة من صعاليك الوزانين لم يغسل رجليه في وعاء هذه المعاني التي نضح بها شعر أمير الشعراء ؟.؟ وقد يطول بنا الجهد لو فتشنا عن واحد من مقطعي العروض لم يقل في وصفه : « قد يتثنى كالبانة » « أردف مرتجة كالكثبان أي كأكوام الرمل » « خد كالورد » . « حسان كالاقمار أو كالنجوم » . « مشية كمشية القطا » . « عينان لهما سحر هاروت وماروت » « ظبية الرمل» إلى بقية تلك الكناسة الشعرية المنبوذة . وهذه هي روح العصر فيما يحلسون ! !

ثم يتخلص شاعرنا من مقدمته إلى موضوعه . فأما الموضوع فلا نقول فيه سوى أنه مقالة منظومة كسائر المقالات التي نشرتها الصحف يومئذ لولا أنها متناقضة متدابرة وأنها خلو من الاسباب والحجج التي بنى عليها الكاتبون رأيهم وأما الكلام الشعري فيه ففي بيت القصيد أو بيتيه وهما :

قطارهـم كالقطـر هـز الثـرى
وزاده خصبـاً علـى خصبـه

لولا استـلام الخلـق أرسانـه
شـب فنـال الشمـس من عجبه

وأنه لأليق تحية استقبال تتلو ذلك الافتتاح ، ولو كان للشاعر فضل في التناسب المحكم بينهما لكان أشعر الشعراء ولكن (مكره أخوك لابطل) .

ولاأسهب في التعليق على البيتين ولكني أروي مشاهدة يتبين منها القارىء مبلغ ما يفعله التقليد من تعطيل المدارك والحواس ، وأن في الاطفال اللاعبين خيالا أفطن وتمييزاً أصفى من شاعر يعكف على القديم وتشوب نفسه الصنعة المتكلفة بين أشرطة الصور المتحركة ولا سيما الامريكية منها مناظر خاصة لاطراب الصغار وجلب المسرة إلى قلوبهم . ومن أشدها غرابة المطاردات الجامحة التي تجري فيها خوارق العادات فتتحرك الدور والجواسق وتتطاير الكراسي والاواني . وهي كثيرة لاأظن زائراً من زوار الصور المتحركة لم ير واحداً منها — حضرت منظراً من هذه المناظر فأخذت المطاردة مأخذها المألوف : هارب يعدو ومقتف يتعقبه واستمر الكر والفر والهجوم والمراوغة إلى

ان وثب الهارب في منطاد ، وكان المطارد يعدو خلفه في سيارة فوثبت به السيارة وراء المنطاد . عند ذلك لم يبق في الملعب طفل لم يستفزه العجب فيثب ضاحكاً . وما أخالهم الا كانوا مصدقين ما يرونه وانما ضحكوا لان المنظر مضحك على كل حال . . . فايت شاعرنا الكبير الذي قرع أبواب الخيال نيفاً وثلاثين سنة حضر يومئذ فسمع ضحك الاطفال من سيارة تطير فيعلم ان طيران القطار بقاطرته ومركباته في الهواء مسخرة لا مفخرة . ولو استطاع خياله الكليل ان يتبع الصور الذهنية خطوة فيرى القطار شاباً فوق الرؤس في طريقه إلى الشمس ويرى الناس آخذين بحجزاته وأرساته يمنعونه ويكبحونه — لغلب حذره من الاستهزاء على ولعه بالاغراب ، والامر بعد لا يتطلب خيال شاعر فانه من مدركات العامة السذج ولولا انهم يدركون الجانب المضحك من هذه التصورات لما شاعت بينهم رقية كهذه الرقية الهزلية . « الحمد لله لم يخلق للجمال أجنحة فكانت تطير فوق بيوتكم الخ الخ »

أما أن القطار كالمطر يزيد الثرى خصباً على خصبه فتشبيه لاأصل له. ولو أمكن أن يشبه القطار بالمطر بأي قرينة من القرائن أو جامعة من الجوامع لكان التلف منه على أرض مصر أكبر من المنفعة . على أنه ليس من المطر ولا المطر منه ولانسبة بين القطار والقطر غير التجانس في الحروف وهكذا تتعلق اشعار المقلدين بالحروف والالفاظ لا بالحقائق والمعاني . وشوقي كما قلنا في أول المقال مقلد المقلدين :

* * *

النشـــيد

ربما كنا في غنى عن نقد هذا النشيد اذ كنا لم نلق أحداً يتقبله ويحله المنزلة التي أحلته فيها لجنة الاغاني والالحان . فان ألممنا به الماماً في طريقنا فقد يكون لذلك فائدة وهي توقيف بعض القراء على قيمة أحكام اللجان ، وانها في أكثر الاحيان تبع متبع ، لايرفع ولايضع . ونحن حديثو عهد بلجان الفنون والادب في مصر فقد يجهل سواد الناس حقيقتها . أما في أوروبا فربما بلغ من تهاون الادباء بشأنها أن يطبع أحدهم رسالته أو قصيدته ويثبت عليها بالخط العريض « لم تجزها جامعة كذا » كما صنعوا برسالة شوبنهور التي كتبها في الاخلاق وقدمها إلى جامعة كوبنهاجن ففضلت عليها غيرها فكانت سقطة الأبد .

تصدت لجنة الأغاني للحكم في أناشيد الشعراء وأولت نفسها هذه هذه الكفاءة وانها لكفاءة تتطلب الاحاطة بأشياء جمة قل بين أعضاء اللجنة من يبد ثقة في واحد منها . فمن شروط الحكم في الأناشيد القومية أن يكون عارفا بالشعر ، خبيرا بتوقيع الألحان على المعاني ، مطلعا على أناشيد الأمم ، بصيرا باخلاق الجماعات وأطوارها النفسية ، هذا الى استقلال الرأي والعدل والجهل بأسماء من يحتكمون اليه . فهل بين أعضاء اللجنة كثير ممن تتوافر فيهم هذه الشروط ؟ إننا نعرف

من بين أعضائها اناسا نجل ذكاءهم ونكبر فضلهم في علومهم ونراهم أهلاً للحكم في أعضل المشكلات التي تفرغوا لدرسها.بيد أن التفوق في شيء لايفيد التفوق في كل شيء. واذا علمت أن الرجل من الاخصائيين يقضي العمر في فنه باحثاً منقبا ثم تعرض له المسألة فيصيب ويخطىء ويبرم اليوم ما نقض أمس ، فأحر بك أن تعلم مبلغ اعتصامه من الخطأ فيما ينفرغ له ولم يدع الحذق به. ونحن نذكر هنا حقائق عن اللجنة لا سبيل الى انكارها وندع للعارفين بعد ذلك أن يحكموا على حكمها .

فمن هذه الحقائق أن بعض أعضاء اللجنة عرفوا في الجلسة وقبلها نشيد شوقي المقدم اليهم غفلا من الأمضاء ، ولا ندري لم تكلفوا أغفال اسمه ورأوا ذلك شرطاً ضروريا لنزاهة الحكم ثم سمحوا لاحدهم (الأستاذ عبد الحميد مصطفى بك) أن يجهر في الجلسة باسم صاحب النشيد بعد أن تبين الميل من أكثر الأعضاء إلى رفضه ؟ ؟ بل لا ندري لما أرجأت اللجنة اجتماعها موعدا بعد موعد وتمهلت حتى يتم شوقي نشيده وبين يدها نيف وخمسون نشيدا ؟ ؟ أمن العار على الأمة أن يكون فيها رجل آخر يحسن أن يضع أنشودة واحدة ؟ ؟ ولقد كان النشيد على أفواه الممثلين في احدى الفرق يلحنونه ويروضون أنفسهم على القائه ، واللجنة تطبع الأوراق وترسل الدعوات وتستقدم أعضاءها للنظر في أناشيد مجهولة ، وأسرار مكتومة ؟ ؟ فهل سعى النشيد وحده الى دار التمثيل ؟ ؟

ومما نذكره أن اللجنة لفرط برها بشوقي وحرصها على اختيار نشيده قبلته على ما فيه من مآخذ وعيوب ، نبه اليها بعض الفضلاء ،

وردته الى صاحبه ليجتهد في اصلاحه قبل اذاعته من قبلها . وذلك ان عضوا عاب قوله :

علـــى الاخـــلاق خطوا الملك وابنـــوا
فليـــس وراءهـــا للعـــز ركن

اليـــس لكم بوادي النيـــل عدن ؟ ؟
الـــخ الـــــخ —

وقال ان البيت الثاني منبتر ، وسأل : ماالعلاقة بين النصح ببناء الملك على الاخلاق وتشبيه وادي النيل بعدن والنيل بالكوثر ؟؟ فوافقوه على انتقاده وأنكر بعضهم تأليف البيتين الآتيين ومعناهما :

جعلنـــا مصر ملـــة ذي الجـــلال
والفنـــا الصليـــب على الهـــلال

واقبلنـــا كصف من عـــوال
يشـــد السمهـــري السمهريا

فانتقدوا قوله « ملة ذي الجلال » ونقل الي أن أحدهم قال : اننا نجعل مصر وطنا يشترك في حبه ابناؤها ، وأما ملة ذي الجلال فهي الملة التي يدين بها كل انسان بينه وبين ربه « ذي الجلال » وهو انتقاد سديد فأننا ان سمينا الوطن ملة ذي الجلال فماذا يكون الاسلام والمسيحية واليهودية ؟ انما يقال اتحدوا في الوطن واتركوا الدين للديان ، ولا يقال اجعلوا الوطن ملة الديان . ولم يستحسنوا قوله « الفنا على الهلال » ولا ذكره السمهري ، وقال آخر أن عبارة « كصف من عوال » افرنجية التركيب ، ونحن نروي الانتقاد ولا نحمل تبعته .

ويظهر أن الناظم لم يفتح عليه بتغيير اللفظ مع المحافظة على المعنى فاصلح بيتاً واحدا وترك البقية على حالها . أصلح هذا البيت :

نمـــــوت اليــــك مصر كما حيينا
ويبقـــى وجهــــك المفــدي حيا

وكانوا قد أخذوا عليه قوله « نموت اليك » لانها لم تسمع في كلام صحيح فلم يستطع اصلاحها بأحسن من أن يقول « نموت رضاك مصر الخ » — وقد نشر كذلك في صحيفة الأخبار — فلم يقتنعوا فجعلها أديب في النسخ الأخيرة « نموت فداك » فاقتنعوا ؟ !

ونذكر أيضاً انه كان بين المحكمين أعضاء من المغنين والعوادين جيء بهم ليحكموا في أي الاناشيد أصلح للفخر القومي وأشد اعتلاجاً في النفس وابتعاثاً للحمية ومطابقة لنفسية الأمة ! ! وليديروه في اللحن الذي يثبت القلوب الخائرة وينهض بالهمم العاثرة ويسمعه الواني فتضطرم نفسه عزماً ، واليأس فيهجم إلى الامل قدماً ، والعدو فيتضعضع قلبه رعباً وغماً . . وليكون اللحن صوت الأمة في سمع التاريخ ونحوها في المواقف والازمات فانظر أين ذهبوا بهؤلاء المظلومين هل تعلم بين من نسمعهم من مغنينا من ينطق باسان النفس بائسة وراجية ، وغاضبة وراضية ، ومستنفرة ومتهللة ، وصارخة ومبتهلة وهل فيهم من يروى بانغامه عن جلال الحياة وجمالها وعن عظمة الكون وبهجته كما ينبغي ان تكون الموسيقى ؟ ؟ لقد علم كل انسان أن ليس فيهم من يفهم الموسيقى على هذا المعنى ولكنها أصوات الذل والضراعة وألحان ينشدها النائم فلا يستيقظ ويسمعها الصاحي فينام .

ثم نذكر تبرع شوقي بالجائزة لنادي الموسيقى . وكان هذا وعده المعروف ولو انه لم يعد لما دار بخلد أحدهم انه على غناه يطمع في مائة جنيه يحتجنها لنفسه فكان يهم الاعضاء ان يفوز هو بالجائزة الموعودة ، وجلهم من أعضاء نادي الموسيقى ، والنادي بحاجة إلى اعانة المتبرعين .

ولاننس ان اللجنة حكمت المويلحي ، وهو رجل تصل اليه هدايا شوقي . على انه تخلف عن الحضور فاضطروه إلى ارسال رأيه اضطراراً . وحكمت حافظاً وقد عرف أصحابه انه يتقي ان يرمى بالحسد ان أومأ بالنقد إلى قرينه . ومن غرائبه انه كان ينحى على النشيد في الجلسة وقبل اجتماع الاعضاء فلما أعلن الاستاذ عبد الحميد بك اسم شوقي سكت .

وعلمنا غير ما تقدم أموراً لانحب ذكرها . وفيما ذكرناه دليل على هوى اللجنة في جماتها . فلنعد إلى النشيد غير آبهين للحكم له أو عليه ، وليكن قياسنا اياه ان نلتمس فيه أبسط الخصال التي هي قوام كل نشيد ولا يجوز ان تخلو منها الاناشيد القومية .

. يشترط في النشيد القومي قوة العبارة وسهولتها وان لايكون وعظاً بل حماسة ونخوة وان يكون موضوعاً على لسان الشعب وموافقاً لكل زمان . وهذا أبسط ما يطلب في أناشيد الأمم . فهل نشيد شوقي على هذا الوجه ، وهل اتسقت فيه كل هذه الشروط أو بعضها ؟ ؟

فأما قوة العبارة فليس في النشيد بيت يدب له الدم في عروق منشده . وكل مفاخره أفرغت في قالب هو أقرب إلى الاخبار منه إلى الحماسة . وأقواها قوله :

لنــا الهرم الذي صحب الزمانــا
ونحن حدثانــه أخــذ الامانــا

ونحــن بنو السنــا العالي تمامــاً
أوائــل علمــوا الامــم الرقيــا

وليس في هذين البيتين من نشوة الفخر ما تهتز له النفوس ، وليس فيهما قوة لاتجد مثلها في قول من يقول « كان لي بيت سعته كذا من الاذرع ، بابه على النيل ، وضوء الشمس يغشاه من جميع النوافذ ، إلى آخر أوصاف المساحة . . » فأي فرق بين قص المعلومات والحماسة اذن ؟ ؟

وأما سهولة العبارة فقد خلا النشيد من الكلمات المعجمة ولكنه نم عن أعنات المفيد المجهود فخففت فيه ثلاث همزات تخفيفاً معيباً واستعصي الوزن والقافية على صاحبنا حتى صير « سئلت » سيلت و « تهيأ » « تهيا » و « شيئاً » شيا : نعوذ بالله من الشي .

وأما وضعه على لسان الشعب فهذا مطلعه :

بنــي مصر مكانكــم تهيــا
فهيــا مهــدوا للمــلك هيــا

خــذوا شمــس النهــار له حليــا
ألم تــك تــاج أولكــم مليــا

عــلى الاخلاق خطــوا الملك وابنــوا
فليــس وراءهــا للعــز ركــن

أليس لكم بوادي النيل عدن
وكوثرها الذي يجري شهيا

فمن الذي يأمر المصريين هنا ويناقشهم هذه المناقشة ؟ ؟ أأجنبي يخاطبهم وينشد نشيدهم ؟ ؟

ولقد استوطأ شوقي مطية الفلسفة والمواعظ بعد ان ركب حمارها ببيت واحد سوقي المعنى وهو قوله :

وانما الأمم الاخلاق ما بقيت
فان هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

فراح يجري عليه ذهاباً واياباً في كل مكان ومقصد . حتى طلع لنا بأذني حمارة الفلسفي هذا في موعظته « على الاخلاق خطوا الملك » ولم يجد على الباب من يقول له : يمينيك أو شمالك . . فكأنما كان شوقي على رهان ان يخالف قواعد الاناشيد ما أمكنه ، وكأنما لهذا أحرز السبق لا لان نشيده كان كما وصفته اللجنة « أكفاها و أوفاها بالغرض وأجمعها للمزايا التي ينبغي أن تتسق لنشيد قومي مصري » فانه لو وضعت الجائزة لمن يجرد نشيده من كل شرط يتسق للاناشيد لما عرفنا كيف كان يسبق في هذا المضمار .

وفي المقطوعة الاولى خطأ تاريخي ما أظرفه في نشيد أمة تفتخر بتاريخها القديم فان الشمس لم تكن تاج الفراعنة كما يقول شاعر مصر وانما كانت معبوداً لهم وكانوا يزعمون انهم من سلالتها . وأما تاج الفراعنة الاول فهو تاج مزدوج جمعوا فيه بين تاج ملوك الصعيد وتاج ملوك الوجه البحري ويعرف شكله كل طالب من طلاب السنة الاولى

في المدارس الثانوية . ثم حدثت بعد ذلك تيجان كانوا يحلونها بصور الطيور المعبودة أو التي يرمز بها إلى العبادات ولم تكن الشمس قط حلية لهذه التيجان . . فيا حبذا النشيد تتغنى به أمة فيكون مطلعه عنواناً على جهلها بتاريخها .

ولا يكلفنا القارىء ان نأخذ على شوقي مبالغته في قوله « خذوا شمس النهار له حلياً » فاننا لانحاسبه على كلمة له فيها وجه تأويل .

وأما الموافقة لكل زمان فاننا نرى الرجل قد حسب اننا سنظل طوال الدهر كدأبنا في يومنا هذا . فنظم لنا نشيداً لانتخطى به في جميع العصور ان يتهيأ مكاننا ، وان لانبرح نشرع في التمهيد ونأخذ في الاستعداد ونبدأ برسم خطط الملك ونهم بتشييد الاركان . وما علمنا شاعراً قومياً يطلب اليه ان يكون فأل الامة وهاتف مستقبلها فينعب فيها نعيب النحس وينذرها جموداً لاتتزحزح منه أو تنسى نعيبه ، وتهجر الترنم به . ولقد عرف القراء جهل شوقي بالمواقف من قصائده الآنفة ، وأجهل ما يكون هو اذا وقف موقفاً وطنياً أو قومياً . فمن دلائل غفلة الذهن وعشا البصيرة ان يكلف « ابن بجدتها » انشاء دعاء قومي ، أي دعاء لايعوقك دين من الاديان ان ترتله في البيعة أو تشدو به في الكنيسة أو تصلي به في المسجد ، فيخيل اليه أنه اذا جمع فروق الاديان كلها في جملة واحدة فقد أتيح له هذا الغرض . فيستشفع في دعائه المعروف « بموسى الهارب من الرق ، وعيسى رسول الصدق ، ومحمد نبي الحق » فيكون ماذا ؟ ؟

يكون ان الاسرائيلي يحرم هذه الصلاة في بيعته لانه لايؤمن بعيسى

ولا بمحمد – وان المسيحي لايدعو الله به في كنيسته لانه على احترامه دين مواطنه المسلم لايعتقد النبوة الاسلامية ، ولانه يدين بربوبية المسيح لابرسالته فحسب وان المسلم يصلي به وحده فكأنه لم يشر فيه إلى دين غير دينه ، وان الدعاء القومي لايكون دعاء لاحد ممن يضمهم قوم مصر .

ولو ان طاهياً صناعته تجهيز الموائد قيل له ان ثلاثة من المدعوين في الدار ليس يشتهي أحدهم طعام الآخر ، فعمل على اطعامهم جميعاً بمزج أطعمتهم كلها في صفحة واحدة لطرد من فوره ، فاعجب اشاعر قوم يغفل حيث لايغفل الطهاة ويغرق في غفلة الذهن حتى أحسبه أحياناً يتعمد الامعان فيها ويطرقها من الباب الذي يفضي به إلى نهاياتها . كمن يعثر بمعنى بديع فيتخلله ويتقصاه ولا يتركه وفيه زيادة لمستزيد . فبعد ان خطر له ان يجمع شفاعات الاديان أجمع كي تكون شفاعة لكل دين ، عمد إلى اصدق الانبياء نشأة بمصر فوصفه الوصف الوحيد الذي لايناسب هذا المقام ، والذي لو كان هو وصفه الفذ لامنواه لوجب السكوت عنه هنا . وصفه « بالهارب من الرق » فهل يدري شاعر مصر من رق من هرب موسى ؟ ؟ انه هرب من رق المصريين الذين يستشفع لهم به ! ! وقد نجد في خفراء الريف كياسة تمنعهم أن يطلبوا الاقالة بما يذكر بالذنب ، أو يتوسلوا إلى الشفاعة بما يتضمن الاساءة . فتبارك الله ملهم الخفراء وملجم الشعراء .

ودعاء شوقي ونشيده كلاهما معيار لتعبيره عن المعارف القومية ، فلا هو في الشعر ولا في النثر شاعر قومي موفق العبارة : وقد قرأناهما لتشابه الخطأ فيهما وربما كان خطأه في النشيد أخف وأهون ، من حيث

ان الأناشيد لا يصلى بها في المساجد والكنائس ، لامن حيث المزية الفنية والفضيلة المعنوية ، بيد اننا لانرى معنى لزج الاديان في الاناشيد الوطنية ، فقد كان يكون أدل على الوفاق ان لانجعل وفاق الاديان مباهاة ومأثرة ، لان المرء يباهي بالشيء النادر أو غير المنتظر وهذه الامم المتحضرة والمتبدية اليس فيها مذاهب مختلفة وعناصر متعددة ؟ فما بالها قد خلت أناشيدها من ذكر الدين ؟ ؟ أتراها لاتحب أن يكون الوفاق شعاراً لها .

ولقد قدمنا اننا لانقصد إلى الافاضة في نقد النشيد ، فكنا تقارنه بما نعلمه — من الاناشيد الوطنية الشائعة فنظهر موضع المزية فيها وموضع التقصير فيه . أما وقد أخذنا من مساوئه ما أخذنا فليس يسعنا ان نهمل مأخذاً سمعناه من بعض الملحنين والظرفاء بعد عرض عرض النشيد للتلحين : ذلك أنهم يستقبحون تلحين احدى مقطوعاته وهي هذه :

تطــاول عهــدهــم عــزا وفخــراً
فلمــا آل للتــاريــخ ذخــراً

نشأنــا نشــأة في المجــد أخــرى
الــخ الخ

ويقولون ان التنوين لابد ان يسقط في الانشاد فيخلفه المد وترجيع الصوت فاذا انتهى المنشد مثلا إلى كلمة « فخراً » ومدّ بها صوته ورجعه فأي رائحة تفوح منها ؟ ؟ وهل يطاق بعد ذلك سماع النشيد والتخايل بفخره والتمجد بمعناه ؟ ؟ ولسنا نحن ممن يبالي بهذا النوع من النقد ولكننا نعذر المنشد في موقفه والملحن في صنعته .

نقول : هذا هو النشيد الذي « يبقي لحركة هذه الأمة شعاراً ، ويتخذ للحوادث الوطنية على وجه الزمان مناراً » كما تقول اللجنة — نشيد لايرضى عنه الشاعر ولا الموسيقي ولا المتغنى ، ولم يقرأه أحد فيما علمنا الاعجب من تفضيله على النشيد الثاني ومن اجتراء اللجنة على تقديمها معاً إلى الصحف غلوا منها في استجهال الناس ومبالغة في احتقار رأيهم . ولا أخفي عن القارىء انني ما كنت أظن في جمهور قراء الادب استقلالا يقاوم تآمر المحكمين والصحافة وسماسرة المجالس حتى رأيت الاجماع على الشك في حكم اللجنة ونزوعاً إلى احلال نشيدها المختار في المحل الثاني من النشدين المنشورين ؛ وفي هذا الاستقلال أمل نغتبط به ونحمد بشائره .

عباس محمود العقاد

* * *

النشيد القومي

رأينا أن ننشر هذا النشيد بعد ما كتبناه عن نشيد شوقي ليقارن القراء بينهما ويعلموا ما الذي يخشاه شوقي من التفات الاذهان إلى غيره . فان صاحب النشيد المنشور هنا شاب لم يظهر بعد شيئاً من شعره للقراء وشوقي يملأ طباق الارض باسمه كل يوم منذ نيف وثلاثين سنة ، ومع هذا فالفرق بين النشيدين لايخفى على أحد . وقد اتصل بنا بنا انه كان ثالث الاناشيد التي اختارتها اللجنة فاذا حسبنا للمحاباة حسابها جاز أن نقول انها حكمت بتفصيله على نشيد (كبير الشعراء) ويرى القارىء التفاوت بين النشيدين حتى في الخصلة التي اشتركا فيها فان مخاطبة الشعب هنا أشبه بمناجاة النفس وهي في نشيد شوقي مخاطبة أجنبي معتزل للشعب الذي يناديه . وهذا هو النشيد :

يا بنـــي النيـــل وأحفـــاد الألـــى
أطلعـــوا الفجـــر لتاريـــخ قديـــم

رفعـــوا الاهـــرام والعالـــم لا
يبتنـــى الا خصاصا مـــن هشيـــم

* * *

أذكروا أن ثرى هـذا البلـد
من تجاليد الجدود العظماء

لاتطئهـا أرجـل العادي الألـد
وبكم أبناءهـم بعض اللـؤماء

تربهـا التبـر المصفـى المنتقـد
لا الـذي يقتنـى الشحاح الادنيـاء

فامنعـوا كنزكـم أن يبـذلا
أو تعيشـوا عمركـم عيش عديـم

لـن تـروا في الارض عنـه بـدلا
مالكـم كنـز سـوى هذا الاديـم

* * *

أذكـروا أن عليكـم واجبـاً
لبنينـا في بطـون الاعصر

فاحفظـوا هـذا التـراث الواصبـا
فهـو حـق الوارث المنتظـر

نتقـاضى الأرث عصـراً ذاهبـاً
فلنصنـه للعصور الأخـر

سنؤديـه اليهـم أكمـلا
لم يغيـره زمـان أو خصيـم

فحمى مصر تحاماه البلى
وبنوها خير من يحمى الحريم

أذكروا حاضركم كيف يقام
ليس يغنينا تليد القدماء

ما التماثيل المهيبات الجسام
وأبو الهول رهين الصحراء

ما المسلات على باب الرجام
والنواويس وفيها المومياء !

ما عظيم تالد من العلا
في ثنايا حاضر غير عظيم !

فاجعلوا عهد العلا متصلا
كاتساق الدر في العقد النظيم

* * *

أذكروا مهما بلغتم سؤددا
أنكم لم تبلغوا أوج الكمال

أبعدوا فوق المنال المقصدا
فبنو الشمس لهم أقصى المنال

كم عبدنا قرصها المتقدا
فاتقدنا في حماس ونضال

نبتنــي الهيكــل يتلــو الهيكــلا
خالداً في ساحــة الرمــل مقيــم

وسيبقــى موطــن الشمــس إلى
يــوم لايبقــى لهــا قــرص ضريــم

* * *

أذكروا أن التفانــي والغــلاب
في سبيــل المثــل الأعــلى البعيــد

نفثــا فيكــم وأنتــم مــن تراب
شعلــة غــراء مــن معنــى الخلــود

شعلــة تجلــو عــن الحــق الحجــاب
وتصفى النفــس مــن رجــس الوجود

فاضرمــوا في النفــس هــذي الشعــلا
أضرموهــا تكلفــوا الفوز العميــم

مثلمــا أضرمــت النــار عــلى
مذبــح الــرب بمحــراب كريــم

* * *

أذكروا ذلك وامضوا قلمــا
لاتكــن وجهتنــا غيــر الامــام

تزدجينـــا دقــة القلــب كمــا
يقــرع الطبــل لجــرار لهــام

فنســوغ المــوت دوداً للحمــى
ونذيــل العمــر سعيــا واعتــزام

فبحــق نحــن أحفــاد الألــى
اطلعــوا الفجــر لتاريــخ قديــم

رفعــوا الاهــرام والعانــم لا
يبتنــى الا خصاصا مــن هشيــم

عبد الرحمن صدقي

* * *

صنم الألاعيب

شكري صنم ولا كالاصنام . ألقت به يد القدر العابثة في ركن خرب على ساحل اليم — صنم تتمثل فيه سخرية الله المرة وتهكم « ارستفانيز السماء » مبدع الكائنات المضحكة ورازقها القدرة على جعل مصابها فكاهة الناس وسلوانهم . و— لم — لا يخلق الله المضحكات وقد آتى النفوس الاحساس بها وأشعرها الحاجة اليها ؟ ؟ ولم يلتزم في الانسان مالا يتوخى في سواه من وزن واحد وقافية مطردة ؟ ؟

هنا لك اذاً على ساحل البحر شاءت الفكاهة الالهية أن ترمي بهذا الصنم . وكأنما أرادت أن تبحث على تدبر القدرتين : هنا ثبج مزبد وأبد لا يحد وموج لا يكاد يقبل حتى يرتد وحياة متجددة وأواذى متوثبة متولدة — وههنا نفس خامدة وقوة راكدة وجبلة باردة جامدة . لا تمتد يدها الى الثمار تهدلت بها عذبات الأشجار ، ولا يملأ صدرها حسن الآصال وروعة الأسحار ، ولا يستجيش الحياة في عروقها منظر الكمائم تتفتح عن آنق الأزهار ، أو الغمائم ترسم في صفحة السماء المقلوبة أبهى الصور أو الخضرة في مستهل الربيع تكاد العين « ترى » ذيوعها وانتشارها بل « وثبها » من شجرة الى شجرة ومن عود إلى فنن حتى تعود الحقول الى آخر مدى البصر بحراً مائجاً من الزبرجد ، لا ولا ينبه شعورها الزهر في الصباح البلبل وقد أثقلت أكمامه الانداء

فتساندت رؤوسها كأن سرباً من العذارى على الماء بوغتن فتزاحمن تحت ثوب أبيض .

كلا ليس في كل مفاتن الطبيعة وروائع الحياة ومعانيها ما يحرك هذا الصنم لان باطنه شاعت فيه لعنة السماء فعاد أشقى الناس بنفسه وصار لا ينقذه منها ومما منته به من صنوف البلاء الا أن تهدمه فؤوس الكاشفي طبقات التراب عنه . وليت تراب الخمول لم يرفع عنه فقد ولد ميتاً ولم يجده نور الحياة وحرها ولاأغنيا عنه من جمود طبعه شيئاً وان كان وهو ملقي بين انقاض حياته يتوهم انه ملهب الموج بسياطه ومدير الافلاك بتدبيره وحكمته. يقول كلما أعجبه شكله أو حاله أو أثاره نبذه واهماله « أنا اله الشعر » فتلطمه الرياح وتدحرج ثقله على افريز البحر وترميه الأمواج برش من سخرها وتساك أنقابه برعد من ضحكها فما أجله من اله يتضاحك به كل شيء حتى الهواء والماء ! وللناس العذر اذا كانوا أسلم فطرة من أن يكترثوا لدعي أخرس لا ينطق ولا يبين واذا تركوه غارقا في طوفان من الأوحال النفسية مدفوناً في قبر من بكمه العجيب . وأي بكم أعظم مما أصيب به هذا المنكود الذي لا يكفيه ان يدعي النطق حتى يريد أن يكون شاعرا ونبياً فنياً ورسولاً بدين هداية في الأدب ؟ ؟

وأنت أيها القارىء قد تعلم أن سر النجاح في الأدب هو علو اللسان وحسن البلاغ وقوة الاداء وان على من يريد أن يشرح ديناً جديداً « لأطفال » هذا العالم أو أن يحدثهم بما أحب أسلافهم في سالف الزمن أو بما يلذهم أن يحبوه لو عرفوه أن يذكرانهم لم يتعلقوا به بعد ولا استطعموه فاستمرأوه وانه لكي يغريهم به ينبغي له أن يتوخى القوة

في العبارة عما يريد فان الناس خليقون أن لا يؤمنوا الا بمن عمر صدره

وقلما ظهر كاتب أو شاعر الا بالاداء وكثيراً ما يمتاز بعض الكتاب وتخلد أثارهم لما أوتوه من القدرة على اجادة العبارة عن أراء غيرهم كأبي اسحاق الصابيء كاتب الملوك والامراء وان كان لامحل لهم بين المفكرين وأصحاب العقول الكبيرة الذين تكون آراؤهم بمثابة محور انقلاب في تاريخ العقل الانساني والذين يستطيعون أن يستغنوا الى حد ما عما لا مسمح للاديب عنه . وعلى قدر ابتعاد الكتابة عن مجال التفكير البارد ودنوها من ميدان الذهن المشبوب والعواطف الذكية تكون الحاجة إلى ضرورة فن الأسلوب .

ولعل هذا أكبر الأسباب التي أفضت الى خمول شكري وفشله في كل ما عالجه من فنون الأدب لأنه لا أسلوب له اذ كان يقلد كل شاعر ويقتاس بكل كاتب وينسج على كل منزال وحسب المرء أن يجيل نظره في كلامه ليدرك ذلك اذا كان على شيء من الاطلاع فاذا لم يكن فهو لا يعيبه أن يرى أنه يستعمل اللغة جزافاً ويكيل « توافيق وتباديل » — كما يقول الرياضيون — من الكلام غير واضحة ولا مؤدية معنى بعينه ويسطر على الطرس اصداء متقطعة لأصوات مألوفة لا رموزاً منتقاة لتمثيل المعنى واحضاره . وسنمثل لكل ذلك في موضعه من هذا النقد .

ويخيل الينا أن شكري على كثرة الشكوى في شعره من الخمول وحقده على اغفاله الناس أمره كما هو ظاهر من قوله :

قد طال نظمي ألاشعار مقتــدرا (؟)

والقـــوم في غفلة عني وعن شأني

هـــذي المعانـــي تناجيهم فما لهـــم

لا ينصتـــــون بافهـــام واذهـــان؟

وتعزيه بان الزمان سينصفه ويديل له من خصومه وتظاهره بالاطمئنان حكم الأيام في قوله :

أرمي بشعري في حلق الزمان ولا

أبيـــــت منه على هم وبلبـــــال

مجاراة للمتنبي وتقليدا له في قوله :

أنـــــام ملء جفوني عن شواردهـــا

ويسهر الخلـــق جراها ويختصـــم

نقول يخيل الينا ان شكري لو شاء لفطن الى سر هذا الخمول وعلة ذلك الأهمال ولعرف ان داءه كامن فيه وان الناس لا ذنب لهم فقد بحثوا في شعره على شيء جليل يروع أو حسن يلذ ويمتع أو مستظرف يلهي ويسلي وتقطع به ساعات الفراغ وأوقات البطالة فلم يجدوا عنده غناءهم وألفوه يريد أن يجعل نفسه هزؤة السخفاء وضحكة الفارغي القلب والعقل جميعاً . ولقد كان هيني الشاعر الألماني الجليل يسخر من نفسه ولكنه كان بذلك يسخر بالانسانية كلها ممثلة في شخصه ولا يسع كل قارىء الا ان يحس أنه أصاب موضع الداء . أما شكري الذي أراد أن يقلد هيني والذي زعم أن العالم يفقد بموته ساخرا عظيماً وذلك حيث يقول :

وانْ « أدرج » في قبري
قتيل الحب واليأس

ومن يصدح بالشعر
ومن يسخر بالناس

هذا الساحر العظيم والصيدح الغريد والرسول الجلل لا يطمع في منزلة ملحوظة ولا تشرئب آماله الى سمو قلق وانما غاية ما يرجو في حياته ان يفوز به على قدر ما استطعنا أن نستوضح غرضه من ايماءاته الخرساء – وكل ما يقنع به ويسكن قلقه وتهدأ ثورته اذا بلغه هو أن « تمر به الحسان فترتضيه » ! ! هذا هو دينه الذي يدعو الناس الى عبادته ولا ينفك يشكوهم الى الزمان ويشتمهم ويرميهم بالغباء لانهم لا يستمعون اليه . اليس هو القائل في بعض هرائه اذا لم يكن الناشر قد نحله ذلك نكاية فيه :

كفاني من نبيه الذكر أني
تمر بي الحسان فترتضيني

ولا أدري ماذا يرتضين منه ؟ لعله يدعي بعد الشعر والتبريز فيه انه جميل ؟ وكيف تمر به وترتضيه ؟ هل أقام نفسه في معرض تمر به فيه وتحبسه بعيونها وأكفلها كما يفعل الصبيان باللعب والصور ؟ وما ذنب الناس على الأقل اذا كانت هماتهم ومساعيهم وآمالهم تنأى بهم من دائرته الضيقة ؟

وعلى أنه عجز عن ايضاح هذا الغرض الضئيل اذ من يستطيع أن يفهم شيئاً من ارتضاء الحسان به ؟ ومع ذلك لا يتحرج أن يقول في نفس

القصيدة التي أنزل فيها دينه على الناس وأطلقها من قيود القافية - والوزن أحياناً - لكيلا يعوقه عن التحدر شيء - معاتباً الغرام :

اتقصينـــــا ونحـــــن مقربونا
مـــن التبيـــان والأدب الغزير

ولعمري ما عدا الواقع في قوله انه مقرب من التبيان والأدب ولكن التقرب منهما شيء وورود شرعتهما شيء آخر ، وهل بل طرف لسانه من معينهما الفياض من يقول :

وفـــــي السعي شيء يعوق الطماح
فيحظــــى الأجــل ويصمي الأقلا

ولو سئل هو نفسه في معناه لضاقت عليه مذاهب القول أو من يقول في صفة المشنوق :

ضـــاقت الأرض عن مآتمـــه فاء
تاض عنهـــا برقـــة الملحـــود

كأنما حسب المرزوء في عقله - ان كان ما فهمناه من البيت هو المقصود - أن المشنوق سيظل معلقاً في الفضاء إلى الأبد أو أن الأرض تضيق عن شيء من المآتم أو المحامد أو انها هي التي لفظته وأعلته لتمكن حضرته من وصفه . ومن العجيب والذي يدل على أن شكري متكلف لا مطبوع وان ما يزعمه من آنه من أهل المذهب الجديد في الشعر باطل انه هو نفسه قال ينعي على المتأخرين حماقاتهم وسخافة مناحيهم .

« واذا صلب أحد الأمراء قالوا ان قاتليه أجلوه فلم يرضوا له القبر وينشدون أبيات الأنباري التي يقول فيها :

ولمـــا ضاق بطن الأرض عــن أن
يضــــم عــــلاك من بعـــد المماث

أصـــاروا الجـــو قبرك واستعاضـــوا
مـــن الأكفـــان ثوب السافيـــات

ويقولون انظر الى مهارة الشاعر في قلب الحقائق واظهار الذميم مظهر الحسن . . . وليس أدل على جهل وظيفة الشعر من قرنهم الشعر إلى الكذب وليس الشعر كذباً بل هو منظار الحقائق ومفسر لها وليست حلاوة الشعر في قلب الحقائق بل في اقامة الحقائق المقلوبة ووضع كل واحدة منها في مكانها الخ » .

فما أحلى هذا الكلام وأصدقه وما أبعد قائلة عن العمل به وأدناه إلى المتأخرين الذين مسخوا الشعر « حتى صار » كما يقول « كله عبثاً لا طائل تحته » أو ما أجدره ان يكف عن دعواه انه من رجال المذهب الجديد في الشعر وهو لا يقلد الا السخفاء من القدماء باعترافه . أترى هذا المفتون يحسب انه يستطيع ان يخدع الناس بهذه النظريات التي ينقلها ولا يفهمها اذ لو كان يفهمها ويؤمن بها لما كان شعره من النوع الذي ينعاه على سواه ويعيبهم به . أم ظن انه يكفي ان يلوك المرء جملا كالببغاء ليكون في نظر الناس حديثاً سائراً مع الزمن مؤديا فرائض الحياة ؟ يظهر ان هذا هو الذي يعتقده شكري فبينا تراه يقول في مقدمات ديوانه « ان الشاعر الكبير (مثله بالبداهه) يخلق الجيل الذي يهمه ويهيئه لفهم شعره » ترى له في بعض هذه الدواوين بصف الة ذكرها :

يبيت الندى فوق الزهور مرفرفا
كما البعث الطل الرقيق ليقطر

أو قوله في فلسفة « تزاوج النفوس » :

والنفس للنفس زوج طاب عرسهما
ومهرها الحب لا يغلو لها المهر

من لي بنفس أرى نفسي بها مزجت
كما تمازج في وديانها الغدر

والنفس في عيشها شتى منافذها
منها القلوب والسمع والبصر

(المقصود هو البيت الأخير) فأي جيل يريد هذا المائق ان يخلقه ليفهم هذه السخافات ؟(بضم السين كما ينطقها هو) أما كفى أن في الدنيا سخيفاً مثله حتى يطلب ان يوجد من أمثاله جيل برمته ؟ وأي بلية تكون شراً على العالم من هذه ؟ وأي خطب يكون أدهى وأعظم من وجود جيل كل تفكير أهله منسوج على منوال القائل :

كأننا والماء من حولنا
قوم جلوس حولنا ماء

وقد يكون من المستحسن قبل أن نخرج من هذا التمهيد الى النقد التفصيلي أن نورد للقراء مثالا لشعر السحر الذي يباهي به قال :

ناص صروف الدهر مستقبلا
قذاله لو جزته أقرع

فجـــز مـــن لمتـــه خصـــلة
لعـــلها مـــن خلفـــه ترقـــع

فالـــدهر أن أقبـــلت ذو لمـــة
لكنـــــه مـــن خلفـــها أقـــرع

مطلعـــــة مثـــل طلوع المنـــى
وحســـرة ما خلـــــف المطلع

ولا تـــرم بالـــذم صفعـــاً لـــه
فانمـــا يصـــلع اذ يصفـــع

قـــراعه مثـــل قراع الظبـــي
وانمـــا يقـــرع اذ يـقـــرع

فاطـــــل قفـــاه بمـــداد لعـــ
ل اللـــــون من روقتـــه يخـــدع

وغـــض عنـــه نظـــرا واعيـــا
فانمـــا يعـــديك ما يطبـــع

وان جـــرى في الدم كره له
فخيـــر ما يجـــدي لك المبضع

حجـــامـــة لا شك في نفعها
وقـــد يضيـــر المرء ما ينفع

ولا تعـــف صحبتـــه انـــه
بالـــرغم من صلعتـــه أروع

واحـــن له الرأس لكي لا ترى
فانهـــا مـــن خافـــه تلمع

ونحن انما نمثل اليكم هذا المسكين ولا نستقصي مخافة أن نحتاج الى نقل كل شعره على التقريب - ونقول التقريب لأن له أبياتاً مبعثرة في أجزاء ديوانه السبعة لو كان كل شعره على مثالها منسوجاً على منوالها لصار صنما معبود لا منبوذا كما هو الآن . وما بالعجيب أن يكون له بضعة أبيات مفهومة فانك لو جلست ساعة الى مجنون أو أبله لجري لسانه بجملة أو جمل تلمح فيها أثر العقل . وان كان لم يفكر في مبلغها من الصواب وحظها من السداد . وللعقل الذاهل المضطرب انتباهات فجائية لعلها من أقوى الدلائل على الرزء فيه وقد جمع صاحبنا إلى البكم الذي مثلنا له ضعفاً في الذهن واضطراباً في جهاز التفكير لم تنفع في معالجتهما كثرة القراءة والاطلاع على خير ما انتجت العقول وقد يعلم القارىء أو لا يعلم أن الاطلاع قلما يجدي اذا كان الاستعداد مفقوداً وكان الذهن غير مستو أو صالح « لهضم » مايتلقاه والانتفاع به وتحويله الى فكرة مكونة من امتزاج الجديد بالموجود - كالمعدة الضعيفة لا ينفعها أن تزحمها بألوان الطعام وكثيراً ما يكون الأقبال على الكتب والولع بها نوعاً من الشره تحول من المعدة الى الدماغ . وما عدونا بقولنا هذا ما وصف به نفسه حيث يقول « ويمتاز الشاعر العبقري (يعني نفسه أيضاً) بذلك الشره العقلي الذي يجعله راغباً في أن يفكر كل فكر » ولكن ما به ليس من هذا القبيل وشرهه لا يجعله يحس الا بالحاجة الى قراءة كل كتاب لا الى التفكير . هذا هو ما يعانيه شكري ولعله من أسباب ضعفه العديدة فانه يقرأ حتى كتب العفاريت وقصص السحرة والمردة والجان لما وقع في نفسه من أن هذا حقيق أن يقوي

خياله ويجعل له أجنحة يحلق بها في سماء الشعر وفاته هو وأمثاله ان الخيال يجب أن يطير بجناحين من الحقيقة وان كل كلام ليس مصدره صحة الادراك وصدق النظر في استشفاف العلاقات لا يكون إلاهراء لا محل له في الأدب ومتى كانت حمى الحواس وهذيان العواطف وضعف الروح تعيش في عالم الشعر ؟

وليس في الوضوح وقوة الاداء وحسن البيان ما ينفي العمق لأن العمق ليس معناه الغموض . فليكن الشاعر عميقاً كما يشاء ولكن مع الوضوح والجلاء اذ أيهما أحوج الى النور يراق عليه ويكشف عنه ؟ ما تلمسه اليد وهي تمتد وتعثر به الرجل وهي تخطو أم مايغوص عليه المرء في أغوار الفكر ؟ فكل غموض دليل أما على العجز عن الأداء أو التدجيل أو استبهام الفكرة في ذهن صاحبها .

على انه من أفحش الخطأ وأضره بالاستعداد وأشده افساداً للفطرة أن يتكلف المرء غير ما أعدته له طبيعته وأن يعالج محاكاة النسور اذا كان طوقه لا يتجاوز دبيب النمال فان العقل الصغير اذا التزم حدوده وقام بما يستطيعه على الوجه الصحيح قد يصل الى غايته من طريقه ولا يحس الحاجة الى قوة العقل الكبير .

وقد ركب شكري هذا الجهل فتكلف مالا يحسن وأراد أن يكون شاعرا وكاتبا من الطراز الأول وظن ان الاجتهاد يغني غناء الاستعداد فلا هو بلغ أية درجة مما طمع فيه ولا هو أبقى على خلقه الوادع وقناعته بميسور العيش ومنزل انزله الله وحال البسه اياها .

ولما كان السقم في الكلام مرده الى السقم في الذهن فسنبدأ نقدنا بالدليل الضمني المستخلص من كتاباته على اتجاه ذهنه ثم نعقب

ببيان الفساد الذي اكتظت به داووينه ونختم الكلام بتقصي سرقاته واغاواته على شعراء العرب والغرب جميعاً .

* * *

لا نقول ان شكري مجنون فنحن أرفق به من أن نصدمه بذلك وأعرف بحاله وبأمراض العقل من أن نهيجه الى الخبال بالايحاء والتذكير والألحاح ولكننا نقول ان ذهنه متجه أبدا الى هذا الخاطر — خاطر الجنون — وان فكرته مائلة لجو حياته والخوف منه منغص عليه كل لذاته وعلالاته وانه حتى في طعامه يتوخى ما يظن أو يقال له انه يكفل اتقاء هذه النكبة أو يساعد على المقاومة كالسمك والبيض والمخ وأشباه هذه الألوان — وان ذكر هذا اللفظ على مسمع منه يدخل في روعه انه هو المعني به فيمتقع — ولا يخفي ان اتجاه الذهن له دلالة خاصة وهو قرينة قلما تخطىء اذ لماذا ينصرف المرء الى خاطر بعينه لا يعدوه في روحاته وغدواته وفي طعامه وشرابه ويقظته ومنامه وفي أقواله وكتاباته من شعر ونثر — أو منظوم ومنثور على الأصح — ولكن اتجاه الذهن لا يصح ان يؤخذ به وحده في البت بأن المرء صائر لا محالة الى آخر الطريق . وأكثر أهل الذكاء فضلا عن العظماء فيهم شيء كثير من الشذوذ والجنون والعبقرية بسبيل وهما في الحقيقة صنوان وحالتا العقل فيهما متماثلتان فالعبقري ذهنه مكظوظ بالآراء حافل بالذكريات يتمخض أبدا عن ادراك علاقات بين الحقائق والأصوات والألوان لا تفطن اليها عقول الأوساط . والمجنون في ذلك نده وقريعه وكلاهما ترجع مميزات تفكيره وعمله الى فرط النشاط في بعض نواحي المخ أو فتورها أو قابليتها للتنبه والتهييج وكثيرا ما تنقلب العبقرية جنونا

والجنون عبقرية وقد فطن الاقدمون الى هذه العلاقة ولحوها وان كانوا لم يتقصوا كالمحدثين غير أن جنون العبقرية منتج يخرج – كما يقول افلاطون–الشعراء والمخترعين والأنبياء أما الجنون المألوف فهذا عقيم نعيذ صاحبنا شكري منه . ولا ينبغي أن يتوهم أحد ان العبقرية هي الجنون فليس افحش من هذا الخطأ ولا اقتل من ذلك الظن لان العبقرية قوة زائدة عن نصيب الرجل العادي وقلما يؤتاها المرء ولا يصحبها نوع الاضطراب في التوازن العقلي والعصبي .

قلنا ان ذهن شكري متجه الى هذا المعنى وقد يكون هذا غير راجع الى علة أصيلة فيه الى ما يجشم نفسه من المتاعب ويحمل عليها ويرهقها به كأن يكتب جزءاً من ديوانه في شهر واحد حتى كأنما هو مأجور على ذلك ومشروط عليه ان يتمه في وقت محدود . وقد كانت نتيجة ما أصابه من الكلال ان حدثته نفسه باحراقه بعد طبعه ومع ذلك لم يعمل بنصيحتنا ولم يعط نفسه حظها من الراحة ولا عرف لجسمه وجهازه العصبي حقهما عليه وظل يخرج للناس الجزء تلو الجزء كأنما يخشى ان يخب به المرض ويوجف بعقله الداء فلا يستطيع ان « يصدح بالشعر ويسخر بالناس » ! وماذا أجناه كده ؟ كان كل جزء يصدر فكأنما هو حجر وقع في بئر فلا هو « صدح » ولو في حمام ولا استبقى قوة جسمه واستواء عقله .

والى القراء أمثلة لذلك . قال من قصيدة « الحب والموت » :

حنينـــــي الى وجه الحبيب جنـــون
جنـــــون يهيج القلب وهو شجـــون

وقال من قصيدة الدفين الحي :

فهاج هيـــاج الشر في الأسر طرفة
وأدركـــــه حتى المـــــات جنون

وقال من قصيدة غابة الحب :

وان كنت عندي جئت بالعقل والحجى
وان لم تجيء فالقلب مجنون ثائـــــر

ولكـــــن وجدي منك جـــن جنونه
فهـــا أنا من حبـــي بحسنك هائر

وقال في « طبع الانسان » :

ان بالمـــــرء جنـــونا جاعـــــلا
نـــــوبة للشر فيه تحتـــــدم

لا ينـــــال البرء من نوبتـــــــه
أو يـــــذيـــع الشر منـــــه والألـــم

وقال من « مرآة الضمائر » وكان له في البيت معدى عن لفظ الجنون :

وفـــــي كل وجه من جنـــون ومن أذى
مـــــــلامح لاتخفـــــي تناديك بالجهر

اذ من الذي يستطيع ان يدعي أن في كل وجه ملامح من الجنون ظاهرة ناطقة ؟ ومن غير السكران يحسب كل امرئ غيره سكران ؟
وقال من قصيدة « سلوان الجنون »

عســـى ان تجن النفس فيكـــم جنونها
فلا ذكـــرة تصبى ولا فكر يخطر

فان جنـــون النفس سعد وراحة
وان عنـــاء الحب ذاك التذكـــر

فانســـاك حتى لست أدري أعائش
عـلى الأرض تسعى أم دفين معفـــر

فـــان يبلغ الحب الجنـــون فلا تـــلم
أمـــا كل مجنون على الهجر يعـــذر

وقد كان له مندوحة عن تمني الجنون وكان في وسعه ان يطلب الموت أو السلوان ولكنه لشقوته يحسب ان المجانين سعداء لا يكرب أحد منهم خاطر ملح أو وهم جاثم ولو انه سأل طبيبه لعرف منه ان بعض المجانين يعذبون أنفسهم بما يتخيلون وأنهم كثيراً مايخلقون لانفسهم جحيما من الأوهام يصلونها. على أنا لا ندري من أين جاءه ولماذا ظن ان حبيبه سيلومه ويعاتبه على الجنون اذا بلغ الحب ذاك ؟ ولكنه معذور على هذه السفسطة على كل حال والناس كذلك معذورون اذا لم يقرؤا نظمه . وقال من قصيدة صنم الملاحة :

بلـــغ الغـــرام الى الجنـــــون
فـــلا عتـــاب ولا نـــــدم

وقال من قصيدة « الحسود » :

وأدركـــه مسس الجنـــون وأظلمت
عليـــــه السماء والنهار جميل

ومن قصيدة « بالله ما تفعل لو بلغوك » :

بالله ما تفعـــــل لو بلغوك
انـــــي عرتنـــي جنة من هواك
وكيــــــف لا يذهـــب لبى الهوى
اذا مضـــــــت لي أشهر لا أراك

ومن قصيدة « أنا مجنون بحبك » :

أنـــــــا مجنـــــون بحبــــك
فـــــازل غــــلة صبـــك

ومن قصيدة القديم والجديد :

ومــــــن العشق جنـــون خابـــــل
يزدري المـــــرء له وقــع التهــم
انمـــــــا الحب جنـــون وجوى
ورجاء واحتـــــــرام ونــــدم .

وقد ترقى في هذا المعنى من القول بأنه هو مجنون الى نسبة الجنون إلى الناس كلهم الى الحياة نفسها والدهر أيضاً قال من قصيدة « جنون الحياة » :

لا تــــرع فالـــــدهر مجنـــون
كل حــي فيـــــه مغبون
جـــــن مـــن حول ومقــــدرة
وكــــذا ذو الحــول مجنـــون

فتضــــــاحك ثــم قــل أبــدا
ان هــــــذا الدهــــــر مجنون

دهـــــرنــا دار المجـــانيـــــــن
كــــــل حــــي فيــــه مسجون

ومن قصيدة « بعد الحس » :

وكنــت أعــد الحســن فيــك فطانة
وأن جنــــوني في هـــــواك صواب

وقال من قصيدة « وحي الشعر » :

كجنــــــون النعيــم والبؤس فيهــم
وهــــــــي تبــدو لغيــرهم كذكاء

وفسر البيت بقوله « أي عواطف الشعراء تهدي غيرهم ولكن من أجلها يحس الشعراء جنون اللذة والألم » فأنا أشهد الله والناس اني لا أحس هذا الجنون. ولكني أحسبه سينكر عليّ الشاعرية لهذا على الأقل. وقال من قصيدة مشترى الأحلام :

لــــــو يستحيــل المستحيل على الورى
وأنــــــال من أحـــــلامه ما أطلــب

لجننـــــــت جنــة قادر متحكـــــم
يـــرضـــى على هذا الانام ويغضب

فالحمد لله الذي لم يحكم في الناس نزوات جنونه وقال من قصيدة صوت النذير :

أم ضحكة الرجل المجنون من حزن
لشـــد ما نال منك البؤس يـا رجل

حتـــام تنكر حقا غيـــر مشتبـــه
لا يكـــره الحق الا من به دخـــل

وهذا تقييد عجيب فقد يكره المرء الحق ويكون بغضه أياه راجعاً الى أي سبب غير الجنون .

وقال من قصيدة بين الحب والبغض :

وأن بقلبي من جفائلـــك جنـــة
فان رام يـــوما قتـــلكـــم ما تأثما

فأسقـــى جنوني من دمـــائك جرعة
وهيهـــات يجـــدي القتل قلبا مكلما

فيظهر أن حبيبه عرف ذلك منه وأدرك أن جنونه قد يدفعه الى الإجرام فتحري البعد عنه فما أشقاه ! جنونه يغري حبيبه بالهجر والهجر يزيد في جنونه فأين المخرج من هذه الحلقة والى أي حال ينتهي به هذا الدوران ؟ ونحن بعد لم نقلب الا جزءا من ديوانه لا يبلغ عدد صفحاته السبعين وناهيك بما في الأجزاء الأخرى ولم ننقل من شعره الا ما كان لفظ الجنون فيه صريحا لا معناه والا فان هناك أبياتا عديدة تضمنت هذا المعنى وان خلت من اللفظ كقوله :

أمشـــي (أحدث نفسي) عـــن محاسنكم
حتـــى يخـــال حديثي لغـــو نشوان

ليس له عقـــــل فيسكتــــــه

الحـــــب خمري وليس الخمر من شأني

فاذا كان هذا ليس بالجنون فلاندري ماذا يكون وقوله وهو أدهى :

واهتـــــف طول الليـــل باسمك جاهدا

وهاجـــــس هـــذا الذكر داء مخامر

فهو يقطع الليل كله مجتهدا في الهتاف ويعترف بان هذا داء ملازمه لا عرض زائل وقوله .

(غاب رشـــد الناس) عـــن أنفسهم

ضـــــاع منهم تحت اشلاء الرمم الخ الخ

وليس الأمر بمقصور على جولان هذا الخاطر في نفسه وملازمته اياه أبدا وعلى الصياح طول الليل وتحديث نفسه بمحاسن الحبيب في الطريق كالسكارى والأعتقاد بان كل الناس مجانين وأن الحياة نفسها جنت والدهر كذلك وأن لكل شيء جنونا مجنا وأن الزمن دار المجانين ومستشفى مجاذيب وأن الناس كلهم مرضى كما يقول :

فــــي كـــل دار من جــــواد مريـــض

وكـــــل قلــب فيـــه جرح رغيـــب .

كأنمــــــا يريد أن يعتذر لنفسه من استهتاره وما عرفنا أن الأمر كما وصف والحال على ما زعم وأن كنا نعلم أن الحب بنى عليه بقاء النوع ولكن ليس كل حب ذاهباً باللب نقول ليس الأمر بمقصور على ذلك فان شكري على ما يظهر من كلامه بدأ يجرب ما يسمونه هذيان

الحواس وهو –تساهلا في التعبير– مرض يجعل صاحبه يتوهم مثلاً أنه يسمع أصواتا أو يرى أشباحاً تختلف وضوحاً واستبهاما حسب درجة الحالة فاذا أصاب العين رأت مالا وجود له أو الأذن سمعت ما لم يصدر فعلا من الأصوات وقد لا يصحبه أي اضطراب محسوس في القوى المفكرة وان كان لاشك مع ذلك في انه اضطراب محلي في المخ اذا اتسعت رقعته أحدث الجنون وكثيراً ما يصحب بعض حالات الجنون « هذيان الأذن » أي اعتقاد المصاب أنه يسمع أصواتاً أو أن أرواحاً تخاطبه ومن ذلك ما رواه الدكتور نسبت عن بائع كتب في برلين اسمه نيقولا كان يرى جثث الموتى تسير في الطرقات وأشباح الآدميين والحيوان ايضاً وكان يسمع ارواحاً تلازمه بالليل تتخاطب وقد تكلمه ويسأله بعضها عن بعض وقد عولج من ذلك بوضع « اللود » على عنقه اذ كان سببه كثرة الدم الصاعد الى بعض نواحي المخ .

وقد قال شكري – اعاذه الله من شر ذلك – في الصفحة الثانية والخمسين من الجزء الثالث تعليقا على بيته هذا :

او كنـــور البـــدر فضيا لـــــه
وتـــر فـــي القلـــب فضي النغم

« ما رايت القمر الا احسست كان نواقيس تطن في اذني . وان الذ الأنغام رنة الفضة المجوفة » اه .

فهذا كلام لا مجال فيه للتأويل والتخريج وهي فضية في انه في كل مرة يرى فيها ضوء القمر (يطن) في اذنه صوت نواقيس فضية ولنا أن نلاحظ أموراً :

أولها — أن البيت لم يكن يستدعي هذا القول منه لان معناه مفهوم بدونه .

وثانيها — أن ما (يطن) في أذنه « كلما » رأى ضوء القمر ليس له علاقة كبيرة سوى علاقة اللفظ العارض — بتقريره أن ألذ الأنغام رنة الفضة المجوفة خصوصا وان رنتها « ليست » ألذ « الأنغام » وان كانت « أخلص » الأصوات وأصفاها والفرق كبير بين صفاء الصوت وبين حلاوة النغمة . نعم أن الصفاء من عوامل الحلاوة في النغم ولكن خلوص الرنة من الأكدار — مع التسامح في عد الرنة نغمة — لا يمكن أن يعد « ألذ » الأنغام .

وثالثها — انه كلما رأى « ضوء القمر » طن في اذنه هذا الصوت ذو الرنين ويعرف الخاصة وأهل الاطلاع والملاحظة ان « ضوء القمر » مقرون في أذهان شعوب كثيرة بذهاب العقل والهذيان كما يدل على ذلك استعمال هذه العبارة في لغاتها ورابعها انه ان كان صادقاً فيما يزعم فالدلالة هنا كبيرة وقد لا يتردد المرء في الذهاب الى انها مريبة وان كان قد كذب على نفسه فلنا ان نتساءل لماذا يعزو اليها غير الواقع ولماذا اختار من الكذب ما يدل على اضطراب في طائفة من الأعصاب لها اتصال عظيم بالدفاغ ؟

ولو شئنا لامتد بنا نفس الكلام واتسع لنا مجال القول في هذا الباب ولكنا قد أطلنا وان كان التحليل ممتعاً مغريا بالاسهاب والافاضة والملك نجتزىء بملاحظة أخرى وهي أن لشكري كتابين غير دواوينه أحدهما اسمه الاعترافات وليس فيه ما يستحق الذكر الا انه وصفه بأنه « احلام مجنون » والآخر رواية اسمها « الحلاق المجنون » وهي

كذلك تافهة لا قيمة لها وقد احتذى فيها كاتباً روسياً في رواية اسمها « هل كان مجنوناً » وموضوع قصة شكري ان حلاقا ذبح زبونا له لان رأس الزبون تشبه رأس الخروف فأغراه هذا الشبه بذبحه بموساه وهي في الحقيقة سلسلة قصص من هذا النوع مروية على لسان زبائن الحلاق ل ا .

وقد سبق لنا ان نبهنا شكري الى مافي شعره من دلائل الاضطراب في جهازه العصبي وأشرنا عليه بالانصراف عن كل تأليف أو نظم ليفوز بالراحة اللازمة له أولا ولان جهوده عقيمة وتعبه ضائع ثانياً ولم تكن أمامنا في ذلك الوقت كل هذه الشواهد فلعله الآن وقد رأى كثرتها وتوافرها — وهي كثرة مروعة — يرجع الى رأينا ويرتضى ما ارتضينا له وما هو خليق أن يحمده الناس منه فلا يحاول ان يغالب مشيئة الطبيعة التي لا تخلق الأبكم الا وهي قادرة على إلزامه البكم طول حياته ولو « جن » تحرقا على النطق .

ابراهيم عبد القادر المازني

* * *

(الجزء الثاني)　　　　(الثمن ٣٠ مليماً)

الديوان

كتاب في النقد والأدب

تم في عشرة أجزاء

لمؤلفيه

عباس محمود العقاد و ابرهيم عبد القادر المازني

محرر بجريدة الاهرام　　محرر بجريدة الاخبار

فبراير سنة ١٩٢١

ادب الضعف

الادعياء في كل بلد كثيرون وفي كل قطر كالذباب يعيشون عيالا على الادب وحميلة على أهله وذويه ولكنهم فيما نعرف لايعدون الطنين في غير هذا القطر ولايعدو جمهور الناس معهم أن يلحظوهم كما يلحظ أحدنا العناكب ناسجة لها بيتاً بين جدارين فيقول لخادمه أو ربة بيته أزيلي هذا وآتي عليه بالمكنسة ثم لايقرلها حتى ينسى أمره ويذهل عن خبره . أما في مصر فالحال على خلاف ذلك والامر على عكسه ونقيضه . يظهر الدعي فيستولي على الميدان ويخر الناس له سجداً إلى الاذقان ويباهون به الامم والازمان فان سألتهم في ذلك وعلته وماذا بهرهم منه وكيف كان على حد تقصر عنه قوي البشر ومنتهياً إلى غاية لايطمح إليها حتى بالفكر أحالوا وتهربوا وفتحوا أبواباً من التعسف لاتستند إلى أصل ولايعتمد فيها على عقل وظنوا بك الفندوجروا مع أوهامهم إلى آخر الأمد كأنما التوق إلى أن تقر الامور قرارها وتأخذ الاشياء اقدارها شيء ليس في سوس العقل ولافي طباع النفس . وليس الامر بالهين الذي تتأتى مداواته ويستيسر علاج ما يعرض في الاراء منه فان الداء عياء والبلاء عظيم والمصاب كبير . وأصل الداء ومعظم الآفة والذي صار حجازا بين القوم وبين التأمل وأخذ بهم عن طريق النظر مرض في عقولهم شديد الخفاء أورثهم اياه الجهل وما طبعتهم عليه العصور القاسية الماضية حتى صاروا

لا يماكون أن يصغوا لما يقال لهم ولا أن يفتحوا للذي تبين أعينهم أو يأخذوا لانفسهم بالتي هي أملأ لايديهم وأعود بالحظ عليهم وحتى صاروا من كل أمر في عمياء قصاراهم أن يكرروا ألفاظاً لايعرفون لشيء منها تفسيراً ويرددوا ضروب كلام ان سئلوا عنها لم يستطيعوا لها تبييناً وما لهؤلاء نكتب ولا من أجلهم نتكلف أن نكوي عرق الباطل ونخرس ألسنة الكذب والتدجيل وننقض بناء المنكرات والشناعات التي أقامها نفر من الادعياء نشأوا في غفلة الزمن فان من المستحيل أن نرجع بهم إذ سن التفكير والبحث والتقصي وحب الاستطلاع ولكننا نكتب ونشرح وننصب الميزان لمن يحس أنه رزق عينيه ليفتحهما على الاشياء ويجيلهما فيها لاليغمضها دونها وأوتي العقل ليتصرف به في الامور ويتبين النقصان والرجحان ويعرف الصحيح والسقيم لاينكر ذلك حسه ولايغالط في الحقائق نفسه ولايحب أن يستسقي إلا من المصب أو يأخذ إلا من المعدن مؤثراً الغبينة والهزيمة والفشل على احالة الاشياء عن جهاتها وتحويل النفوس عن حالاتها ونقلها عن طباعها وقلب الفطر إلى اضدادها — لهؤلاء الذين هم معقد الأمل ومناط الرجاء نفصل القول ونضع اليد على الخصائص ونسميها ونعدها ونرفع لعيونهم كل قطعة من القطع المنجورة من الجهة التي تكون أضوأ لها وأكشف عنها صابرين على طول تأملهم مغتبطين بعدم قناعتهم إلا بالاقتناع . اذ ما خير مقلد في ظاهر عالم وشاك في صورة مستبين ؟ ؟

وليس في مصر شيء عرض للقوم فيه من قبح التورط ومن الخرق مع الاوهام والذهاب إلى أشنع الشناعات واسوأ المنكرات ما عرض لهم في الادب حتى صاروا اذا عمد عامد منهم إلى الالفاظ وجعل يتبع بعضها بعضاً من غير ان يتوخى في تنسيقها معنى فقد صنع ما يدعي

به كاتباً وشاعراً ومؤلفاً يضن الزمان بمثاله ويعيي الامم مكان نده . وفساد هذا من البداهة بحيث لم يكن يحتاج إلى تنبيه أو أن يتجشم أحد منا اقامة الحجة عليه والتدليل مع التبسيط في الايضاح وتحري البساطة في سوق المبادىء وتفصيل الأصول وما ندري غداً بعد جيل ماذا يكون ظن الناس بالامة اذا رأونا ندلي بالحجه والبرهان على ماالاحاجة به إلى الصفة والتبيان وما صار دستوراً معهم لهم به عن ايضاح الاصول والبداته غنيان ؟ أفلا يعذرون اذا شبهوها بالاطفال تتقاذف النعب وهي تحسبها أدوات النكر والطعان ؟ بلى ولايعرفون ماكنا نستطيعه لو لاموت القلوب وعمى العيون واعوجاج الاذهان .

ولماذا لايرون من أعجب العجب ذلك الذي عليه الادعياء المقلدون في أمر الأدب ؟ خذ من شئت من هؤلاء الادعياء لاتجد في الامر الاعم شيئا تكون الطبيعة فيه قابلة له ثم هو مع ذلك لايرى الذي تريه ولايهتدي لما تهديه . بل ماذا عسى يكون رأى الغربيين اذا اطلعوا على هذه المنكرات الشنيعة التي تتمخض عنها الطبائع الممسوخة والاذهان المنتكسة ؟ ان الجيد في لغة جيد في سواها والادب شيء لايختص بلغة ولا زمان ولامكان لأن مرده إلى أصول الحياة العامة لا إلى المظاهر والاحوال الخاصة العارضة . وكذلك الغث غث في كل لغة في أي قالب صببته وسكبته وبأي لسان نطقته وقد لقينا من التشجيع ما يغرينا بالاسترسال ووجدنا من الاقبال ما قوى الامال في صلاح الحال وهاكم صنما آخر من معبودات الضئال نهدمه ونلقي به بين الاطلال .

ترجمة المنفلوطي

عني السيد المنفلوطي بترجمة حياته فكتبها وصدّر بها الجزء الأول من نظراته وذيلها بتوقيع من لايبالي دسها عليه في كتاباته ونحن لايعنينا هذا الأمر الامن حيث دلالته على طريقة السيد في الاحتيال على الشهرة واقتناص حسن السمعة وعلى اعتماده هو وأمثاله على تأثير الالقاب والمناصب في عقول البسطاء كلما ارادوا ان يزفوا إلى الناس عرائس افكارهم أو يشيعوا إلى قبور صدورهم أموات خيالهم . واذ كان هذا كذلك وكانت وظيفة الناقد أن يرسم صورة صادقة للكاتب ويقدم وزناً عادلا لاثار قلمه ومظاهر نفسه وكان الذي يعنينا من السيد ما خطه يراعه الرشيق وأملاه عقله الرقيق فان الذي يستحق أن يكون على ظاهر الامر مقدماً على سواه وحرياً بأن يستوفيه النظر ويتقصاه هو القول على ما نحل نفسه من الفضائل ثم نتبع ذلك جملة من القول في « بنات » عقله ثم نأتي على ذكر رواياته وقصصه في أثر هذا وذاك على أننا ربما عطفنا عنان الكلام على الاخيرة قبل الأوان توفية للحقوق وبياناً للفروق وكشفا عن الحال وايقافاً للقارىء على مبلغ سعة المجال :

* * *

السيد مصطفى لطفي المنفلوطي رجل شريف جاء إلى هذه الدنيا المزروعة منذ خمسة وأربعين عاماً من أبوين كريمين كرماً يثبته ان أولهما — ولا ندري ايهما يعني ولكنه احدهما على كل حال — ينتهي نسبه إلى الحسين بن علي جد كل معلم ومعلمة ومنافس آدم بكثرة

النسل و « تفاقم » الندرية وثانيهما إلى اسرة جوربجي التركية « المعروفة بالشرف العظيم والمجد المؤثل » .

ولم ير السيد زاده الله شرفاً ورفعة لسوء حظ النقد ان يزيد على هذا في بيان نسبه إلا أشياء ظاهرة لاتحتاج إلا تدوين ولاتحتمل الايضاح والتبيين كقوله انه ولد في منفلوط من مدن الوجه القبلي في جنوب مصر » وان اسرته هناك مشهورة بالشرف والتقوى والعلم والفضل » فان لقب السيد يدل على ذلك ونسبته تهدى إلى معرفة ما هنالك ولكنا نحسبه خشي أن يضل القارىء ويختلط الامر فيتوهمه مقذوفاً به الينا من المريخ — والحق ان له العذر في خوفه اذ ليس في كتابته ما يدل على أنه مثل ابناء آدم احساساً بالحياة وفهماً لها وجرياً على سننها واداء لفرائضها كما سترى مما سنورده عليك بعد ونعود إلى ترجمته فنقول: وليته اذ عنى بهذه التفاصيل البديهية كان قد ساق الينا ما هو حقيق أن يعين الناقد على تقدير أثر العوامل الوراثية في تكوين اخلاقه النادرة التي يصفها بانها « انقباض عن الناس ووحشة يحسبها الرائي صلفاً وكبراً وما هي بالصلف ولكنها الرزانة والوقار والأنفة والعزة والبعد عن سفاسف الامور والترفع عن مخالطة من لاتعجبه اخلاقه ولاتجمل في نظره اطواره وعفة حتى عن مد يده إلى ابويه وسخاء وجود بكل ما تملك يمينه وادب وحياء وحلم يظنه الظان عجزاً وضعفاً فاذا غضب وقليلا ما يفعل فهو الليث ثورة وشجاعة وإيمان قوي كالطود الراسخ وصبر جميل على ما يذهب الحكيم من حوادث الأيام فقد مات له طفلان في اسبوع واحد فسكن لهذا الحادث سكوناً لاتخالطه زفرة ولاتمازجه دمعة ثم ماتت زوجته بعد ذلك فجلس إلى أصدقائه يحادثهم

ليلة وفاتها وكأنما المرزوء سواه وليس أحقر في نظره من ملح المادحين له ولاأحقر في نفسه من انتقاد المنتقدين عليه وليس أبغض اليه من الكذب وكثيراً ماكنت أسمعه (؟) يقول « لاطلعت عليَّ شمس ذلك اليوم الذي يرضي فيه عني الجاهل أو يعجب برأيي البليد الى آخر مالا يستكثر على سليل النبوة العربية والفتوة التركية .

ولكننا بتنا لتقصيره في ترجمته لانعرف مقدار فضل الوراثة ومبلغ الاكتساب في هذه الفضائل وفي كل هذا الادب الجم الذي جعله — كما يقول — والكاتب الفريد الذي يحافظ على اسلوبه البديع في جميع حالاته وشئونه سواء في ذلك المعاني المطروقة لكتاب العربية الاولى أو التي لم يكتبوا عنها شيئاً ولم يرسموا لها اسلوباً مما يدل على أن السليقة العربية منكة من ملكاته لاعارية من عواريه .

وليس في ان يترجم المرء لنفسه من عيب ولاهو ببدعة ممن هو كالسيد الشريف المنسب لايحدث إلا عن نفسه ولايصدر فيما يكتب عن سوى يومه وامسه . ولكن ما هكذا يكتب الناس عن أنفسهم ويتقدمون إلى قرائهم بتراجمهم ووصف ابائهم . وما للقراء ولاجدادك الذين لم تزدنا بهم علماً فيشفع لك ما أفدت في سماجة ما كتبت واقد قرأنا لجيته شاعر الالمان الضخم كتاباً في تاريخ حياته يقع في اكثر من ستمائة صفحة ولانذكر انه أورد اسم أبيه حتى ولا في سياقة الحديث دع عنك خلع حلل الثناء على أجداده . ولوجعل وكده أن يشرح لقارئه أدوار نموه العقلي وكيف تكونت اخلاقه ونزعاته وعاداته وكيف نشأت التفاتات ذهنه وهو ما يعني قراء التراجم . أما الاجداد والأباء فما دام الكاتب لاينوي أن يذكر ولايستطيع أن يعرف عنهم اكثر

من الاسماء فخير له والناس أن يسدل عليهم استار الخفاء حتى لايجمع إلي الجهل أو العجز نقيضة المباهاة الكاذبة أو عيب الادعاء .

على أنه إن فاتنا هذا الذي كنا نحب اذ لانخلو منه الترجمة ولم نعتض منه إلا ما هو منشؤه ثقيل على النفس فان فيما كتب السيد الشريف الجليل العوني التركي الحسيني الجوربجي المنفلوطي الكفاية فانه أعزه الله لم يألنا كشفاً عن ارائه وأخلاقه وفضائله ومحامده وأسرار نفسه ودخائل صدره وهواجس خاطره ولم يضن على قارئه بوصف احواله وكيف يكتب وكيف يأكل ويشرب ويلهو ويلعب ولأي شي يطرب ومم يغضب وماذا يمقت وبم يعجب وغير ذلك مما ليس وراءه زيادة لمستزيد وما بتنا معه في غني عما يبدىء فيه في ترجمته ويعيد من صفات ما كاد يثبتها لنفسه حتى نسي أمهاله فانتحل غيرها في المقالات ؟ ؟

ويالها من شجاعة لاتجعل صاحبها يحفل التهم أو يعنى نفسه بالصدق فيما نحلها من الشيم ؟ فهل تعرف أيها القارىء من أي ضروب الشجاعة هذه فان لها لانواعاً وضروباً ؟ ليست شجاعة الايمان ولاشجاعة يبعثها احترام الذات والاعتداد بالنفس كلا ولاشجاعة الطيش وإنما هي شجاعة . . . الطعام ؟ ؟ نعم والموائد الممدودة والاخونة المنصوبة وانك أيها القارىء اذ تنكر هذا القول علينا وتمط شفتيك وتزوى ما بين عينيك لتدل بذلك علي أفحش الجهل وأفضحه بأسرار فعل الطعام ولكنك اذا ساءلت نفسك ماذا عسى أن يخشى السيد الشريف الحسيب النسيب بعد أن يجمع حول مائدته الأسبوعية فيمن يجمع هؤلاء المتسولة من أصحاب بعض الوريقات القذرة ويملأ لهم بطونهم كنت حقيقاً

الذ.تفهم ما نريد من شجاعة الطعام . اتراك لم تسمع بالمثل العامي القائل « أطعم الفم تستحي العين » ؟ وماذا صنع السيد اكثر من الجري على السنن العامية في كل شيء ؟ في كتابته وفي معاشرته وفي اتقائه الالسن — وهذا هو السر — فاعلمه — في أنك لاتسمع به في هذه الوريقات ولاتراها تلهج به مادحة ولاقادحة .

ومن ظريف ما نرويه في هذا المقام أن السيد سمع بعزمنا على اخراج هذا الكتاب فجاء يدعونا إلى مائدته وأرسل يلح علينا في تشريفه فلم ينقذنا من الحاحه ولم ينجنا من موقف الغدر ونكران جميل مائدته إلا المرض ؟ فما أحسن المصائب في بعض الاحيان ؟

* * *

الحلاوة والنعومة والأنوثة

وبعد فماذا في كتابات المنفلوطي مما يستحق أن يعد من أجله كاتباً أو أديباً إلا إذا كان الأدب كله عبثاً في عبث لاطائل تحته ؟ سمعت بعض السخفاء من شيوخنا المائقين يقول « ان في اسلوبه حلاوة » ولو انه قال « نعومة » لكان اقرب إلى الصواب ولو قال « انوثة لاصاب المحز . وهذا كلام يكاد بعده من لاعهد له بغير كلام المقلدين من الالغاز والاحاجي فلنفسره لفائدة الناشئة ان لم يكن لفائدة ذاك الذي لانرجو منه خيراً . قال مهيار :

فيـــارب قلـــد دمــــي مقلتي
بمـــا نظـــرت واعـــف عن قاتلي

هنيئـــاً لحبـــك ــ ذات الوشـــاح
دم طـــل فيـــه بـــلا عـــاقل

وحبي ذكرك حتى لثمت مسلكه من فم العاذل .

هذا مثال للنعومة ــ كلام مصقول لَيِّن الانحدار تستطيع ان تعرف مقدار الصنعة ومبلغ الصقل فيه اذا نثرته وتأملت ما تحاشاه الشاعر من الالفاظ مثل مخرجه مكان مسلكه . وهو بعد اذا تدبرته لم تشعر ان وراءه شيئاً لا من العاطفة ولا من المعنى ، وغاية ما في الأمر ان صاحبه اراد القول في هذا المعنى بغير باعث من النفس فهو عبث محض ولما

كان الشاعر قد اعوزته العاطفة هنا ونقصته البواعث فقد لجأ إلى الاحتيال والصنعة وحسب الافراط في الرقة يكسب الجمال ويغني عن الاحساس به فقلب كل شيء وحمل عينه ذنب النظر إلي الحسن ودعا الله ان يبرىء المقتول بالقاتل تناهيا في اللين وذهابا إلى أقصى المدى في الطراوة ولاقتل هناك ولاقاتل ولادم مطلول بغير عاقل وانما هو التطري والرخاوة ثم ذهب يقول أنه لفرط حبه لذكرها قبل فم العاذل حين جرى لسانه بحديثها وهو من سخافات التطري ويكفي لادراك مبلغ السخافة أن تتصور مثل هذا المنظر حادثاً واقعاً . وأمثال هذا كثير في غزل المقلدين والعابثين لأنهم لما فاتهم صدق السريرة لجأوا إلى الصقل وضحوا في سبيله الرجولة والعقل ومهيار بعد من الفحول أو هو على آثارهم ماض . وهو من القليلين الذين ينم شعرهم عن بعض الادراك للفرق بين مذهب العرب في الشعر ومذهب الآريين أو الفرس فقد كانوا لايعرفون الاعربا وعجماً . يدل على ذلك قوله يصف شعره :

حلـى مـن المعـدن الصريـح إذا
غـش تجـار الاشعـار ما جلبـوا

يشكرها الفرس في مديحك للمـ   عنى وترضي لسانها العرب

فكأنه لم يغب عنه عناية العرب باللفظ وإكثارهم شأنه وذهاب غيرهم إذ المعني قبل اللفظ وله مالا يكاد يداني في حلاوته وعذوبته كقوله :

اذكرونـا ذكرنـا عهـدكمـو
رب ذكرى قربـت من نزحـا

وقوله :

آه علـى الرقـة في حدودهـا
لـو أنهـا تسـرى إلى أكبادهـا

فاذا كان مهيار وهو من علمت يقع في هذا فما ظنك بالمتأخرين والعابثين الذين افتتنوا في العبث كشعراء اليتيمة حتى ليخيل للانسان أنهم كانوا يتبارون ليروا أيهم أعظم تطليقاً للعقل واتياناً بالمستحيل ونسياناً لاحكام الحياة . أما الحلاوة فتجدها في مثل قول الشريف الرضي :

انـت النعيـم لقلبـي والعذاب لـه
فمـا أمـرك في قلبـي وأحـلاك

وقوله من القصيدة عينها :

عندي رسائل شـوق لسـت أذكرهـا
لولا الرقيـب لقـد بلغتهـا فاك

وليس يمنعك ان تتذوقها من البيت الأول ذكر المرارة فانها هنا أخف ما تكون وليست كل القصيدة من هذه الطبقة ولعل التمثيل لذلك من الشعر الحديث أو الغربي أجدى وأنفع في تبيين المراد ولكننا لانحب أن يفهم احد اننا قوم افتتنا بالغرب حتى ذهلنا عن محاسن العرب ولا ان يظن بنا الاعلان عن النفس وان كان لاغضاضة في ذلك مادمنا ندعو إلى حق وقوله صدق .

ومرجع هذه الحلاوة إلى ماترى من التنوع في الاطراد وإلى احساس الشاعر باللذاذة والحسن احساساً هو مزيج من الاعجاب

والطلب . خذ البيت الأول مثلا (أنت النعيم) وتأمل اطراد العاطفة في مصراعيه وتوازن قوتها في شطريه وكيف أنه مع هذا الاطراد والاستواء يمجؤك بالتنوع من حيث لايصدمك . ويريك وقعين مختلفين ولكنهما غير متنافرين لأن العبارة موزونة على قدر الاحساس لااكثر ولاأقل ولو انه كان قال « انت النعيم لقلبي والجحيم له . فما أمرك الح » لاحسست التنافر واختلاف القوة في الشطرين ولما استعذبت منه قوله « فما أمرك الخ » بعد لفظة الجحيم . وتأمل في عقب هذا القول المسكين شكري يصف جميلا ويبالغ في (حسبه)

كأنمـــا صاغكـــم كيمـــا يحبكمـــو
يا فتنـــة الحســـن قـــد جـــار الهوى فينا

يعني الله في صدر البيت — فانك تحس اد تنتقل من الشطر الاول إلى الثاني كأنما قذف بك من رأس جبل أشم فهنا لااطراد ولاتساوق وكأنما صادف ماء البيت انحداراً مباغتاً وكأنك بين مصراعيه على ارجوحة غير مستوية .

وتدبر بيت الشريف الثاني وابصر تحريه الدقة في العبارة عن مقصوده تحرياً اكسب البيت الاستواء والاطراد وتأمل كيف عبر بالشوق حيث يدس العابثون والمقلدون أقوى الالفاظ وأشدها من غير حساب كالجوى والصدى والحنين والنزاع وغيرها مما لم يكن يعجز الشريف عن حشره في البيت لو كان مثلهم فساد ذوق وضعف طبع وسليقة . ولست تأخذ من البيت أكثر من العبارة عن الاعجاب وهو من أخف مراتب الحب وأولها ولا اكثر من الرغبة المعتدلة

لاالجامحة ومن اشتهائه التقبيل اشتهاء لاينبو مع ذلك في زمام الارادة فالتناسب تام بين أنواع المعاني والاحساسات المتنوعة التي ضمنها البيت — من اعجاب واحتشام واشتهاء والتشاكل كامل والاستواء بالغ الغاية ، دع عنك عذوبة التعبير عن القبلة وسلامة الذوق وحسن المعنى في الكناية عنها بأنها رسالة لاتبلغ إلا للفم ومراعاة ذلك وامتناعه عن ذكرها عن بعد واذا أردت أن تعرف الفرق بين حلاوة الطبع وافساد التصنع فقارن قصيدة الشريف الرضي التي يقول في مطلعها:

يا ليلــة السفــح الاعادت ثانيــة

سقــى زمانــك هطــال مــن الديم

بقصيدة الطغرائي التي احتذاه فيها وترسم مواقع اقدامه وليس يسعنا ايراد القصيدتين ولكنا نجتزيء بذكر البيت من قصيدة الشريف ونعقبه بما قال الطغرائي مجاراة له . يقول الشريف :

قــــدرت منها بلا رقيبــــي ولا حذر

على الــذي نــام عن ليلــى ولم أنــم

فيأخذه الطغرائي ويحرج صاحبيه ان كان لهما وجود :

يــــا صاحبــي أعيناني على كلفي

بمــــن تناوم عن ليلــى ولم أنــــم

ويقول الشريف يصف ليلته معها :

وأمســـت الريـــح كالغيرى تجاذبنا

علــى الكثيـــب فضول الريـــط واللمم

يمشي بنا الطيب أحياناً وآونة
يضيئنا البرق مجتازاً على أضم

فيسطو عليه الطغرائي ويصوغهما في اربعة ابيات مرذولة :

بتناوبات الصبا وهنا يغازلنا
وفرشنا الرمل وشته يد الديم

والليل يكتم سري والصبا كلف
بنشر ما كاد تطويه يد الظلم

يا نفحة الريح باتت بين أرحلنا
بالجزع تسلك بين العذر واللمم

نميت طيباً وأغريت الوشاة بنا
يا حبذا أنت لو لم تقتدي بهم

ويقول الشريف :

واكتم الصبح عنها وهي غافلة
حتى تكلم عصفور على علم

فيضعه الطغرائي في هذا البيت المنحوس :

وغاب عنا غراب البين ليلتنا
فناب عنه عصيفير على علم

ويقول الشريف :

يولع الطل بردينا وقد نسمت
رويحة الفجر بين الضال والسلم

وآذنتنا بقـرب الفجـر ناشئـة

باتت تحرش بين الضال والسلـم

ويقول الشريف :

بتنا ضجيعين في ثوبي هـوى وتقى

يلفنا الشـوق من فرع إلى قـدم

فيأبى ألا أن يعف عفته ويجيء بهذا البيت المنثور السخيف :

ورق لي قلبـه القاسي ومكننـي

ممـا أريـد فلـم آثم ولم ألـم

ويقول الشريف في غير هذه القصيدة :

أنـت النعيم لقلبـي والعـذاب له

فمـا أمرك في قلبـي وأحـلاك

فلا يرى الطغرائي أن يتركه في قصيدته دون مسخ :

طاب الهوى في الجوى حتى أنسـت به

فهـو المرارة يحلـو طعمهـا بفمـي

فيخلط ويحسب الشريف إلى هذا قصد ، ويقول الشريف :

ولااستجد فؤادي في الزمـان هـوى

الا ذكرت هـوى أيامنـا القـدم

والذكرى طبيعية ولكن فساد ذوق المقلد الطغرائي يأبى له الوقوف عند حد الطبيعة :

تريد أن استجـــد الحب بعدهـــم
والحب وقف عـــلى أحبابنا القدم الخ الخ

وشتان بين كل بيت ونظيره . كلام الشريف مستقيم المعنى والاداء وأبيات الطغرائي لايسيغها المرء إلا بعناء . والفرق بين الكلامين أوضح من أن يحتاج إلى جلاء . ولعل القارىء قد رأى مما أوردنا أن الحلاوة لاتتفق مع العبث والتكلف ولا مع اضطرام العاطفة ووقدتها

* * *

ولست بواجد شيئاً من هذه الحلاوة في كلام المنفلوطي سواء في ذلك شعره ونثره لأنه متكلف متعمل يتصنع العاطفة كما يتصنع العبارة عنها وقد اسلفنا أن وصف اسلوبه بالنعومة أقرب إلى الصواب ولكنه ليس كل الصواب لانه متجاوز ذلك ذاهب إلى أدنى منه وليس أدنى من ذلك إلا الانوثة وهي أحط وأضر ما يصيب الادب ولكنها مع الاسف تجوز على فريق من الناس يلتذونها ويسيغونها ويعجبون بها ويبلغ من استحسانهم إياها أن يشجعوه ويغروه بالكد في ابراز ما ليس أقتل منه للرجولة ولاأعصف .

قال المنفلوطي في مقدمة عبراته :

« الاشقياء في الدنيا كثير ، وليس في استطاعة بائس مثلي أن يمحو شيئاً من بؤسهم وشقائهم فلا أقل من أن اسكب بين أيديهم هذه العبرات علهم يجدون في بكائي عليهم تعزية وسلوى »

وأحسبه توقع أن يكبر الناس منه هذه الرحمة ويعجبوا بهذا القلب الذي شغل عن مطالب الحياة بالدق عطفاً على المساكين أمثاله

ولو شاء لقال أن الناس جميعاً كذلك ان كان يريد أن يذهب إلى هذا المعنى لان كل أمرىء طالب محروم . ولكن وظيفة المرء في الحياة ليست ان يكون ندابة فما لهذا خلق بل وظيفته أن يغالب قوى الطبيعة ويصارعها لان الاصل في الحياة هو هذا الصراع وتلك المغالبة وهي قائمة على ذلك ولاسبيل اليها بدونه ، بل هي تنتفي اذا امتنع وبطل

وهذا شيء يعرفه كل أحد ويحسه كل حي . وقد فطن اليه الاقدمون البسطاء الذين كانت تنقصهم وسائل الاستدلال العلمي على ذلك واثباته في مظاهره ومن أيات هذه الفطنة – فطنة عميقة مستولية على النفس – انهم قالوا ان في الوجود قوتين متنازعتين أبداً قوة الشر التي تطغي بالليل وتجاجل في الرعد وتقذف بالصواعق وتبتلي بالجذب والمحل والاوباء والارزاء والفناء وما يدخل في ذلك ويتفرع منه وقوة الخير التي تسح بالغيث وتفيض نور الشمس وحرارتها وتجود بالخصب والحياة إلى آخر هذه المعاني وقد رمز الفرس للأولى بأهرمان وللثانية بأرمزد .

ومثل هذا واضح في جميع الاديان وان تغيرت الاسماء وتبدلت النعوت وما ابليس ان فكرت الا اسم آخر لاهرمان والارمز لقوة الشر الخارجة على قوة الخير المغالبة لها .

بل ذلك ملحوظ في خرافات العجائز وقصصهن حتى لعهدنا هذا وفي أوهام العامة التي تعزو الامراض إلى فعل الشياطين وفي خوف الاطفال من الظلام وفزعهم من الوحدة فيه وتهيبهم السير في دياجيه . ولماذا يفزع الفازع من الظلمة ويتهيب القفار والغاب والدور المهجورة والخرائب والمقابر ؟ أليس هذا أثراً من الاعتقاد الاول بأن هذه مظاهر

قوة الشر كما كان يفهمها القدماء ؟ فالحياة مبنية على المغالبة ولكن هذا الذي يحسه الأطفال والعامة والذي فطن اليه الاقدمون السذج بغرائزهم وفطرهم السليمة لايدركه المنفلوطي المسكين الذي يحسب ان ليس له من عمل في الدنيا إلا البكاء على الاشقياء كأنما خلق الرجل أضعف من الدودة الجوالة في جوف الثرى وعسى قائل يقول : إن هذا منه فرط حب للأنسانية وهي فضيلة لايقلبها رذيلة أن صاحبها بالغ وغلا في الامر انما يغرق في النزع ليبعد المرمى ويجاوز القصد في التصوير ليكون أبلغ في التأثير ويتناهى في الدعوى استدناء للغاية القصوى هكذا يصنعون اذا ارادوا التضليل أو الاعتذار لانفسهم من الانخداع بمثل هذا التدجيل وهو شعب من القول يحتاج إلى كلام تدخل فيه مسائل قد يقطع استقصاؤها عن الغرض لان الانتصاف منها لايتأتي إلا باستعانة العقل والعلم عليها . ولكن لابأس علينا من ذلك فلننظر ما معنى قولهم هذا اذا ترجمناه إلى لغة العلم ونظرنا اليه في ضوء الاستقراء الحديث .

ما هي أخلاق المنفلوطي؟هي بالفاظه ـ أو إن جادل فيما ارتضى أن يوصف به من الالفاظ ـ انقباض عن الناس ووحشة ـ عفة حتى عن مد يده إلى أبويه ـ كرم في الخلق طالما كان سبباً في وصول الاذى اليه ـ حلم يظنه الظان عجزاً وضعفاً ـ صمت طويل يحسبه الناظر عيا ـ مارؤي يوماً من الايام ملماً بما يفسد عليه دينه أو مروءته ـ صبر على مايذهب بلب الحكيم ويطير برشد الحليم (١) مات له طفلان في

(١) قال لسنج الشاعر الناقد الألماني من لا يفقد عقله أمام بعض الحوادث فليس له عقل يفقده »

أسبوع واحد فسكن لهذا الحادث سكوناً لاتخالطه زفرة ولاتمازجه دمعة على شدة تهالكه وجدا عليهما — وليس أحقر في نظره من المادحين له ولا أصغر في نفسه من انتقاد المنتقدين عليه — لو ان الناس أجمعوا على انتقاد خلة من خلاله لما ثناه ذلك عنها ولو أنهم اتفقوا على رأي مناقض لرأيه لما نال ذلك من عقيدته — ليس أبغض اليه من الكذب — يحب حتى العتاب المر والتقريع المؤلم مادام المتكلم صادقاً — يطلب من الناس غير ما يطالب بعضهم من بعض — ان كان في اخلاقه مأخذ ففي هذا الخلق خلق النفرة من الناس والعجز عن احتمالهم ولبسهم على سوءاتهم — وظني يتهالك وجداً في حب وطنه ويذرف الدمع حزناً عليه — الخ . . .

ولاتنس أنه جريء جرأة معدومة النظير في التقحم على حياء الناس بهذه النعوت الغالية وأنه محب مفرط الحب للانسانية — فيلا نثروبست — وان أسرته مشهورة بالتقوى وان ابناءه يموتون في غير السن التي يكون فيها الأهمال والجهل سبب الوفاة المباشر في الأغلب والأعم .

فكيف تصف هذه الاخلاق أيها القارىء ؟ ؟ إما ان تكون مصدقها فننتظر في دلالتها أو مكذبها فيكون حسبنا ذلك منك رأياً لنا .

أخلاق نادرة ؟ نعم ليس أندر منها مجتمعة وان اتفقت للناس متفرقة ! ولكن الامر أكبر من ذلك وأبعد مدى وأعمق . هاك دلالة هذه الاخلاق الرائعة النادرة في نظر الدكتور نسبت قال :

« ولما كانت التقوى في الاغلب من اعراض الحالة التشنجية وكان الغرور وكثير من الخصائص البسيطة أوالمركبة توجد في حالة غير عادية من النمو اذا كان الجهاز العصبي غير سليم فليس من المدهش ان يكون

البخل من أعضاء ما يسميه « فيرى » اسرة الامراض العصبية وحب الانسانية — فيلانتروبي — نفسه مما يجري هذا المجرى وقد كان (هوارد) مصلح السجون جباراً في بيته وكان له ابن مجنون . ومثل هذا يقال عن الانانية أيضاً وشرح هذه الحقائق فيما أسلفنا عليه القول على الارادة . وذلك أن بعض مراكز المخ — واحداً أو أكثر — تكون قاصرة عن تلقي المؤثرات أو الاجابة عليها فتسود في حيز الادراك طوائف معينة من الاراء أو تصير الغلبة لنزعات معينة مستقلة عن الادراك . وهناك قوم — كما يقول المثل — لايصغون إلى داعي العقل ولايحسون إلا أنفسهم ومصالحهم . وآخرون يبلغ من تضحيتهم بالنفس وانكارهم الذات أن يخرجوا — بغير مبرر معقول — عن كل متعهم وكل ما ملكت أيمانهم لفائدة جيرانهم مثلا ، وكلا الفريقين من مرضى الاعصاب كالممعودين أوالمصابين بالتشنج . ويقال على العموم ان الاعتقادات الحادة القوية تصاحب الضعف أو المرض أو الاضطراب العصبي وعلى العكس من ذلك ترى الموفور الصحة متسامحاً بالضرورة متعدد جوانب الرأي »

فما قول المحتج للمنفلوطي في هذه الكلمة التي كأنه كتبها صاحبها لما نحن في صدده وأيهما خير فيما يري لصاحبه ؟ ان تؤمن بصدقه فيما نحل نفسه من الصفات النادرة والخلال الغريبة فيلزمه حكم الدكتور نسبت ويدخل حظيرة المرضى والمبتلين في أعصابهم أم تقول كذب فيما ادعاه لنفسه وان ما به ليس ايثاراً وحباً للانسانية متجاوزاً به حدود التقصد والاعتدال بل أنوثة يتوخاها في الكتابة وتكلف بين وتصنع لكل عاطفة وتدجيل على الناس ومخادعة لهم واستصغار لاحلامهم واستهانة بعقولهم ؟ ؟ لسنا نتشبث بأحد الحكمين فليختر

القارىء لهذا الكاتب أخفهما وأهونهما في رأيه فسواء لدينا هذا وذاك والنتيجة بعد واحدة .

« الاشقياء في الدنيا كثير وليس في استطاعة بائس مثلي أن يمحو شيئاً من بؤسهم وشقائهم »

سوداء ما أشدها وظلمة يأس ماأحلكها وإحساس بالعجز المطلق والقصور التام . وما أبعد هذا عن الكآبة الطبيعية المعقولة التي تعشى النفس أحياناً ويكون مردهاً إلى ما يلقاه المرء من الخطوب في حياته أو في علاقاته مع أسرته أو بيئته وأوساطه والتي لاتمنع ان يكون الانسان موفور النشاط والمراح صحيح النظر إلى الامور صادق الرزن لاقدارها . نعم من الطبيعي أن يكتئب مثلا من يحتسب طفلا له كان يشيم الخير من لمحاته ويأنس الرشد من سماته أو من يرى نفسه منبوذا من الناس افقره أو ضعة قومية في أبيه أو من يمنى بالفشل في بعض ما يعالج أو نحو ذلك ولكن هذه السوداء اليائسة التي تصور لصاحبها الحياة كأنها مستشفى عجزة ودار أيامى ومفجعين ينقطع للبكاء عليهم — أي تعليل لها من الاحوال التي تكتنفه هو أو سواه ؟ وأي باعث عليها غير عدم التلاؤم بين المرء والبيئة ؟

خذ مثلا للدلك مفتاحاً وقفلا تعالج أن تفتح هذا بذاك فتفشل ولايخرج الامر عن ثلاثة احتمالات فاما أن يكون العيب في المفتاح كأن يكون مكسوراً أو أن تكون أنبوبته مسدودة أو أن تكون أسنانه بالية وإما ان يكون الذنب ذنب القفل كأن يكون لسانه قد سقط في جوفه أو أن يكون شيء فيه خرج عن موضعه وعاقه عن العمل او أن يكون الصدأ عطله وأنت في كلا الاحتمالين لاتستطيع أن تفتح القفل ولكن هناك احتمالا ثالثاً وهو أن تنحرف بانبوبة المفتاح عن

حديدة القفل أو أن تديره فيه مقلوباً أو أن لاتبلغ باسنانه اللسان ولا يكون العيب في هذه المرة راجعاً إلى القفل أو المفتاح بل الخطأ في عملية الفتح :

أوهبني غضبت : فالأمر في هذه الحالة لايعدو أحد فرضين : ان يثير غضبي رجل مثلا بعمل مسيء فاذا كان إحساسي مناسباً لدرجة الاساءة ومتكافئاً معها كان ذلك مني طبيعياً ولكن لنفرض ان الامر جاوز المعقول وان الغضب هاجه ما ليس فيه اساءة وهو الفرض الاخر فنعود إلي مثال المفتاح ونقول اما ان تكون الظواهر الخداعة أو الانباء الكاذبة قد حملتني على اعتقاد القصد إلى الاساءة وتعمد الايذاء فيثير في نفسي ما يحيط بي مثل ما يثيره الايذاء لو كان واقعاً ويكون عدم التلاؤم بين الاحساس والعمل راجعاً إلى الوسط والعيب عيب القفل — او أن يكون العمل في ذاته غير مقصود به الا الخير كان يرتب لك خادمك اوراقك في غيابك ولكنك لما لقيت في يومك من النصب او لعسر هضم تعانيه تخرج عن طورك ويبلغ غضبك مبلغاً لايتناسب مع الظروف — اي لايلائمها وفي هذه الحالة يكون عدم التناسب بين الاحساس والظروف مرجعه إلي علة فيك والعيب عيب المفتاح اذ كان قد هاجك مالا يهيج فاذا اصبحت في اليوم التالي وقد سرى عنك وسكنت نفسك وهدأ ثائرك وبدا لك تهورك فقد اعدت التوازن بين الاحساس والحادثة ولكن اذا ظل غضبك في الصباح كما كان في المساء وطردت الخادم فان المسألة تخرج عن كونها عدم تناسب بين الاحساس والحادثة وتصبح عجزاً عن اعادة التوازن بينهما يدل على ان « عملية » الموازنة أو الملاءمة مضطربة :

وهذان المثلان ينطبقان على عدم التلاؤم بين المرء والبيئة على العموم فقد يكون انتقاء ذلك راجعاً إلى علة عضوية او إلى ان للبيئة احوالا ليس لها المرء بكفاء او هو يجهلها أو لايعرفها معرفتها وفي كلتا هاتين الحالتين يكون العيب في القفل أو المفتاح ولكن اذا كانت البيئة ليس فيها من الاحوال الا ما يستطيع أن يكافحه الرجل العادي وكان المرء قادراً من الوجهة الجسمية ولكنه يعجز مع هذا أن يلائم بين نفسه وبينها فأن الفشل في هذه الحالة لايكون مرجعه إلى عدم كفاية أو عيب في هذا العامل او ذاك بل إلى فساد عملية الملاءمة ذاتها ومعنى ذلك ومدلوله يعرفهما كل طبيب وهذا الفساد تصحبه ابداً ثلاثة مظاهر : اضطراب الاجهزة العصبية والاضطراب في السلوك والاضطراب في الادراك ويدخل في هذا ما يعتور الفكر والاحساس والشعور بالذات وبعلاقة المرء بالوسط وهي أشياء على أوضح ما تكون في قصص المنفلوطي كما سنرى فيما يلي .

العبـــرات

قصة اليتيم

ونعود بعد هذا الايضاح إلى ما كنا بدأناه من الكلام على عبراته فنقول انها على نوعين : منها طائفة مترجمة عن أمثاله الضعفاء الذاهبين مذهب التصنع والافراط في الرقة والانوثة والباقي موضوع وهو في كليهما ملفق مستحيل التلفيقات ــ حتى فيما هو مترجم منها يأبى له ذهنه المنتكس الا يغير ويبدل تبديلا كبير الدلالة . وقد قرأت له هذه العبرات فوجدته في كل قصة تقريباً بينما هو جالس في مكتبه الذي كأنما صار ملتقي كل صوت ولاقط كل نبرة وموجة أثيرية اذا به

يسمع انيناً أو حنيناً أو صوتاً خافتاً أو توجعاً أو زفيراً أو نهيقاً أو شيئاً من هذا القبيل فيطل من نافذته السحرية فيرى فتى فيما شاءت له تلفيقات أوهامه ومنكرات أحلامه — من العمر ملقى يتوجع على سرير أو حصير فيذهب اليه ولايزال به حتى يقص عليه أمره ويروى له خبره ويكشف له عن مظاهر أنوثته ثم يموت الفتى — وهو ما لاباء منه في كل حكايات المنفلوطي فما أعظم شؤمه على أبطاله — فيغسله ويلفه في الاكفان ويحمله إلى قبر يدفنه فيه وينثر عليه دمعة من دموعه التي كأنما لها « زر » في تضاعيف ثيابه يضغط عليه فتنحدر وتسيل وإن كان لم يبك على طفليه اللذين ماتا في اسبوع واحد ! !

فيا لله ما لهذا الحانوتي الندابة وللادب الذي هو حياة الامم وروحها وباعث القوة فيها ونافث الحرارة في عروقها وحافزها إلى أجل المساعي ؟ لقد كان المنفلوطي يستطيع أن يتعظ بمصير أبطاله المخنثين — ان جاز الجمع بين النعتين — وبموتهم في شرخ الشباب وميعة العمر وكان في وسع قرائه ان يعتبروا بهم لولا سقم اذواقهم ومرض نفوسهم ولكن لكل كاتب قراءاً على شاكلته منسوجين على منواله وان اخوف ما نخاف على هذه الامة أن تجد هذه الجراثيم ثرى صالحاً في نفوسها في وقت هي أحوج ما تكون فيه إلى من يبذر فيها بذور القوة ويدفعها إلى تطلب الحياة العاليه .

كتب جيته الشاعر الألماني رواية « أحزان فرتر » وهو في التاسعة عشرة من عمره أي قبل أن ينضج ويستكمل الرجولة فراجت واشتهر أمرها وانتشر بها الصيت إلى كل ركن وذهب بها السمع في كل زاوية في العالم الغربي ونقلت إلى جميع اللغات الحية ولكن واضعها

الذي كان حقيقياً أن يزدهي بهذا النجاح و ان يفتتن بما وقفت اليه باكورة أعماله من الذيوع واستفاضة الذكر وان يغريه ذلك بالمضي في هذا السبيل وبتقليد نفسه مرة ثانية وثالثة — ظل إلى أن مات لايندم على شيء ندمه على وضع هذه الرواية ولايخجل من عمل له خجله منها حتى لقد تمنى لو استطاع أن يجمع كل نسخها من أيدي الملايين من قرائها ليوكل بها النار ! !

ولماذا كان يخجل منها ويشعر انها وصمة لرجولته ؟ ؟ لأن فرتر بطلها انتحر من أجل خيبة في ميدان لهو وغرام ! والحياة أجل من ان يقطع المرء حبلها لخيبة امل كائناً ما كان أو ان شئت فقل هي اهون من ان يكبر المرء امر سعودها ونحوسها إلى هذا الحد وإن مما يصم الرجولة ولاشك ان لايكون صحيح الادراك للأمور وان لايستطيع ان يلابس الحياة ملابسة قوامها حفظ التوازن بينه وبين الوسط .

فأين تحنث العبرات من هذه الرجولة الضخمة التي تقدر واجب الحياة وتعرف فرائضها ولاتفر منها ؟ رجولة لاتقول في الدنيا اشقياء كثيرون فلأبك عليهم ولاندب سوء حظهم ونحس طالعهم ولأنعهم إلى الناس، بل تقول الحياة طلوع ثنايا ومصارعة منايا والناس كلهم ساعون فمن مخطىء ومصيب وناهض وكاب عاثر وناجح موفق وخائب مجهود وكلهم يقضي حق الحياة عليه ولايمطلها دينها بل يؤديه اليها من دمه وقوته وعمره وهو مشكور إن افلح ومعذور إن أخفق .

جيته — تلك الصخرة القائمة في لج الحياة تناطحها كل موجة وتلطمها كل ريح وهي وطيدة لاتلين ولاتساقط على الصدمات

والاهوال — هو مثال الرجل الخليق بالحياة هو البطل الذي قرت عنده ثورة « كارليل » الهائج في ميادين الفكر لايعرف السكون ولايذوق طعمه إلا بالتمني حتى لايسعه لما ترجم احدى روايات جيته إلا ان يخضع للجامه ويستقيد لعنانه والا ان يخرج عن طبيعته — إن صح هذا التعبير — وينسي جموحه مع المعاني وركضه في حلبة متوعرة من الاداء فجاء اسلوبه فيها سلساً كالماء الرقراق المتحدر في سهل دمث من الارض .

ولعمري ما أبعد البون بين أدب تملية الحياة المتدفقة وصحة الادراك وبين كتابة ميتة مملوءة صديداً وبلى شائعاً فيها كهذه العبرات والنظرات والسخافات والتلفيقات والمنكرات التي لانعرف لها مثيلا في كل عصور الأدب التي مرت بالامم قاطبة من آرية وسامية !

خذ مثلا قصة « اليتيم » التي صدر بها عبراته وموضوعها أن فتى في العشرين من عمره مات ابوه وتركه فقيراً لايملك شيئاً فكفله عمه واكرمه واحسن اليه إحسانه إلى ابنته التي كانت في مثل عمر الفتى فشبا عشيري صفاء وخدني مودة ووفاء ثم ذهب العم إلى جوار ربه بعد ان اوصى زوجته ان تكون للفتى الذي لااسم له ولا ام — اماً كما كان هو أباً — ولكن الزوجة لم تلبث ان تنكرت للفتى فزعمت انها عزمت ان تزوج ابنتها وانها ترى ان في بقائه بجانبها ما يريبها عند خطيبها وانها تريد ان تتخذ للزوجين مسكناً ذلك الجناح الذي يسكنه الفتى من القصر وامرته ان يتحول إلى منزل آخر يختاره لنفسه من بين منازلها تقوم له هي بشأنه وشأن نفقاته فيه فأكبر الفتى ذلك وعظم عليه الامر واسودت الدنيا في عينيه لانه يحب الفتاة حباً لايعلم به أحد ولا الفتاة نفسها بل ولا هو نفسه إلا في هذه الساعة. فانسل من البيت ليلا وآثر

أن يستشرد ثم سكن الغرفة العليا من المنزل المجاور لمنزل المنفلوطي ولكنه لم يستطيع البقاء فيها ساعة واحدة فرحل رحلة طويلة قضى فيها بضعة أشهر لايهبط ببلدة حتى تنازعه نفسه إلى أخرى ثم شعر بسكون فعاد إلى الحجرة فلزمها هي ومدرسته ولم يبق من أثر لذلك العهد القديم إلا نزوات تعاود قلبه من حين إلى حين. ثم ان خادمته في بيت عمه اهتدت اليه وحملت اليه كتاباً من الفتاة تطلب اليه فيه أن يأتي ليودعها قبل موتها ولكنها ماتت قبل وصول الكتاب اليه فلحق بها ومات هو الآخر فدفنه المنفلوطي معها تنفيذا لوصيته :

هذا هو موضوع القصة . والآن فلنرجع أيها القارىء إلى مثال القفل والمفتاح . ليس في المفتاح عيب فان الفتى كان صحيح الجسم موفور العافية ليس به شيء من الآفات التي تقعد بالمرء عن ملابسة الحياة على الوجه الصحيح فاذا كان الامر على خلاف ذلك فالذنب للمنفلوطي الذي نسي أن يذكر لنا علله وأوصابه الجسدية . كذلك ليس في الفعل عيب . لأن الظروف المحيط بالفتى والاحوال التي كانت تكتنفه ليس فيها ما يعجز الرجل العادي السليم عن مكافحته ولكي يقتنع القارىء بما نذهب اليه،تجاوز الاجمال إلى التفصيل .

أرادت امرأة عمه ان تزوج ابنتها وهي رغبة طبيعية تحسها كل أم ولم تكن تعلم أن الفتى يحبها لانه هو نفسه لم يكن يعلم ذلك ويدريه ومصداق هذا قول الفتى وهو يحدث المنفلوطي .

ولاأعلم هل كان ما كنت أضمره لابنة عمي في نفسي وداً واخاء أو حباً وغراماً ولكني أعلم أنه ان كان حباً فقد كان بلا أمل أو رجاء فما قلت لها يوماً أنني أحبها لاني كنت أضن بها وهي ابنة عمي ورفيقة

صباي أن أكون أول فاتح لهذا الجرح الاليم في قلبها . ولاقدرت في نفسي يوماً من الايام ان أصل أسباب حياتي بأسباب حياتها — ولا حاولت في ساعة من الساعات ان اتسقط منها ما يطمع في مثله المحبون ولافكرت يوماً ان استشف من وراء نظراتها خبيئة نفسها لأعلم أي المنزلتين أنزلها من قلبها منزلة الاخ فاقنع منها بذلك أو منزلة الحبيب فأستعين بارادتها على ارادة أبويها .

فما ذنب امرأة عمه اذا كان قد شاء ان لايتكلم أو يتسقط أو يستشف ما يستشفه كل محب ويتسقطه ويقدره ويقوله ؟ وهو يعلم ان لالوم عليها في جهلها ما لو كانت علمته لكان لها شأن آخر معه ولا يعقل ان يحسب المرء ان الناس اعرف منه بخبيئة نفسه .

اذن فليس في رغبة امرأة عمه ان تزوج ابنتها شيء يستدعي منه ما صنع . كذلك لم يكن يستوجب منه التشرد والانسلال تحت الدجى طلبها اليه ان يتحول إلى منزل لها غير الذي يسكنه على ان تقوم له بنفقاته فيه حرصاً على الفتاة ان يريبها شيء من وجوده إلى جانبها عند خطيبها . فانه موقف معقول واحساس طبيعي . ولاشك ان في هذا الطلب غضاضة . ولكن قليلا من التفكير بعد ليلة أو ليلتين كان خليقاً ان يجعله يسيغها . فلماذا انسل وآثر الاستشراد والرحيل في البلاد، ثم لماذا بعد ان سكنت نفسه بلغ من وقع الخبر الذي حملته الخادمة اليه ان مات ! أليس الواضح البين أنه عجز عن الملاءمة بين نفسه وبين هذه الاحوال والظروف عجزاً ليس مرده لاإلى آفة في جسمه ولا إلى الظروف !

وهذا بعد ليس في شيء من الحب الطبيعي الذي يحس حامله

بالغاية منه احساساً واضحاً ويدركه أتم إدراك والذي لايفتأ يتطلب التعارف الجثماني الكفيل بحفظ النوع . لا كهذا المسكين الذي لايدري أهو يحب ابنة عمه حب الاخ لاخته أم حب الرجل للمرأة . ولايقدر في نفسه أن يصل أسباب حياته باسباب حياتها ولايحاول ان يعرف ما عندها له أو يطلب منها ما يطلب كل محب . وهو كلام لايرضي من قلبت الروايات الفاسدة عقولهم ومسخت طبائعهم ولايروق من تعلموا من هذه القصص ان يعدوا الهوى العذري الذي لاوجود له في هذه الدنيا الدنية مثلا ليس أعلى منه حياة — واللين الذائب والنحول والضنى من دلائل سمو النفس — والانقياد للمرأة كالكرة في يدها والقعود تحت حكم نظراتها وايماءاتها وحركات حاجبيها وشفتيها ويديها ورجليها من علامات الرجولة وآيات الفتوة والبطولة دع عنك الاضطرابات البهلوانية من جسمية وعقلية والزفرات والانات والدموع وتقليب الاكف والذهول والنحول والاصفرار والاطراق ونكت الارض والكلام الذي لايقوله ولايفهمه عاقل والنظرات الشاذة البلهاء في المجالس والمحافل وسهر الليل ورعي النجوم وضم المخادع ومعانقة السرير وتقبيل أطراف الاصابع للاشباح والخيالات وتحميل الرياح أنواع السلامات والتحيات الطيبات المباركات . . »

لا . لايرضي هؤلاء كلامنا وان كان الحقيقة لانهم لايطلعون على الحياة إلا من منظار المنكرات التي تصفها لهم هذه الروايات ولايفكرون أو يحسون أو يعملون إلا على مثال أشخاصها ولاغرابة في ذلك فان من لاتؤهله تجاريبه أو معارفه لتصحيح خطأ الروائي لايسعه إلا أن يسلم بصدقه ويستمد رأيه في الحياة من كتابته ويتخذ أشخاصه قدوة

تحتذى وتقلد . وهي نتيجة يعلمها من له أقل المام بعلم النفس وبتأثير الايحاء لاسيما في الضعفاء والشبان والنساء ومرضى الاعصاب واذكر على سبيل التمثيل لتأثير هذه القصص المنحوسة أني أعرف رجلا بلغ من استيلاء « سنكلر » وضروب احتياله على نفسه وهواه في صدر ايامه ان ظل سنين وليس له غاية يطلبها سوى ان يكون على رأس فرقة من « البوليس » السري يطارد المجرمين . ذلك لان هذه القصص الكاذبة الصور المستحيلة الوقائع تحدث الاضطراب في نضوج الاحساسات الطبيعية في نفوس الشبان وأخصها الحب بتنبيهها مركز التوليد قبل الاوان وقبل ان يكون الباعث على الحب هو النضوج الجنسي في الفرد

اسلوب المنفلوطي

أما اسلوب المنفلوطي في هذه القصة وفي سواها فاسلوب رجل لايبالي من أي مدخل دخل على القارىء ما دام يقدر ان سيصل منه اليه ولاأي بلاء يهديه في احتياله ويقحمه عليه واذ كان يعرف من نفسه والتصنع فهو لايزال يعالج الاقناع والتأثير بضروب من التأكيد والغلو والتفضيل وغير ذلك مما ليس أدل منه على الكذب والتزوير لما وقع في وهمه من انه يكسب الكلام قوة وشدة لايفيدهما أن يلقيه ساذجاً ويدعه غفلا وأول ما يستوقف النظر فيه من هذا ولعه بالمفعول المطلق وتكلفه له لظنه أنه من المحسنات اللازمة للصقل وان العبارات بدونه تكون مبتورة والجمل لايجري فيها النفس إلى أخره دون توقف واعتراض ومع ان قصة اليتيم في تسع عشرة صفحة وبعض صفحة من الحرف الجليل فان فيها أكثر من ثلاثين مفعولا مطلقاً ليس من بينها

واحد لايكون الاساوب أساس وأطبع بدونه . لكنه ذهب إلى المبالغة في كل شيء وإلى أن يجاوز كل حد معقول طلباً للتأثير من طريق الإ فحاش في التأكيد فلم يكن له يد من هذا المفعول المطلق الذي لايكاد يمر به القارىء في أي كتاب يفتح من كتب الادب .

ومعلوم أن الكلام لاقيمة له من أجل حروفه فان الالفاظ كلها سواء من حيث هي الفاظ وإنما قيمته وفصاحته وبلاغته وتأثيره تكون من التأليف الذي تقع به المزية في معناه لا من أجل جرسه وصداه والا لكان ينبغي ان لايكون للجملة من النثر أو البيت من الشعر فضل مثلا على تفسير المفسر له . ومعلوم كذلك أن الالفاظ ليست إلا واسطة للاداء فلا بد ان يكون وراءها شيء وان المرء يرتب المعاني اولا في نفسه ثم يحذو على ترتيبها الالفاظ وان كل زيادة في الالفاظ لاتفيد زيادة مطلوبة في المعنى وفضلا معقولا فليست سوى هذيان يطلبه من أخذ عن نفسه وغيب عن عقله وبلغ من ضلال الرأي أن راح يحسب أن تأليف الالفاظ تأليفاً طبيعياً مطرداً خالياً من العكس والقلب منزهاً عن الحشو والحشر يذهب برونق الكلام ويفقده المزية والتأثير . وينسى المسكين ان كان كلمة يستطيع القارىء أن يسقطها بدون خسارة في المعنى او تعويق لتحدر الاحساسات أو أفقاً لغناها — كل لفظة يمكن الاستغناء عنها قاتلة للكاتب فان العالم أغنى في باب الادب من أن يحتمل هذا الحشو ويصبر عليه وليس شيء أحق بان يثير عقل العاقل من عدم اكتراث الكاتب لوقته ومجهوده وكم من كاتب أضربه هذا الداء وآخر ضئيل الشأن والحال لم يحيه من المزايا غير حبك الاداء ولكن هذا كلام لايفهمه المنفلوطي لان اللغة عنده ليست الازينة يعرضها

وحلى يحلى بها لاداة لنقل معنى أو تصوير احساس او رسم فكرة ومن اين له أن ينزل اللغة هذه المنزلة وهو لامعنى في صدره ولافكرة في ذهنه .

وهذه أمثلة للمفعول المطلق في كتابة المنفاوطي وكلها لاضرورة اليها ولا داعي إلا من الرغبة في تأكيد الغلو الذي يتطلبه من يحمل نفسه على التلفيق والتصنع أو ما يجري هذا المجرى من الأغراض الاخرى .

١ — وقلت لابد أن يكون وراء هذا المنظر الضارع الشاحب نفس قريحة معذبة تذوب بين أضلاعه (ذوباً) .

٢ — فيتهافت لها جسمه (تهافت) الخباء المقوض .

٣ — ثم لم أزل أراه . . . . أو منطوياً على نفسه في فراشه يئن (أنين) الوالهة الثكلى .

٤ — وأتمنى لو استطعت أن اداخله (مداخلة) الصديق الصديقة .

٥ — وقد بلغ الامر (مبلغ) الجد .

٦ — وقد سمعتك الليلة تعالج نفسك (علاجاً) شديداً .

٨ — واذا قميص فضفاض من الجلد يموج فيه بدنه (موجاً) — يصف نحوله .

٩ — فاستفاق قليلا ونظر إلي (نظرة) عذبة .

١٠ — فتنهد طويلا ونظر إلي (نظرة) دامعة .

١١ — أصبحت معنياً بأمرك (عنايتك) بنفسك .

١٢ — فانزلني من نفسه (منزلة) لم ينزلها أحد من قبلي .

١٣ — ١٥ — فعنى بي (عنايته) بها وأرسلنا إلى المدرسة في يوم واحد فانست بها (انس) الاخ باخته وأحببتها (حباً) شديداً .

١٦ — ولقد عقد الود بين قلبي وقلبها (عقدا) لايحله الا ريب المنون .

١٧ — فتشرق لها نفسانا (اشراق) الراح في كأسها .

١٨ — ثم انسللت من المنزل (انسلال) من حيث لايشعر أحد .

١٩ — وهكذا فارقت المنزل . . . (فراق) آدم جنته .

٢٠ — فرحلت (رحلة) طويلة .

٢١ — هنالك شعرت أن قلبي قد فارق موضعه إلى حيث لاأعلم له مكاناً ثم دارت بي الارض الفضاء — يعني غرفته — (دورة) سقطت على أثرها في مكاني .

٢٢ — فحزنت عليها (حزن) الثاكل على ولدها .

٢٣ — وما وصل من حديثه إلى هذا الحد حتى زفر (زفرة) خلت ان كبده قد ارفضت .

٢٤ — وان الضربه التي اصابته قد سحقته (سحقاً) .

٢٥ — ٢٦ — أشعر برأسي يحترق (احتراقاً) وبقلبي يذوب (ذوبا) .

٢٧ — ثم انتفض (انتفاضة) خرجت نفسه فيها الخ .

وقد عددنا له إلى الان ٢٧ مفعولا مطلقاً ولاندري إلى أي رقم

يرتفع العدد اذا استقصينا وانما حملنا على تجشيم أنفسنا هذا الحساب غرابة هذا الكاف منه بصيغة المفعول المطاق . ولنعرف هل الشأن واحد في كل كتابته أم هو اتفاق ومصادفة في هذه القصة وحدها فاذا به قد استعمل هذه الصيغة اكثر مما استعملها العرب جميعاً !

ولعل القارىء لاحظ فيما اوردنا من الامثلة كثرة النعوت والاحوال كقوله « خرجت منه — يعني المنزل — شريداً طريداً حائراً ملتاعاً » وقوله « تركني فقيراً معدماً لاأملك من متاع الدنيا شيئاً » وقوله «وراء هذا المنظر الضارع الشاحب نفس قريحة معذبة » وقد يعلم القارىء او لا يعلم أن هذا الاسراف في النعوت من دلائل الضعف وفقر الذهن لان الكاتب أنما يرصها واحداً بعد واحد وفي مرجوه أن يوافق واحد منها محله وان يقع في مكانه ولكن المطبوع يعرف ماذا يأخذ وماذا يلقي وينبذ وانما كان هذا الأكثار من الصفات من علامات الوهن لان الكاتب الضعيف لايستطيع أن يتحرى الدقة اذ كان لايدري أي الرموز اللفظية أكفل بالعبارة التامة عن المعنى المراد فهو من أجل هذا يستعمل اللغة جزافاً ويكيل الالفاظ بلا حساب مستعيناً على الاختيار بالارتباط الغامض بين الالفاظ في ذاكرته وبرنين الاصداء المتقطعة للاصوات المألوفة . وهناك أمر آخر وهو ان الترادف في اللغة من الأكاذيب الشائعة اذ ليس ثم في الحقيقة لفظان يؤديان معنى واحداً على وجه الضبط وما من مترادفين يزعم الزاعمون انهما سواء في المدلول الا وبينهما مقدار من الاختلاف قل أو كثر فاذا ساق اليك كاتب سلسلة نعوت متقاربة المعاني متشابهة المدلول كان لنا أن نسأل أيها يعنى على التحقيق وأي مدلولاتها المتفاوتة يقصد اليه ويريد منا في فهم

المراد أو تكوين الصورة أن نعتمد عليه ؟ لأن السرد لايستقر به معنى على حد ولايعين على التصور اجراء الوصف على كثرة الاسناد والعد والشأن في هذا مثله في التصوير والرسم فكما أن المعول فيهما ليس على كثرة الالوان بل على أصابتها مواضعها ووقوعها مواقعها قلت أو كثرت وصحة التأليف بينها كذلك في الكتابة ليست العبرة بتعدد النعوت ولكن بمبلغ ابانتها عن المراد وكشفها عن المقصود .

أترى سيسمعنا السخفاء واشباههم ممن يعرفون من ناحية وينكرون من ناحية أن هذا ليس سوي غنى وكثرة محفوظ ؟ نعم وماذا عساهم لايقولون ، وبأي حماقة وضلال لايتعاقون ؟ ولكن ههنا أصلا يفوتهم العلم به ويخطئهم التوفيق اليه وان كان على هذا لايحتاج إلا إلى أيسر فكرة وادنى نظرة وهو ان اللفظ من حيث هو لفظ مفرد لاشيء في ذاته ولامعنى له في نفسه ولكن يكون المعنى وتحصل الفائدة بالتأليف وبضم الالفاظ بعضها إلى بعض كاللون في ذاته لايفيدك صورة ولايعطيك شيئاً إلا بعد أن يأتلف معه سواه ويجري كل إلى اخيه مجراه وليس لغير ذلك مساغ في العقل أو مجاز إلى الفكر وقيام في النفوس فلا كتابة حتى يكون معنى هو المزجي لها والمقدم والمؤخر والمرتب فيها وفي جعلها موافقة أو مخالفة ومصيبة أو مخطئة وحسنة أو قبيحة سخيفة ، وإلا فأن أحدنا لايعجزه أن يعمد إلى معجم أو كتاب مترادف فيأخذ منه ويسرد وليست كثرة الالفاظ المستعملة المسوقة من شأنها أن تدل على كثرة الاطلاع وسعة الحظيرة وطول الباع وانما التأليف والتركيب والافتنان فيهما والقدرة عليهما هي آية هذه السعة والطول والكثرة فلا تجعل بالك إلى الالفاظ اذا شئت أن

تعرف مكان الرجل من العلم وحظه من العرفان ولكن اجعله إلي طريقة تأليفه الكلام فان رأيته يدور منها في حلقة لايكاد يعدوها حتى يكر اليها فاعلم أنه ضيق المضطرب محدود المجال ضئيل الحال والق بعد ذلك الفاظه من أي حالق شئت — وكذلك المنفلوطي لايكاد يفوتك أن تقرأ له هذا التركيب : « فعدت به حزيناً منكسراً وما على وجه الارض أحد أذل مني ولا أشقى » — « ومارئي مثل يومها يوم كان أكثر باكية وباكياً » أو هذا التأليف « فما هو ان مرت ايام الحداد حتى رأيت وجوهاً غير الوجوه — وما هي الا أيام قلائل حتى ضرب الدهر بينهما بضرباته » ونحن نقدر فانما نمثل ولانستقصي ولو كان الرجل واسع الحيلة رحيب المصال لوجد له مخرجاً من هذه الدوائر — والالفاظ كالحجارة في محاجرها قريبة المنال من كل طالب والناس لو عقلوا من أمرها في راحة وانما الكتابة مجسها الحصافة والتثبت في انتقاء الالفاظ واستشهاد القريحة وسبر النفس وفليها عند تأليفها والمزاوجة بينها .

فاذا تقرر هذا وان المنفلوطي ذاهب مذهب التخنث في كتابته وملفق مستحيل التلفيقات وانه لايزال يعالج التأثير بالتطري والرخاوة في العاطفة المتكلفة والاحساس المصطنع وبالغلو والتأكيد في صوغ الكلام وتصوير المسألة فان بنا بعد هذا أن ننظر كيف يسوق القصة أي في الاسلوب بمعنى الطريقة التي يجري عليها في تناول الموضوع وعرضه .

وقد ألف الناس لطول عهدهم بالمقلدين أن ينظروا إلى الاسلوب من حيث هو تأليف للكلام على معاني النحو ونحن نريد أن نلقي على

هذه القردة درساً فيما يفيده صحة النظر واعتدال ميزان العقل وسعة أفق الفكر وانا لنعلم انه لن يفيدهم إلا الحسرة على ما أضاعوا من العمر وجنوا من السوء والخبث في هذه الأمة التي نكبت بهم على قدر سدر أعينهم وضلال أفهامهم ولكنا ما قصدنا قط إلى امالتهم عما هم فيه وان كانت الخزائم حاضرة بل تبصير من له طبع من النشيء اذا قدحته وَرِيَ وَهُدِيَ من له قاب اذا اريته رأى .

ونمهد لما نريد تبيينه بمثل من التصوير محسوس فان هنا قوماً لا يدركون الشيء أو يصدمهم فنقول أن ههنا في ناحية من الطريق شرطياً واقفاً يرقب الحركة ويلاحظ الغادين والرائحين والراكبين والراجلين ويمنع الزحام ويقتاد المتنزين إلى الشر إلى أي هو تابع له من « الاقسام » تراه وتزن التبعة التي عليه والسلطان الذي في يديه وتقيس النصب الذي ينبغي أن يعانيه إلى القدرة اللازمة التي لاتؤاتيه فتعطف عليه في محنته وترثي له في وقفته وتصوره وأنت ناظر اليه من جانب الجد الذي لاهزل فيه وفي ضوء الواجب مكابداً اوامره ونواهيه — هذا وربما ذهبت تعتبره مرة اخرى من الجانب المضحك في هيئته وفي تراخي همته وبطء حركته أو عدم التلاؤم والتناسب في بزته ووفاء قامته وتخاذله في مشيته وتثاوبه واستناده إلى الجدران وذهول نظرته أو حواره مع الباعة وتأتيه إلى غايته وتقطيبه جبينه وهو يدفع في جذبته او تواريه في الدروب ووراء العمد اذا جد الجد بالطعام في « نقطته » إلى آخر ذلك ثم تصوره صورة تركبه فيها بالدعابة فانت قد تناولت موضوعه من جهتين متباينتين اذ كنت قد نظرت إلى أمره وحاله نظرتين مختلفتين كنت في الاولى جادا وفي الأخرى هازلا

وجعلت الصورة في كل من المرتين معبرة عن اعتبارك اياه ناطقة بالغرض منها فوجهة النظر إلى الموضوع والطريقة التي اجراها لغايتك هي ما نسميه اساوب التناول ولاشبهة في أن المرء ينظر إلى الامور من جهات معينة — من ناحية الجد أو الهزل أو المألوفية أو الشذوذ أو الجلال أو الحقارة وليس يعنينا من أي ناحية عالج المسألة وانما الذي يعنينا مقدار ما في سعيه من صدق السريرة وصحة الادراك ودرجة النجاح ومبلغ التغلب على الصعوبات. ونقول مبلغ التغلب على الصعوبات لان القصصي لاتظهر قدرته في المواقف الهادئة السلسة وانما تستبين وتتضح حيث تكون اشخاصه تحت العواطف القوية وفي المواقف التي تتطلب أدق النظر وأشق التميز وأصح العبارة فكيف تناول المنفاوطي موضوعه وما هي الفكرة العامة التي نظر بها فيه وبماذا اعد لها وكشف عنها وهل اللغة التي استعملها صادقة وهل السلوك الذي عزاه إلى اشخاصه مما هو معهود في الادميين كما نعرفهم وما مبلغ إسرافه او قصده وما مقدار خبطه وتخليطه او اصابته وسداده .

عسى قائل يقول انك تصفه في ميزان لم ينصبه لنفسه ولاكان في باله ولاجرى له هو وأمثاله في خاطر وردنا على هذا المحتج أن الأدب لاشأن له بهذا الاهمال أو الجهل ولااعتداد فيه إلا بالصلاحية للحياة وهي هي ، ميزانها أبداً واحد لارفق فيه ولاهوادة فان خفتم على صاحبكم ان تشيل به الكفة فاخرجوا به من هذا الميدان واذهبوا محمودين مشكورين على النكوص . فان ابيتم الا ان تعدوه كاتباً اديباً فلا مسمح عن قذفه في هذا الاتون الحامي لنعرف من أي معدن هو وانتم بعد خلقاء ان ترتضوا لصاحبكم ما ترتضي لأنفسنا

مختارين مرتاحين فانا نعيش في عصر تفكير عميق . وعهد قلق عظيم واضطراب كبير وشاك مخيف ليس يتسع لهذه المنكرات والشناعات والتلفيقات . عصر تعتصر فيه العقول ويستنفد في حيرته مجهود القلوب وقد استولت الظلمه على عوالمنا السياسية والخلقية والعقلية وصارت حياتنا محيطاً زاخر العباب يضطرب بنا متنه في عشي ليالينا المتجاوبة بصيحات الشك والظمأ إلى المعرفة والحنين إلى النور .

ولقد غبر زمن لم تذهب في أثره عقابيل ادوائه كان القوم فيه يحسبون ان الادب والفلسفة — أو النظر المخلص الصحيح أن شئت — لايتفقان وأن الغائص على الاسرار الطالب للحقائق لايكون أديباً وان الاديب لايكون متفقداً ورائداً وان ما وصل الله من الخصائص وألفة يجب ان يقطعه الانسان ويعادي بينه ولكن عهد الظواهر والزبد والقشور قد سقط في هوة الابد وجاء زمننا الشادي بعلاقة الطبيعة بنفس الآدمي الراكض بمداركه من ميدان إلى ميدان والمريخ وراء السماء سماء وبعد الآباد اباداً ، المصيخ إلى صوت اعتلاج موج الزمن المتكسر على صخور ذلك « العالم الآخر » .

ونعود إلى صاحبكم المنفلوطي — وما اهول هذا الانحدار — فنقول ان فيما اسلفنا القول فيه من حيث موضوع القصة وسلوك شخصها الكفاية وفوق الكفاية ولقد كان حسب سوانا في غير هذا البلد ان يشير بطرف القلم إلى ما فصلناه ولكنا وطنا النفس على الجلد ورضناها على السكون إلى ما تكلفنا اياه حداثة العهد بالادب الحي :

يحسب المنفلوطي أن تكلف التفصيل في المحسوسات مظنة الاجادة وفاته — وأنى له ان يفهم هذا — أنه لايعجز أحدا أن يقول لك هل فلان هذا الذي تراه طويل أم قصير ونحيل أم بدين وهل في يده كتاب أم عصا ونائم هو أم جالس وانما محك القدرة في تصوير حركات الحياة والعاطفة المعقدة لاظواهر الاشياء وقشورها وفي رسم الانفعالات والحركات النفسية واعتلاج الخوالج الذهنية وما هو بسبيل ذلك .

أما تفصيل المنفلوطي فلا خير فيه بل الخير في اجتنابه وتحاشيه وليذكر القارىء أن هذا المسكين يروي عن نفسه ويحدث بما يدعي أنه كان شاهده من غرفة مكتبه المطلة على غرفة الطالب — وهو بطل القصة — في البيت المقابل له في الشارع فاسمع ماذا يقول المسكين وهو يظن انه قد استحق المنزلة الاولى بين شيوخ الرواية :

« كنت اراه من نافذة غرفة مكتبي وكانت مطلة على بعض نوافذ غرفته فأرى أمامي فتى (شاحب) الوجه منقبضاً جالساً إلى مصباح منير في احدى زوايا الغرفة (ينظر في كتاب أو يكتب في دفتر أو يستظهر قطعة أو يعيد درساً) فكيف استطاع هذا التمييز بين الاستظهار والاعادة وكيف رأي شحوب لون الوجه مع هذا البعد ولكن هناك ما هو أدهى :

« عدت إلى منزلي منذ أيام بعد منتصف ليلة قرة من ليالي الشتاء فدخلت غرفة مكتبي لبعض الشؤن فاشرفت عليه فاذا هو جالس جلسته تلك إلى مصباحه وقد أكب بوجهه على دفتر منشور بين يديه على مكتبه فظننت انه لما ألم به من تعب الدرس وآلام السهر قد عبثت

بجفنه سنة من النوم فاعجلته عن الذهاب إلى فراشه وسقطت به في مكانه فما رمت مكاني حتى رفع رأسه فاذا عيناه مخضلتان من البكاء واذا صفحة دفتره التي كان مكباً عليها قد جرى دمعه فوقها فمحا من كلماتها ما محا ومشى ببعض سطورها إلى بعض ثم لم يلبث أن عاد إلى نفسه »

فأولا لماذا دس في الجملة قوله في أولها عدت « منذ أيام » وهي لاتفيد ولايمكن أن تفيد شيئاً سوى أنه يريد أن يطيل الجملة ويمطها حتى يبلغ بها آخر نفس القارىء ثم هل تدري أنه أحس انه موشك ان يقول شيئاً مستحيلا ؟ الوقت بعد منتصف الليل والبرد قارس وبين النافذتين عرض الشارع وهو مهما ضاق وحتى لو كان الوقت وقت الظهيرة المتقدة الملتمعة لايسمح بأن يرى فعل الدمع بالسطور المكتوبة أو جولان العبرة في الجفن وقد شعر المنفلوطي باستحالة ذلك ولكنه لمصابه لم يجد ما يخرجه مما اوقع نفسه فيه من تكالف المحال غير أن يقول ان الفتى رفع رأسه ؟ كان هذا يكفي لتمكينه من ناصية المستحيل؟

وانت ايها القارىء هل قنعت أم تزيدك من هذه التلفيقات ؟ ليس بنا بخل ولا لصاحبك عقل فخذ ثالثة الاثافي : ذهب المنفلوطي اليه لانه سمع « في جوف الغرفة انة ضعيفة مستطيلة » ووضع يده عليه فعلم ان الفتى محموم .

« فامررت نظري على جسمه فاذا خيال سار لايكاد يتبينه رائيه واذا قميص فضفاض (واسع) من الجلد يموج فيه بدنه موجاً فامرت الخادم أن يأتيني بشراب كان عندي من أشربة الحمى فجرعته منه بعض قطرات فاستفاق قليلا »

ابنا حاجة إلى التعليق على هذا الهراء ؟ لقد سمعنا بمن لولا محادثته إياك لم تره،وبالجسم لو تؤكأت عليه لانهدم،فاما القميص من الجلد يموج فيه البدن فلم نكن نتوقع ان يسمعه احد إلا في مستشفى المجاذيب ومع كل هذا النحول احتاج صاحبكم المنفلوطي ان يمر نظره على جسم الفتى .

ولست احب ان انغص على القارىء كتابنا بكثرة ما اورد من هذه التلفيقات المنكرة ولكني اسأله الصبر على هذه الجملة أيضاً — دعا المنفلوطي الطبيب فجس المريض وهمس في اذنه ان العليل مشرف على الخطر — ولاعجب ان يصير إلى هذا المصير الخبيث بعد ان جرعه المنفلوطي — شراب حماه — ثم دفع اليه المنفلوطي الأجر واحضر الدواء .

« وقضيت بجانب المريض ليلة ليلاء ذاهلة النجم بعيدة ما بين الطرفين اسقيه الدواء مرة وابكي عليه اخرى حتى انبثق نور الفجر »

والعادة أن الاشربة يسقاها المريض بعد فترات (زمنية) يحددها الطبيب ولكن الظاهر أن طبيب المنفلوطي امره ان يعطيه الدواء بعد كل ، . . . . بكاء ! ؟

ومع ذلك لم تكن الذاكرة قد خانتنا فان المنفلوطي مات له طفلان في اسبوع واحد « فسكن لهذا الحادث (سكوناً) لم تخالطه زفرة ولم تمازجه عبرة على فرط حبه لهما وتهالكه وجدا عليهما» ؟؟ ؟ وكذلك كان سكونه لما ماتت زوجته فقد جلس إلى الناس يحادثهم حتى كان المرزوء سواه .

وبعد ان استفاق المريض المنكوب بالطبيب والجار صب المنفلوطي عليه وبلا من الاسئلة وهو يعلم أنه في سياق الموت (فاستفاق ودار بعينيه حول فراشه حتى رآني فقال أنت هنا ؟ قلت نعم ارجو أن تكون أحسن حالا من ذي قبل قال ارجو أن أكون كذلك قلت هل تأذن لي يا سيدي أن اسألك من أنت وما مقامك وحدك في هذا المكان وهل انت غريب عن هذا البلد أو أنت من أهليه وهل تشكو داء ظاهراً (يا للعمى) اوهما وهل لك أن تحدثني وتفضى إلى بهمك كما يفضي الصديق إلى صديقه فقد أصبحت معنياً بأمرك (عنايتك) بنفسك ؟

ومن الغريب أن الفتى لم يصفعه . ماذا كان يخشى المسكين لو فعل وهو ميت لامحالة — بل شرع يقص عليه تاريخ حياته الذي انتهى بين يدي هذا الحانوتي بعد أن فرغ من الحديث الذي يملاء احد عشر صفحة من تسع عشرة فما أطول نفسه في ساعة الموت ؟ وما أخلق هذا الادب الميت بأن يروى عن المحتضرين ؟ وما أحق أهل الفتى أن يطالبوا المنفلوطي بدمه ؟

ابراهيم عبد القادر المازني

* * *

شوقي في الميزان

عرضنا (شوقي) في الميزان لأول مرة فارتج به ارتجاجاً عنيفاً وايقظه من غفلة كان فيها ساذراً وما هو إلا ان حط به ثم شال حتى تمنى ان يركز به على حال ، وذهب يوطن نفسه على جاه غير جاه الشعر ويقول لخلطائه وسمارته : « هبوني لست بالشاعر أليس لي فخر آخر ادل به ؟ ؟ »

نقول أجل ولكنه على كل حال ليس بفخر الفحول :

اما القراء فقد بلغ الكتاب بينهم من الأثر ما كنا نقدره لاربعة أجزاء فكان استعدادهم لتلقيه دليلا على ظهوره في اوانه — اسرعوا إلى اقتنائه حتى نفدت نسخة في اسبوع أو أقل ونادراً ما كانت تقصر النسخة منه على قارىء واحد وتوالى الطلب له في المدينة والاقاليم فلم نر بدا من التعويل على اعادة طبعه ، وقد كان قراؤه من طبقات الناس على افتراق نظراتها إلى الادب : فمنهم شيوخ وكهول من فضلاء الجيل الماضي ذوي العقول المتزنة والفطر المستقيمة والاطلاع المجدي وموافقتهم عليه مرضية ورأيهم فيه جميل : ومنهم اذكياء الشبان الدارسون أو السالكون على الجادة وكثير بينهم المشايعون بل المتهللون . وطائفة اخرى حظها من السماع اكثر من حظها من الاطلاع

وجدناها إلى الموافقة المشفوعة بالدهش اميل منها إلى المنافرة والعنت وربما عز على بعضهم أن يشهد على نفسه بين يوم وليلة بالخطأ ويتهم ناقديه بالانحراف فهو يتلمس المعاذير ويدرب لسانه على التغيير ، وفي هؤلاء أمل لايضيع ولاسيما بعد هدأة الدهشة وتطامن المفاجأة لان نزاهة الشباب تغلب مع الاقتناع كل مراوغة ومكابرة ويقال على الجملة ان اثلام المحراث اشتبكت بصعيد صالح ليس فيه من يبوسة الحصباء مايشق تسويته أو يعسر عند اليأس منه نبذه : واما التذمر فقد استقبلنا معظمه من حيث كنا ننتظره ولانتوقع غيره ونعني فريقي القراء — وبالحرى المتحدثين — الذين لم نوجه اليهم خطاباً : وهذا فريق المعجبين على الاشاعة الذين يطربون لما يطرب له الناس فراراً من تهمة الجهل والغرارة ويغرمون بالشعر كما يغرم بعضهم بجمع العادات والمخطوطات أو بتربية الديكة ويغار على صيت شاعره كما يغار على اللعبة التي فتن بها : ومن أظرف ما يروى عن أحدهم أنه سمع جملة في نقد رثاء شوقي لعثمان غالب وفيها تسخيف للمناحة التي أقام لها الازهار والرياحين وسؤال عما كان من القطن باصنافه في تلك المناحة فظن — صان الله لشوقي اعجابه — اننا انما انكرنا سكوته عن القطن واردنا منه ان يذكره فقال متعجباً : وهل كان القطن (طالعاً) وقتئذ فيذكره في القصيدة ؟ ؟

والفريق الآخر من الساخطين هم اولئك الذين عرفوا بانهم شركاء شوقي في (العادات الخصوصية والمنادمات الليلية) فما رأينا أحر من سخطهم ولاأكثر تصنعاً لاسبابه وتمحلا لعلله ، وهذه آخر شارة نلمح اليهم بها .

* * *

ولانحب أن نسكت هنا عن انتقادين سمعناهما ممن يحسن القصد ولانستبعد رجوعه إلى الحق متى وضح له وجهه . أول الانتقادين واشبههما بالحق اننا اخترنا أوهن قصائد شوقي واكثرها مغامز : وليس هذا صحيحاً فاننا انما راعينا الحداثة فيما اخترناه من قصائد وهي لاتقل في اعتقادنا واعتقاده عن أجود شعره صياغة ومعنى ولكن الحقيقة — كما قلنا في الجزء الاول — هي ان قراء اليوم غيرهم بالامس فليس يرضيهم ما كان فوق الرضى قبل عشرين سنة : ونحن نذكر اصحاب هذا القول باننا انما كنا نصوب الانتقاد إلى شاعرية شوقي وذوقه وروح قصائده ومنهج ادبه متجاوزين عن الصياغة واللفظ وما تؤثر فيه العجلة والتأني ، واذا كان الطعن في الشاعرية والعاهة في الذوق والروح والاعوجاج في المنهج فاختلاف القصائد كيفما كان الموضوع والاسلوب لايقدم ولايؤخر في الحكم على الشاعر : ولعلهم بعد الاطلاع على هذا الجزء يعلمون أن القديم والحديث في شعر شوقي سواسية .

أما ثاني الاعتقادين فهو اننا اغلظنا العصا لشوقي وشددنا عليه النكير : ولهؤلاء نقول اننا لانهدم خطأ مؤسساً على البرهان فننقضه بالبرهان وحده ولكننا نهدم الوهم المطبق والدسائس المتراكبة وما أحوج البرهان في هذه إلى الشدة وما أقل ما يغني فيه اللين والهوادة :

ومما استصعبوه أننا قرنا معانيه بمعاني الشحاذين : فيا عجباً ؟ ؟ ؟ كأننا نحن نهينه اذا قابلنا ادعيتهم وتوسلاتهم بكلام له لايختلف عنها وهو لايهين نفسه ويهين ضمير الامة حين يجمع المحافل المشهودة لتكريم الشحاذة في اشنع ضروبها ؟ ؟ وأي حق على الناس لمن لايعرف

لنفسه ولاللناس حقاً ؟ ؟ فنحن لانرى للرجل في انفسنا قدرا يتجافى به عن اخشن عبارات الزجر والتقريع وهذا ما اعلناه في توطئة الجزء الاول ولانريد العدول عنه في هذا الجزء ولافي الاجزاء التالية . فمن كان يفقه ما نقول ولم يغضب لكرامة الفكر تداس هوانا ولضمير الامة يلطم على وجهه عيانا فليغضب علينا ما شاء فانه لايعرف كيف يغضب :

وكأننا بزمرة شوقي يتساءلون : وما كرامة الفكر هذه التي يغضب لها الناس في آخر الزمان ؟ ؟ بدعة طارئة على ما يظهر ولكننا نؤكد لهم انها حقيقة تحس وتلمس وان كانت لاتؤكل ، وانها حق بيّن يحكم به القضاء كما يحكم بحقوق الملك والاجارة والديون ؟ ؟ وسنحدثهم بخبر قضية جرت ابان ظهور الجزء الاول عسى ان يعرف منها من لم يعرف بعض ما يتأفف منه الاديب الجدير بشرف الادب ، وما ترخص له المحاكم في التأفف من اللصوق باسمه ومقاضاة الذين يجنونه عليه :

كان ولايزال في حاضر الزمان ، لافي سالف العصر والاوان وفي الجزر البريطانية لافي جزائر واق الواق ومعاهد السحرة والجان ، انسي يقال له رديارد كبلنج يقرض الشعر ويقص للناس القصص — لهذا الرجل فيما نظم من الشعر الكثير قصيدة عنوانها « اذا » يحض بها الهمم ويذكي في النفوس الضرم شاعت شركة جناتوزان أن تقتبس منها ابياتاً لترويج غذاء مشهور من اغذيتها التي تجهزها لمداواة الاعصاب فاقتبستها وكتبتها على لفائف دوائها : فماذا كان من امر ذلك

الرجل المدعو ريارد كبلنج الذي قلنا انه يقرض الشعر ويقص النوادر على الناس ؟

زعموا أنه قاضاها إلى احدى محاكم لندن ، وزعموا أن وكيله — ويدعى المستر هيوز — وقف فطلب إلى القضاء منع الشركة من امتهان الابيات بهذا الاستعمال ، وقال فيما قال . « انه لمن أصعب الاشياء أن يتخيل الانسان أمرا أشد ايذاء لنفس المؤلف من ابتذال كلامه بادماجه على هذه الصورة في صياح الباعة على سلعهم : انها لاهانة لاتقل عن السباب المقذع لكل من لامست نفسه أقل مسحة من الكرامة الادبية » .

قالوا : فلما نطق القاضي بحكمه عذر الشاعر وقال : لاعجب أن ينفر المستر كبلنج من استخدام كلامه على هذه الصورة — وعندي ان هذا الاقتباس لايدخل في حق الاستشهاد الذي يجيزه قانون حقوق الطبع الصادر سنة ١٩١١ » وحكم بتغريم الشركة أربعين شلنا تعويضاً للاهانة التي الحقتها بالشاعر (١) :

فهذه اسطورة يحفظها الشوقيون ليتفكهوا بروايتها عن تلك العنقاء التي يسمونها الكرامة الادبية . ولكن الذين لايستغربون وقوع هذه الاساطير في غير قصور الف ليلة حريون ان لايقفوا بها عند حد التفكهة .

لمثل ذلك الابتذال يغضب اديب الغربيين ويقول محاميهم أنه أشد ما يتخيل ايذاء لنفس المؤلف ويؤيده قاضيهم باسم الشريعة ،

---

(١) جريدة الديلي كرنيكل عدد يوم ٤ ديسمبر سنة ١٩٢٠ .

فما بال شاعرهم أنف أن يتخذ اسمه ذريعة لترويج السلع ولو كانت دواء نافعاً وعندنا أمير شعراء وجنوده يظنون أنهم لايقترفون ما يحاسبون عليه حين يتداعون بقضهم وقضيضهم لترويج شر تجارة يبوء بها كاسب ، ان صح أن التسول بالمثالب تجارة ؟ ؟

ذلك لان أمير الشعراء هذا وجنوده سوقة لايفقهون للغيرة الادبية واريحية الفنون أقل معنى ولايفهمون من جمال الشعر إلا أنه « أمرى مروءة الدني وأدنى مروءة السرى » كما كان يقال في عهد مدرسة الاستجداء بالقريض،وتا لله لولا حكم القضاء وفيه مقنع لهم لما عدوا شكوى كبلنج من تصرف الشركة الا اعجوبة مبهمة ولغزا مغلقاً ، لان هذا الذي انف كبلنج أن يصنع بشعره على غير علم منه قد صنعه شوقي بشعره مختاراً وتعمد ان يكون اعلاناً لسلعة معروضة ؟ ألم ينظم ابياتاً يروج بها « ريشة صادق » ونشرها في الصحف ؟ بلى فقد قال ادامه الله للدكاكين والمآتم والافراح والسهرات :

لله ريشـــة صادق من ريشـــة
تـــزرى طلاوتهـــا بكـــل جديـــد

كســـت الكتابـــة في المشارق كلهـــا
حسنـــاً وفكتهـــا من التقييـــد

تهدى لحســـن الخـــط كل مقصر
وتمـــد في الاحســـان كـــل مجيـــد

اغلي لدى الكتـــاب ان ظفـــروا بها
من ريشـــة الالماس عنـــد الغيـــد

وألذ فوق الطرس ان خطـرت بـه
من ريشـة الليثى فوق العـود

وتكـاد تحيي مؤنسـاً بصريرهـا
وتقـول أيام ابن مقلـة عودى

لو لم يكـن في الامر إلا أنها
مصـرية لاستوجبـت تمجيدي

وفي هذه الابيات أوفى دلالة على عامية الروح وتبذل الملكة — شعر لايتأبه صاحبه أن ينزل به منزلة الاعلانات التجارية ، وعبقرية دارجة أبانت أن اخليته وابتكاراته هي ومبالغات الباعة وتزويقات الدلالين وتحلية البضاعة على حد سواء . وان من يروج ريشة كتابة بأنها « أغلى من ريشة الالماس » لقريب نسب ممن ينادى في قوارع الطرقات « يا جواهر يا عنب » والذي يدلل على ريشة عربية بانها « حسنت الكتابة في المشارق كلها » إنما يرتشف من البحر الذي تغرف منه « الفرص الحقيقية وأحسن بضاعة في العالم كله » و « ولو لم يكن في الامر إلا أنها مصرية » شبيهة بكل ما ينسب إلى مصر والمصريين على عناوين الدكاكين. ولااختلاف سوى أن الباعة لايغلطون غلطة شوقي فيقولون وهم يعرضون الريشةو يمدحونها بالجدة والسلاسة أن لها صريراً يكاد يحيي الاموات ؟ ؟

وبعد فإن المرء ليزدري العقل الانساني نفسه ان قيل أن هؤلاء الصعاليك الفكريين الذين تقوم عليهم الامارة الشوقية من ذوي مزاياه وحملة أمانته في الارض : فالادباء في الامم هم عنوان حياتيها

الروحية والفكرية .ومعيار لما تحسه من مفاخر الحياة .وقوى الطبيعة ومعاني الوجود ، وهم الرافعون فيها لقبس ذلك النور السماوي الذي يفيضه الله من الآيات والفنون جمالا ونبلا : ويوحيه كمالا وفضلا ، وهم اذا ذكرت الفصاحة في الامم صفحتها الواضحة وطبقتها الممتازة الراجحة ، فقل لي رعاك الله أي هذه الطغمة أميراً كان أو مأموراً تفخر الامة الحية بأنه صورة ما في نفوسها من زينة وجمال ومظهر ما في رؤسها من فكر وخيال وترجمان ما يجول بوجداناتها وتعمر به صدورها من قسط في الوجود وتراث مقسم بين أبناء آدم ، وان المرء ليزهي بآدميته حين يلقي بنفسه في غمار الآداب الغربية وتجيش اعماق ضميره بتدافع تياراتها وتعارض مهابها ومتجهاتها وتجاوب اصدائها واصواتها — أبواب للكتابة منوعة ومهايع متسعة وفنون مبتدعة ، ونحل ومذاهب ، ومدارس ومشارب . والحياة بين هذه الافكار المشرقة معروضة للنظر في كل شية من شياتها محسوسة في كل خطرة من خطراتها متكررة متضاعفة ، شاكة موقنة ، جادة ساخرة ناقمة راضية . شهوانية متنطسة : فياضة غير بكيه ، موصولة بينابيعها مروية ، والنفس تحس من احدى نواحي ذلك العالم الرحب مالا تحسه من سواها فكأنها نفوس متفرقة لانفس واحدة جائمة . كذلك عالمهم : ثم تلتفت إلي الأدب الذي يدعيه اولئك الاميون العارفون بالكتابة ، الجهال المتدثرون بلباس المعرفة : العامة المتطفلون على موائد الخاصة فترى عجباً ، ترى هذا عاكفاً على رقمتية ولعلعه وذاك مدبراً إلى ربربه وسربه ، ومادحاً وهاجياً ومحسوباً على آل فلان ومتمسحاً بآل عمران : نفوس ضاوية وعقول خاوية واخيلة في التراب ثاوية . أو كأنما هي الاثقال إلى القرار هاوية . فصدق إحدى اثنتين :

اما أن أنه نفسه من هؤلاء أشرف ما تنطق به النفس ساعة تسمو إلى أسمى معارج الانسانية . أو أنهم ليسوا من ذاك وإنما هم محترفو حرفة ليس من آلاتها نباغة الطبع وامتياز المدارك ووفور الشعور .

وان من الجناية على مصر والشين لها ان يسمي هؤلاء النفر بعد اليوم أدباءها وتراجمة حياة الروح والفكر فيها . وما ظنك بحياة فنية يعنو ذووها لكل وبش يخطر له أن يسخرهم لقضاء غرض من أغراضه أو يستجلب القوت بهم كما يستجلب الحواة والبهلوانات ارزاقهم بعرض ثعابينهم وخيولهم ؟ ؟ ووارحمتا « للكلتور المصري » يساق دعائمه لتمثيل الروايات وانشاد الاشعار بأيسر مما يساق المولوية لتشييع الجنائز وتلاوة الاذكار ! !

ولقد كان مما قيل في المدنية الحديثة أن أقلام أدبائها احدى الحواجز التي تصونها أن ترتد إلى العصور المظلمة وانها عصمة لها من أن تستبد بعقولهم عادة أو تسيطر على ميولها مصلحة فرد أو طائفة ، وانها سلاح من اسلحتها الماضية تخشاه كل قوة ويحسب حسابه كل طاغية — فأي عصمة لمصر في اقلام هؤلاء المخططين والنظاميين وهم بهذه الحال من الخور والمداجاة ؟ ؟ ألا أن العصا في يد الاكار لأنفع لمدينة مصر واصون لسمعتها من كل قلم تشرعه تلك النفوس المهزولة .

ومن كان كهؤلاء بحيث ينزلون انفسهم من الكرامة فلا اجحاف بهم ولاغضاضة تلحقهم مهما كانت وطأة القلم المنصب عليهم ولقد وجب بل آن أن يفهم الادب على غير ما يفهمونه وان ينحوا عن مكان لم يخلقوا له ولم يخلق لهم .

* * *

وكأنما شاء القدر أن يبدد حبائل شوقي وطلاسمه كلها في بضعة اسابيع . فقد كان الناس يسمعون من يدعونهم في مصر علية القوم يثنون عليه فيغترون بتشيعهم له ويروعهم اعجابهم به ويحسبون أن لرأيهم فيه شأناً وخطرا حتى جاءت لجنة الاغاني فأماطت الستر عما وراء ذلك وهتكت للناس حقيقة أعجاب هؤلاء العلية اذا أعجبوا وقيمة استحسانهم إذا استحسنوا وانها ان هي الا محاباة ماسخة عرت حتى من حسن السبك ولباقة المداراة .

شمرت اللجنة عن ساعديها واغمضت امام المتفرجين عينيها كما يصنع المشعوذ الهندي اذا هم باللعب ، ثم وضعت يدها في الجراب فاخرجت نشيد شوقي وهي تقسم أنها لاتعرفه وجعلت تلوح به للملأ كي يشاركها في الابتهاج به فيا للمهارة ؟ ! ولكنها لسوء حظ شوقي كانت تنقصها خفة اليد ! !

ولاحاجة بنا إلى الاستنتاج ولا إلى العود لما حدث في الجلسة مما أظهر اطلاع اكثر الاعضاء على النشيد قبل التامها اكتفاء بتسجيل حكم اللجنة نفسها على حكمها الاول فالقراء يذكرون أن اللجنة بمن كان فيها من المغنين والعوادين — وهم اعضاؤها الاخصائيون — اختارت نشيد شوقي وأعلنت اسباب اختيارها له في منشورها وهي أنها « انتهت في مناقشتها إلى أنه اكفاها واوفاها بالغرض وأجمعها للمزايا التي ينبغي ان تتسق لنشيد قومي » وكذلك علمنا أن حكمها لم يصدر اعتباطاً ولاكان عن جهل بالمقصود من الاختيار بل جاء بعد المناقشة .

ويذكر القراء أن الاستاذ منصور عوض كتب بعد ذلك في

الصحف ينقد النشيد ويقرر انه لايصلح للتلحين بانغام الاناشيد القومية ثم انهم يذكرون أن فريقاً من اعضاء نادي الموسيقى من الذين كانوا في لجنة الاغاني اذاعوا بعقب ذلك في الصحف أن الاستاذ انما يتكلم برأيه ومعنى هذا أنهم كانوا لايزالون إلى ذلك الحين مصرين على حكم اللجنة مجدين في أبعاد كل مظنة في صلاحية « النشيد الوطني المختار » للتلحين .

فماذا جرى بعد ذلك الحكم المبنى على المناقشة وهذا الاصرار الصادر عن روية ؟

لم يصفق جمهور الناس مع اللجنة وقد بدأت هي أمامهم واقبلوا يسألونها وهي محتدمة تصفيقاً : ما هذا الذي تصفقين له ، نعم لم يعد يكفي في هذه الامور ان يرى الناس ذا لقب يصفق فيصفقون وراءه . وكثر اللغط بتحيزها واجترأ الموسيقيون على الافضاء بآرائهم في تلحين النشيد فسقط سقوطاً تاماً وكان صاحبه أول المنهزمين فقد أخذ يزعم أنه انما نظمه ليغنيه جماعة عكاشة في مسرحهم .. . كأنما النشيد مشي بقدمين إلي ديوان لجنة الاغاني ! ! وخشيت اللجنة أن يكون حكم الامة عليه حكماً قاضياً على معرفتها وانصافها وأخلاصها فبادر أعضاؤها الاخصائيون يبلغون الصحف أن النشيد يصلح للتلحين ولكن لاكنشيد قومي ! ! وقيل بلسان رئيسها انهم لم يشترطوا ذلك في تلحينه . اذن فماذا اشترطتم ؟ ؟ اترا كم كنتم تقدمون للامة « طقطوقة تغنيها على المعازف والآلات ؟ ؟ واين ذهبت تلك المزايا التي اتسقت « للنشيد الوطني المختار » ؟ ؟ .

كذلك تهافت حكم لجنة الاغاني بيدها وانكشف طلسم كان

من أبهر طلاسم الشهرة الجوفاء لعيون الدهماء ، ونعني به طلسم الاسماء الخلابة ووهم الالقاب الجذابة . وعندنا أن لجنة هذا مبلغ غيرتها على مهمتها لن يرجى منها صلاح للاغاني ولاالسواها ولكنها إذا كانت تخرج من العدم لتؤوب اليه بعد أن تكون قد أبطلت وهم العامة في أمثالها فتلك مهمة طيبة تستحق من أجلها نعمة هذا الوجود القصير .

على انها مهمة نفسها على هذه اللجنة فقد شوركت فيها مشاركة لم تدع لها فضلا كبيراً فلو لم تقيضها الحوادث لاظهار قيمة التحبيذ والاطراء من ذوي الالقاب والاسماء لتكفل بذلك محفل آخر أقيم في شهر ديسمبر الماضي وهذه حكايته نرويها ولانعقب عليها :

قال المقطم في عدد يوم الثلاثاء الحادي والعشرين من ذلك الشهر : قد كان يوم الجمعة الماضي ميعاد القاء القصيدة الحسينية التي نظمها حضرة الشاعر الفاضل السيد محمد عبد الله القصري في الحفلة التي أقيمت تكريماً له برآسة حضرة صاحب السمو الامير الجليل عمر طوسن بدار الجمعية الاسلامية بقصر النزهة بشبرا فما وافت الساعة التاسعة صباحاً حتى أقبل المدعوون من علماء وكبراء وأدباء وأعيان فازدحم بهم المكان ثم أقبل نائب الامير محمد بك جلبي باشا معاون الدائرة فصدحت الموسيقى بالسلام وكذلك فرق الكشافة للكشاف الاعظم ثم ابتدأت الحفلة بالذكر الحكيم فنشيد شوقي بك فنشيد الكشافة فمقطعات شعرية من بعض طلبة مدارس الجمعية ثم وقف نائب الامير واعتذر عن سموه بكلمات رقيقة ثم نهض الشاعر ناظم القصيدة وألقاها بين الاعجاب والتصفيق الشديد . وبعد انتهائه قدم

له نائب الامير ساعة ذهبية أثرية ثمينة وتبرع حضرة العربي الكريم عبد المجيد بك محمد السعدي بمائة جنيه لطبع عشرة آلاف نسخة من هذه القصيدة التاريخية ثم وقف حضرة الشاعر العربي عمر بك السعدي والقى قصيدة عامرة اثنى فيها على سمو الامير لتعضيده العلم وامتدح بها الشاعر ثم نزع من أصبعه خاتماً من الماس ووضعه في أصبع الاستاذ القصرى وقدم له سيادة السيد محمد أبو بكر مرغني شيخ السادة المرغنية بمصر خاتماً من الماس وأهداه حضرة عبد الفتاح أفندي عليش لوحة كتب عليها اسمه بخطه الجميل وختمت الحفلة بنشيد مدارس الجمعية أنشده بعض التلاميذ والتلميذات ثم بالقرآن الكريم وأقبل المدعوون وهم يزيدون على ثلاثة آلاف نسمة لتهنئة الشاعر) .

انتهى ما نقلناه من المقطم . فليتأمله القارىء وليتصور اسم شوقي مجرداً من مثل هذه الطنطنة بل ليتصوره محلى بها وليستدل منها على ما شاء من مزية تدخر أو شهادة تقدر . . .

وثم مثل آخر نسوقه تبصره وعبرة لهؤلاء الذين لايعرفون كيف يشرفون اسمنا ويستوجبون الثقة بنا من أعمالهم . هذا الدرس مستمد من حكم لجنة فرنسية كان يصح ان تكون لجنتنا مثلها في انصافها وفي الاخلاص للفن الذي تخدمه وتنشيط المواهب الفتية التي لولا انها آثرت لنفسها الخطة العوجاء على الخطة المثلى . ففي فرنسا مجمع معروف يسمى مجمع المسابقات (اكاديمية كونكور) يحكم في كل سنة بجائزة قدرها اثني عشر ألف فرنك للسابق من الادباء في باب من أبواب التأليف ، فأصاب جائزة السنة المنصرمة فتى اسمه ارنست بيرشون لرواية قصصية ألفها . افيدري القاري من هذا ارنست بيروشون ؟ ؟

نقلت الانباء البرقية اسمه ذات يوم فالتفت زميلنا المترجم الفرنسي يسأل عن شأنه فاذا المسؤل والسائل في العلم به سواء : راجعوا كتب الفهارس والتراجم المشهورة فألفوها خلوا من كل اشارة اليه أو إلى اسم قريب منه . فترجموا النبأ متبوعاً فيه اسمه بعلامة استفهام . ومضت الايام ونسينا خبره حتى جاء البريد فلفت نظري عنوان في احدى صحفه هذه ترجمته « خير روايات العام . يؤلفها ابن فلاح . يربح جائزة الاكاديمية الفرنسية » (١) فتصفحت الجملة فاذا به صاحبنا بيروشون واذا هو مجهول هناك كجهل قراء مصربه . قال مراسل الديلي كرونيكل في باريس « وكان بيروشون ، وهو في الخامسة والثلاثين ، مجهولا إلى يوم أمس جهلاتاما وان كان قد طبع في الاقاليم عدة دواوين شعرية وثلاث قصص . : . ولم يكن أحد من أعضاء المجمع يعرفه إلا أن أحدهم قرأ قصته المقدمة اتفاقاً فاعجبته فقرظها لزملائه . وكان كثير من الادباء النابهين بين طلاب الجائزة يوم أمس ولكن فاز أستاذ القرية المتواضع دونهم بمشعل النصر » .

فيا قوم . اذا نشطت القرائح هناك وخمدت هنا فلا عجب . تلك لجانهم تعدل في أحكامها هذا العدل وتحيي كل ملكة صالحة للحياة وهم لايأتمون بها مغمضين ولايسلمون لها خاضعين ، فكيف لو انها كانت كلجنتنا هذه المباركة . لجنة لاتحسن غير المجاملة ولا تحسن ان تجامل الا بأن ترضي فردا لتقضى على أمة كاملة بالعقم والاقفار ؟ ان في ذلك لموعظة .

* * *

---

(١) جريدة الديلي كرونيكل عدد ١٣ ديسمبر ١٩٢٠ .

وخلاصة القول اننا عرفنا رأي القراء في عملنا فقسمناهم إلى فريقين . فاما الذين يعجبون بشوقي لغير سبب معقول يفيء إلى شعره فقد اسخطناهم ولانسأل الله أن يخفف سخطهم . وأما الذين يرجعون إلى الاسباب فقد وثقنا منهم بالمؤازرة وكان أقلهم موافقة من أرجأ الحكم لنفسه حتى يرى . واننا لنعلم انه يرى ما يقنعه :

ونجمل هذه الخلاصة بشكل آخر فنقول : ان رأى الاولين يمثله كتاب ورد الينا غفلا من التوقيع يقول فيه كاتبه ما ترجمته : « خل مذهبك الجديد لنفسك فما نحن بحاجة اليه »

وجوابنا لهذا وأمثاله : « صدقتم ولاهو بحاجة اليكم »

ويمثل رأي الاخرين بيت لقينا به أديب مشهور فقال: ايه يافلان، اليك بيتاً يسير مسير الامثال :

شوقـي تولاه عبـاس فاظهـره
والـيـوم يخملـه في النـاس عبـاس

وجوابنا له : انه عصر يخذل عصراً ولاغية وهم تخفتها صيحة حق : وانا لعلى الحق صامدون .

* * *

رثاء مصطفى كامل

قال قائل من سماسرة شوقي : ما ترى في رثائه لمصطفى كامل ؟ أتنتقده؟ قلت وماذا عساي أن أنتقد ان لم أنتقد الهراء والزيف والشتات؟ قال ان القصيدة آيته : قلت لقد هديتني هداك الله فما كنت أظنها آية لاحد من العالمين وما حسبتها الازلة أسقطته فيها (مغالبة الشجون لخاطره) أو داهية خانه فيها امكانه الذي ما فتيء يخونه كما قال منها :

ماذا دهانـــي يـــوم بنـــت فعقنـــي
فيـــك القريـــض وخانـــي امكاني

وما دهاه إلا العجز والفهاهة والحرج : دهته أولا فأجبل وحسر واستعصى عليه النظم فصنعها في أربعين يوماً ثم زاد كثيراً من أبياتها وغير وبدل فيها : ثم دهته ثانياً فجرى فيها على عادته من التلفيق والعقم والزغل المموه : فأما وقد علمت أنها الآية التي بها تؤمن شيعته وذوو المآرب عنده والمعجزة التي يستنصر بها دعاته فبآيته فلندحض رسالته وفي معقله الحصين فلنكشف وهنه ونفضح مطاعنه ، وانها لآية ومعجزة والحق يقال ومعقل وأي معقل : ولكنها آية السيمياء ومعجزة الشعوذة ومعقل الرمل بل أخوى من ذلك وأضعف ، وأضأل في الضؤلة واسخف ، أراحه الله من شعره بما أراح من أقلام نقاده فانه علم الله لم يزعج لهم بديهة وان كان يزعج بديهته في صباح

ومساء ، ولا كد لهم خاطراً وان كان خاطره منه في وصب وشقاء :
ولقد فات أصحابنا سماسرة شوقي ان خلافنا معهم لم يكن خلافاً على درجات الاجادة وخطوات السبق فتتقارب كلما أجاد شاعرهم في رأيهم أو خيب آمالهم واخلف ظنونهم ، ولكننا نختلف على نوع الشعر وجوهره ثم على أدائه وطبقته فربما كانت ارفع القصائد عندهم درجة أخسها عندنا معدنا وربما طربوا كل الطرب من حيث نعزف كل العزوف . كالمسحور كلما ازداد استحساناً لما هو فيه كان أبعد عن حالة الصحو والصواب ، وكالاعجمي كلما أمعن في فصاحته وبيانه استغلق على مسامع الاعراب . وهذا هو الواقع في ما أخذناه ونأخذه على شعر شوقي وهو بخاصة شأننا في الحكم على قصيدته هذه التي رأينا بعض المفتونين يجلها عن الانتقاد ويعجب من أن تعاب وهي لويفقه من القصائد التي يصاب منها المذهب العتيق في مقاتله والشواهد التي يبحث عنها لابراز مآخذه : وسنستعرضها على عيوب ذلك المذهب فنبين مواقعها منها حتى يكون لمن قصر النظر على قشورها رأى غير رأيه الاول فيها .

فالعيوب المعنوية التي يكثر وقوع شوقي واضرابه فيها عديدة مختلفة الشيات والمداخل ولكن أشهرها وأقربها إلى الظهور وأجمعها لاغلاطهم عيوب أربعة وهي بالايجاز : التفكك والاحالة والتقليد والولوع بالاعراض دون الجواهر — وهذه العيوب هي التي صيرتهم أبعد عن الشعر الحقيقي الرفيع المترجم عن النفس الانسانية في أصدق علاقاتها بالطبيعة والحياة والخلود من الزنجي عن المدينة ومن صور الابسطة والسجاجيد كما يقول ماكولي عن نفائس الصور الفنية :

ولكل من العيوب الآنفة أثر ظاهر في هذه القصيدة قد لانجده في غيرها من القصائد الامزويا أو دقيقاً عن فهم الكثيرين . وسنرى بعد سبر القصيدة بهذا المسبار أن من نقائض الشعر مالا يمنع أن يلمح له رواء معجب يستهوي البسطاء بل ربما زادته جمالا في الظاهر كالحلى المزيفة فانها في الغالب اجمل من كريم الحلى والجواهر ، ولكنها تمنع أن يكون للشعر قيمة غالية .

(١) التفكك

فاما التفكك فهو أن تكون القصيدة مجموعاً مبدداً من أبيات متفرقة لا تؤلف بينها وحدة غير الوزن والقافية وليست هذه بالوحدة المعنوية الصحيحة اذ كانت القصائد ذات الاوزان والقوافي المتشابهة أكثر من أن تحصى فاذا اعتبرنا التشابه في الاعاريض وأحرف القافية وحدة معنوية جاز اذن ان ننقل البيت من قصيدة إلى مثالها دون أن يخل ذلك بالمعنى أو الموضوع وهو مالا يجوز . ولتوفية البيان نقول ان القصيدة ينبغي أن تكون عملا فنياً تاماً يكمل فيها تصوير خاطر أو خواطر متجانسة كما يكمل التمثال بأعضائه والصورة بأجزائها واللحن الموسيقي بانغامه بحيث اذا اختلف الوضع أو تغيرت النسبة أخل ذلك بوحدة الصنعة وأفسدها . فالقصيدة الشعرية كالجسم الحي يقوم كل قسم منها مقام جهاز من أجهزته ولايغنى عنه غيره في موضعه الا كما تغنى الأذن عن العين أو القدم عن الكف أو القلب عن المعدة . أو هي كالبيت المقسم لكل حجرة منه مكانها وفائدتها وهندستها . ولاقوام لفن بغير ذلك حتى فنون الهمج المتأبدين فانك تراهم يلائمون بين ألوان الخرز واقداره في تنسيق عقودهم وحليهم

ولاينظمونه جزافاً الا حيث تنزل بهم عماية الوحشية إلى حضيضها الادنى وليس دون ذلك غاية في الجهالة ودمامة الفطرة . ومتى طلبت هذه الوحدة المعنوية في الشعر فلم تجدها فاعلم انه ألفاظ لاتنطوي على خاطر مطرد او شعور كامل الحياة بل هو كامشاج الجنين المخدج بعضها شبيه ببعض أو كاجزاء الخلايا الحيوية الدنيئة لايتميز لها عضو ولا تنقسم فيها وظائف واجهزة ، وكلما استفل الشيء في مرتبة الخلق صعب التمييز بين أجزائه فالجماد كل ذرة منه شبيهة بأخواتها في اللون والتركيب صالحة لان تحل في أي مكان من البنية التي هي فيها فاذا ارتقيت إلى النبات ألفيت للورق شكلا خلاف شكل الجذوع وللالياف وظيفة غير وظيفة النوار ، وهكذا حتى يبلغ التباين أتمه في أشرف المخلوقات وأحسنها تركيباً وتقويماً . وهي سنة تتمشى في أجناس الناس كما تتمشى في أنواع المخلوقات ومصداق ذلك ما نشاهده من تقارب الاقوام المتأخرة في السحنة والملامح حتى لتكاد تشتبه وجوههم جميعاً على الناظر وهي حقيقة فطنت اليها قبائل البدو بالبداهة ولمسها البحتري في هجوه لمعشر ينعتهم بالهوان والضعة ويقول فيهم :

وبنو الهجيـم قبيلـة منحوسـة
حـص اللحـى متشابهـو الالـوان

لو يسمعـون بأكلـة أو شربـة
بعمـان أصبـح جمعهـم بعمـان

وعلى نقيض ذلك الشعوب العريقة في الحضارة تراها تتفاوت اقداراً وملامح وبدوات وأطواراً حتى ليوشك أن يكون من المستحيل

اتفاق اثنين في هندام الجسم وهيئته وفي مواهب الذهن ونزعته :
ونقترب مما نحن بصدده فنقول انك كلما شارفت فترة من فترات الاضمحلال في الادب ألفيت تشابهاً في الاسلوب والموضوع والمشرب وتماثلا في روح الشعر وصياغته فلا تستطيع مهما جهدت أن تسم القصائد بعناوين وأسماء ترتبط بمعناها وجوهرها لما هو معروف من أن الاسماء تتبع السمات والعناوين تلصق بالموضوعات ، ورأيتهم يحسبون البيت من القصيدة جزءاً قائماً بنفسه لاعضو متصلا بسائر أعضائها فيقولون أفخر بيت وأغزل بيت وأشجع بيت وهذا بيت القصيد وواسطة العقد كأن الابيات في القصيدة حبات عقد تشتري كل منها بقيمتها فلا يفقدها انفصالها عن سائر الحبات شيئاً من جوهرها وهذا أدل دليل على فقدان الخاطر المؤلف بين أبيات القصيدة وتقطع النفس فيها وقصر الفكرة وجفاف السليقة فكانما القريحة التي تنظم هذا النظم ومضات نور متقطعة لاكوكب صامد متصل الاشعة يريك كل جانب وينير لك كل زوايا وشعبة ، أو كانما هي ميدان قتال فيه الف عين والف ذراع والف جمجمة ولكن ليس فيه بنية واحدة حية :ولقد كان خيراً من ذلك جمجمة واحدة على أعضاء جسم فرد فيها حياة .

واذ كان ذلك كذلك فلا عجب أن تري القصيدة من هذا الطراز كالرمل المهيل لايغير منه أن تجعل عاليه سافله أو وسطه في قمته ، لاكالبناء المقسم الذي ينبئك النظر اليه عن هندسته وسكانه ومزاياه .

وهذه كومة الرمل التي يسميها شوقي قصيدة في رثاء مصطفى كامل نسأل من يشاء أن يضعها على أي وضع فهل يراها تعود الاكومة

رمل كما كانت ؟ ؟ وهل فيها من البناء الا احقاف خلت من هندسة تختل ومن مزايا تنتسخ ومن بناء ينقض ومن روح سارية ينقطع اطرادها أو يختلف مجراها : وتقريرا لذلك نأتي هنا على القصيدة كما رتبها قائلها ثم نعيدها على ترتيب آخر يبتعد جد الابتعاد عن الترتيب الاول ليقرأهما القارىء المرتاب ويلمس الفرق بين ما يصح أن يسمى قصيدة من الشعر من أبيات مشتتة لاروح لها ولاسياق ولاشعور ينتظمها ويؤلف بينها . ونحن نأسف على فضاء نضيعه من صفحاتنا فلا يعزينا عن ضياعها الا أنها كما نرجو لاتضيع عبثاً — قال شوقي أصلحه الله ·

١ — المشرقان عليـك ينتحبـان
قاصيهمـا في مأتم والدانـي

٢ — ياخادم الاسـلام أجـر مجاهـد
في اللـه من خلـد ومن رضوان

٣ — لما نعيت إلى الحجاز مشـى الاسـى
في الزائريـن وروع الحرمـان

٤ — السكـة الكبرى حيـال رباهمـا
منكوسـة الاعـلام والقضبـان

٥ — لم تألهـا عنـد الشدائـد خدمـة
في اللـه والمختـار والسلطـان

٦ — يا ليت مكـة والمدينة فازتـا
في المحفليـن بصوتـك الرنـان

٧ ـ ليرى الاواخر يوم ذاك ويسمعوا
ما غاب عن قس وعن سحبان

٨ ـ جار التراب وأنت أكرم راحل
ماذا لقيت أمن الوجود الفاني

٩ ـ ابكي صباك ولا أعاتب من جنى
هذا عليه كرامة للجاني

١٠ ـ يتساءلون ابالسلال قضيت أم
بالقلب أم هل مت بالسرطان

١١ ـ الله يشهد ان موتك بالحجا
والجد والاقدام والعرفان

١٢ ـ ان كان الاخلاق ركن قائم
في هذه الدنيا فانت الباني

١٣ ـ بالله فتش عن فؤادك في الثرى
هل فيه آمال لنا وأماني

١٤ ـ وجدانك الحي المقيم على المدى
ولرب حي ميت الوجدان

١٥ ـ الناس جار في الحياة لغاية
ومضلل يجري بغير عنان

١٦ ـ والخلد في الدنيا وليس بهين
عليا المناصب لم تتح لجبان

١٧ - ولو ان رسل الله قد جبنوا لما
ماتوا على دين ولا ايمان

١٨ - المجد والشرف الرفيع صحيفة
جعلت لها الاخلاق كالعنوان

١٩ - واحب من طول الحياة بذلة
قصر يريك تقاصر الاقران

٢٠ - دقات قلب المرء قائلة له
ان الحياة دقائق وثوان

٢١ - فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها
فالذكر للانسان عمر ثان

٢٢ - للمرء في الدنيا وجم شؤنها
ما شاء من ربح ومن خسران

٢٣ - فهي الفضاء لراغب متطلع
وهي المضيق لمؤثر السلوان

٢٤ - الناس غاد في الشقاء ورائح
يشقى له الرحماء وهو الهاني

٢٥ - ومنعم لم يلق الا لذة
في طيها شجن من الأشجان

٢٦ - فاصبر على نعم الحياة وبؤسها
نعمى الحياة وبؤسها سيان

٢٧ ــ يا طاهر الغدوات والروحات والخـ
طرات والاسرار والاعــلان

٢٨ ــ هل قام قبلــك في المدائــن فاتحــاً
غـــاز بغيـــر مهنــد وسنــان

٢٩ ــ يدعو إلى العلــم الشريف وعنــده
ان العلــوم دعائــم العمــران

٣٠ ــ لفوك في علــم البــلاد منكســاً
جزع الهــلال عــلى فتى الفتيــان

٣١ ــ ما احمر من خجل ولا من ريبــة
لكنمــا يبكــي بدمــع قــان

٣٢ ــ يزجون نعشك في السناء وفي السنى
فكأنمــا في نعشك القمــران

٣٣ ــ وكانــه نعش الحسين بكربلا
يختــال بيــن بكــي وبيــن حنــان

٣٤ ــ في دمــة اللــه الكريــم وبره
مــا ضم مــن عرف ومــن احســان

٣٥ ــ ومشى جلال الموت وهو حقيقــة
وجلالــك المصدوق يلتقيــان

٣٦ ــ شقت لمنظرك الجيوب عقائــل
وبكتــك بالدمــع الهتــون غوان

٣٧ ـ والخلق حولك خاشعون كعهدهـــم
اذ ينصتـــون لخطبـــة وبيـــان

٣٨ ـ يتساءلون باي قلـــب ترتقـــى
بعـــد المنابـــر أم بأي لســـان

٣٩ ـ فلو ان أوطانا تصور هيكـــلا
دفنـــوك بيـــن جوانـــح الاوطان

٤٠ ـ او كان يحمـــل في الجوانح ميـــت
حملـــوك في الاسمـــاع والاجفـــان

٤١ ـ أو صيغ من غرر الفضائل والعـــلى
كفـــن لبســـت أحاســـن الاكفـــان

٤٢ ـ أو كان للذكر الكريـــم بقيـــة
لم تـــأت بعـــد رثيـــت في القـــرآن

٤٣ ـ ولقد نظرتك والردى بك محـــدق
والـــداء ملء معالـــم الجثمـــان

٤٤ ـ يبغى ويطغى الطبيب مضلـــل
قنـــط وساعـــات الرحيـــل دوان

٤٥ ـ ونواظر العواد عنـــك أمالهـــا
دمـــع تعالـــج كتمـــه وتعانـــي

٤٦ ـ وتملى وتكتب والمشاغـــل جمـــة
ويداك في القرطـــاس ترتجفـــان

٤٧ ــ فهششت لي حتى كأنك عائــدي
وأنــا الذي هــد السقــام كياني

٤٨ ــ ورأيت كيف تموت آساد الشرى
وعرفــت كيف مصارع الشجعـــان

٤٩ ــ ووجدت في ذاك الخيــال عزائمــاً
مــا للمنــون بدكهــن يــدان

٥٠ ــ وجعلت تسألني الرثاء فهاكــه
من ادمعــي وسرائري وجنانــي

٥١ ــ لولا مغالبة الشجون لخاطـري
لنظمــت فيــك يتيمــة الازمان

٥٢ ــ وأنا الذي أرثي الشموس اذا هــوت
فتعــود سيرتهــا مــن الدوران

٥٣ ــ قد كنت تهتف في الورى بقصائدى
وتجــل فــوق النيــرات مكانــي

٥٤ ــ ماذا دهاني يوم بنــت فعقنــن
فيــك القريــض وخانتــي مكاني

٥٥ ــ هون عليك فلا شمــات بميــت
إن المنيــة غايــة الانســان

٥٦ ــ مــن للحســود بميتــة بلغتهــا
عــزت عــلي كسرى انو شروان

٥٧ ـ عوفيت من حرب الحياة وحربهـا
فهـل استرحـت ام استراح الشاني

* * *

٥٨ ـ يا صب مصر ويا شهيـد غرامهـا
هـذا ثرى مصر فنم بأمـان

٥٩ ـ اخلع على مصر شبابـك عاليـا
والبس شبـاب الحـور والولدان

٦٠ ـ فلعل مصراً من شبابـك ترتـدى
مجـداً تتيـه بـه عـلى البلـدان

٦١ ـ فلو ان بالهرميـن من عزماتـه
بعـض المضاء تحرك الهرمـان

٦٢ ـ علمـت شبـان المدائـن والقرى
كيف الحيـاة تكـون في الشبـان

٦٣ ـ مصر الاسيفة ريفهـا وصعيدهـا
قبـر أبـر عـلى عظامـك حـان

٦٤ ـ أقسمت انك في التراب طهـاوة
مـلك يهـاب سؤالـه الملكـان

* * *

كذلك انتظمت لشوقي مرثاة في مصطفى كامل وسماها قصيدة لانها لم تأب أن تستقر في قرطاس واحد ، ولقد كان أحرى بها ان

تسمى أربعة وستين بيتاً منظومة في كل شيء أو في لاشيء . فاعبرها أيها القارىء على هذا الترتيب ثم خذها على ترتيب آخر أربعة وستين بيتاً لم تزد و لم تنقص ولم تخسر حسنة كانت لها بل لعلها ربحت وعادت أحسن نسقاً وأقرب نظماً — قال شوقي أيضاً :

١ — المشرقان عليـك ينتحبـان
قاصيهمـا في مأتـم والدانـي

١٤ — وجدانك الحي المقيـم على المدى
ولـرب حـي ميـت الوجـدان

٢١ — فارفع لنفسك بعد موتك ذكرهـا
فالذكـر للانسـان عمـر ثـان

٦٤ — أقسمت انك في التراب طهـارة
ملك يهـاب سؤالـه الملكـان

٢٧ — يا طاهر الغدوات والروحات والخـ
طـرات والاسـرار والاعـلان

٩ — ابكي صباك ولاأعاتب من جنى
هـذا عليـك كرامـة للجانـي

١٩ — وأحب من طول الحيـاة بذلـة
قصر يريـك تقاصر الاقـران

٣٦ — شقت لمنظرك الجيوب عقائـل
وبكتـك بالدمـع الهتـون غـوان

٥٥ ـ هون عليك فلا شمات بميت
ان المنية غاية الانسان

٢٠ ـ دقات قلب المرء قائلة له
أن الحياة دقائق وثوان

١٣ ـ بالله فتش عن فؤادك في الثرى
هل فيه آمال لنا واماني

٦٠ ـ فلعل مصراً من شبابك ترتدي
مجداً تتيه به على البلدان

٤٣ ـ ولقد نظرتك والردى بك محدق
والداء ملء معالم الجثمان

٤٤ ـ يبغى ويطغى والطبيب مضلل
قنط وساعات الرحيل دوان

٤٩ ـ ووجدت في ذاك الخيال عزائماً
ما للمنون بدكهن يدان

٦١ ـ فلو ان بالهرمين من عزماته
بعض المضاء تحرك الهرمان

٤٦ ـ تملي وتكتب والمشاغل جمة
ويداك في القرطاس ترتجفان

٤٥ ـ ونواظر العواد عنك أمالها
دمع تعالج كتمه وتعاني

٤٧ ــ فهششت لي حتى كانك عائــدي
وأنــا الذي هــد السقــام كياني

٥٠ ــ وجعلت تسألني الرثاء فهــاكــه
مــن أدمعــي وسرائــري وجنانــي

٤٨ ــ ورأيت كيف يموت آساد الشرى
وعرفــت كيف مصارع الشجعــان

٥٤ ــ ماذا دهاني يوم بنــت فعقنــي
فيــك القريــض وخاننــي امكاني

٥٢ ــ وانا الذي ارثي الشموس اذا هــوت
فتعــود سيرتهــا مــن الدوران

٥٢ ــ قد كنت تهتف في الورى بقصائدي
وتجــل فــوق النيــرات مكانــي

٥١ ــ لولا مغالبة الشجون لخاطري
لنظمــت فيــك يتيمــة الازمــان

* * *

٥٨ ــ يا صب مصر ويا شهيــد غرامهــا
هــذا ثــرى مصر فنــم بأمــان

٦٣ ــ مصر الأسيفة ريفهــا وصعيــدهــا
قبــر أبــر عــلى عظامــك حــان

٣٤ — في ذمة الله الكريم وبره
ما ضم من عرف ومن احسان

٤١ — لو صيغ من غرر الفضائل والعلى
كفن لبست أحاسن الاكفان

٤٠ — أو كان يحمل في الجوانح ميت
حملوك في الاسماع والاجفان

٣٩ — ولو ان أوطانا تصور هيكلا
دفنوك بين جوانح الاوطان

٤٢ — أو كان للذكر الحكيم بقية
لم تأت بعد رثيت في القرآن

٢ — يا خادم الاسلام أجر مجاهد
في الله من خلد ومن رضوان

٦ — ياليت مكة والمدينة فازتا
في المحلفين بصوتك الرنان

٧ — ليرى الاواخر يوم ذاك ويسمعوا
ما غاب عن قس وعن سحبان

٣ — لما نعيت إلى الحجاز مشى الاسى
في الزائرين وروع الحرمان

٤ — السكة الكبرى حيال رباهما
منكوسة الاعلام والقضبان

* * *

٨ — جار التراب وأنت أكرم راحل
ماذا لقيت من الوجود الفاني

٥٧ — عوفيت من حرب الحياة وحربها
فهل استرحت أم استراح الشاني

١٠ — يتساءلون أبالسلال قضيت أم
بالقلب أم هل مت بالسرطان

١١ — الله يشهد ان موتك بالحجى
والجد والاقدام والعرفان

١٨ — المجد والشرف الرفيع صحيفة
جعلت لها الاخلاق كالعنوان

١٢ — ان كان للاخلاق ركن قائم
في هذه الدنيا فأنت الباني

٢٨ — هل قام قبلك في المدائن فاتحاً
غاز بغير مهند وسنان

٢٩ — يدعو إلى العلم الشريف وعنده
ان العلوم دعائم العمران

٦٢ — علمت شبان المدائن والقرى
كيف الحياة تكون في الشبان

١٦ — والخلد في الدنيا وليس بهين
عليا المناصب لم تتح لجبان

٢٣ — فهي الفضاء لراغب متطلع
وهي المضيق لمؤثر السلوان

١٧ — ولو ان رسل الله قد جبنوا لما
ماتوا على دين ولا ايمان

* * *

٣٠ — لفوك في علم البلاد منكساً
جزع الهلال على فتى الفتيان

٣١ — ما احمر من خجل ولا من ريبة
لكنما يبكي بدمع قان

٣٥ — ومشى جلال الموت وهو حقيقة
وجلالك المصدوق يلتقيان

٣٢ يزجون نعشك في السناء وفي السنى
فكأنما في نعشك القمران

٣٣ — وكأنه نعش الحسين بكربلا
يختال بين بكي وبين حنان

٣٧ — والخلق حولك خاشعون كعهدهم
اذ ينصتون لخطبة وبيان

٣٨ — يتساءلون باي قلب ترتقي
بعد المنابر أم بأي لسان

٥٧ ـ اخلع على مصر شبابك عالياً
والبس شباب الحور والولدان

٥ ـ لم تألها عند الشدائد خدمة
في الله والمختار والسلطان

١٥ ـ الناس جار في الحياة لغاية
ومضلل يجري بغير عنان

٢٥ ـ ومنعم لم يلق الا لذة
في طيها شجن من الاشجان

٢٢ ـ للمرء في الدنيا وجم شؤنها
ما شاء من ربح ومن خسران

٢٤ ـ والناس غاد في الشقاء ورائح
يشقى له الرحماء وهو الهاني

٢٦ ـ فاصبر على نعمى الحياة وبؤسها
نعمى الحياة وبؤسها سيان

* * *

فانظر أيها القارىء إلى هذه المرثاة هل ترى بينها وبين سابقتها من تفاوت ؟ ؟ على اننا قد تناولنا الابيات عفواً كدا بدرت لنا ولم نتحر الاقصاء في الترتيب . ولو اننا غيرنا بعض الضمائر التي تعلق الاسم على الاسم ولا رابطة بينهما وصحفنا حروف العطف التي تصل الجملة بالجملة ولاتناسب بين معناهما لم يكد يجتمع بيت

من القصيدة على بيت ، وانما يظهر انحلال هذه القصيدة من سؤال القارىء نفسه : هل قرأ في الشعر أشد تفككاً منها ؟ ؟ فعلى حسب الجواب يكون حكمه على مصدرها من قريحة شوقي وهل هي نبعت من شعور فياض يتدفق على موضوعه فيغمره كما يغمر السيل الوهاد والنجاد أو تقطرت من عقل ناضب يبض بالقطرة بعد القطرة بخلع الضرس وبخلع النفس فتأتى كالرشاش لايتولد منه الا الوحل واليبس؟ ؟

وقبل أن نتحول من كلامنا على التفكك وفقدان الوحدة الفنية ننبه من يستبهم عليه الامر إلى اننا لانريد تعقيباً كتعقيب الاقيسة المنطقية ولاتقسيماً كتقسيم المسائل الرياضية وانما نريد أن يشيع الخاطر في القصيدة ولاينفرد كل بيت بخاطر فتكون كما أسلفنا بالاشلاء المعلقة أشبه منها بالاعضاء المنسقة كما رأينا في هذه القصيدة .

« ٢ » الاحالــة

أما الاحالة فهي فساد المعنى وهي ضروب فمنها الاعتساف والشطط ومنها المبالغة ومخالفة الحقائق ومنها الخروج بالفكر عن المعقول أو قلة جدواه وخلو مغزاه وشواهدها كثيرة في هذه القصيدة خاصة فمن ذلك قوله :

السكـــة الكبرى حيال رباهما
منكـــوسة الاعـــلام والقضبان

وقضبان السكك الحديدية لاتنكس لانها لاتقام على أرجل وانما تطرح على الارض كما يعلم شوقي . اللهم الا إذا اظن انها أعمدة تلغراف . على انها لو كانت مما يقف أو ينكس لما كان في المعنى

طائل،اذ ما غناء قول القائل في رثاء العظماء ان الجدران أو العمد مثلا نكست رؤسها لاجله ؟ ؟ ومنه قوله :

ان كـــان للأخـلاق ركـن قائـم
(في هذه الدنيـــا) فانــت البانـــي

وهذا بيت لو جرى المدح والرثاء كله على سننه وانتظم النطق والاداء أجمعه على طريقته ونمطه لما فهم الناس من الكلام شيئاً ولما كان على من يؤتى هذه المقدرة من المنطق ضير ولاخسارة من قطع لسانه . والكلام في كل لغة ولأي قصد انما يحتاج اليه للدلالة على معنى معين أو وصف يطابق موصوفه فان لم يكن كذلك فهو وبحران المحموم وهتر المجنون سواء ، والشعر اذا لم يصح أن يقال في انسان معلوم أو صح أن يقال في كل انسان : في السياسي والعالم والاديب والواعظ والصانع ، فهو الهذيان بعينه ، فماذا يفهم السامع من بيت كهذا يرثي به مصطفى كامل ؟؟ أيفهم انه وحده هو الباني لكل ركن للاخلاق في هذه الدنيا ؟ ؟ اذن فماذا يقال عن النبي ان قيل هذا عن الزعيم السياسي ؟ ؟ وهل لايصح حينئذ أن يقال هذا القول في قائد الحرب وفي جوابة الآفاق وفي خطيب المحافل وفي التاجر السري والوزير المحنك والمربي المرشد والمخترع الحاذق بل في كل انسان بل في الناس جميعاً بل في مخلوقات الله وكائناته طرا من حي ونابت وجامد ؟ فانه على كل وجه صرفته قول خلا من الصدق والمدلول سواء أرثيت به حجراً أم رثيت به كونفوشيوس الذي دان بمذهبه ألوف الملايين منذ ألوف السنين . ولاجرم فان كونفوشيوس ان كان قد سن للناس شريعة فما كل الاخلاق في الشرائع ، وهب الشرائع مصدر الاخلاق

كافة فليس كونفوشيوس وحده صاحب شريعة في قومه ، وهبه نبيهم الفرد فما الصين كل العالم ، وهبها كل العالم فما كان تاريخ (هذه الدنيا) تاريخ جيل واحد . ولقد كان مصطفى زعيماً سياسياً يوقظ هذه الامة فلو قيل فيه انه موقظ كل نفس بمصر في عصره لما كان هذا حقاً اذ كم في مصر من رجل أيقظه ما أيقظ مصطفى نفسه من الحوادث والعبر والمعارف وكم فيها من أناس لم يطرق صوته لهم سمعاً ولاقلباً ؟ ؟ فاذا زيد على ذلك انه موقظ كل نفس بمصر في كل عصر فقد صار الكلام لغوا وسفهاً فاذا لم يكتف بهذا وقيل عنه انه موقظ كل الناس من جميع الامم في جميع العصور فالامر شر من اللغو وأقبح من السفه — هذا وما تجاوزنا دائرته من النهضات السياسية فما ظنك اذا خرج القائل من هذه الدائرة إلى دائرة الاصلاح الاخلاقي فزعم ان ليس للاخلاق ركن قام في هذه الدنيا الا وهو من بناء رجل ولد في أواخر القرن التاسع عشر ، وانها من بنائه قبل مولده وحيث لم تخطر له قدم ولم يسمع لاسمه صدى ؟ ؟ اذن يكون بكم العجماوات خيراً من شعر الآدميين كما قلنا في فصل مضى .

ومن الاحالة قوله :

بالله فتش عن فؤادك في الثرى
هل فيه آمال لنا وأماني

لو سأل : هل في قلبك المدفون في الثرى آمال لنا وأماني لاغتفرت له هذه الثرثرة على قلة محصلها وتفاهة مغزاها . أما الذي يسأل أن يفتش فلا يصح أن يسأل هل في قلبك آمال وأماني الا في معرض

التبكيت والتأنيب كمن يقول لرجل يتحرك ولايعي : يا هذا الذي يمشي هل أنت حي ؛ ؟ ؟ ولقد قال حكيم :

تمــوت مــع المــرء حاجاتــه
وتبقــى لــه حاجــة مــا بقــى

فكل من يفرض فيه انه يفتش فله قلب تحول فيه الآمال ، بله كبار النفوس وبعيدي الهمم ومنها :

فلو ان رســل اللــه قد جبنــوا لمــا
ماتــوا عــلى ديــن ولا ايمــان

الصواب في اظهار فضل الشجاعة ان يقال انها لازمة في أصغر المطالب وأقرب الغايات كما يقال في اظهار فضل المال ان الانسان لايقدر على أن يشتري ابرة بغيره ولايقال في الدلالة على شدة لزومه وبيان الحاجة اليه انه لايقدر على شراء مدينة بدونه . ولو قال شاعرنا احقر الناس خليق أن لايكسب قوته القفار بغير الشجاعة لكان لقوله معنى ، أما الاستشهاد على قدرها واستجاشة الناس لها بانها ضرورية لمن كان رسولاً ففي وسع الناس قاطبة أن يقنعوا بمادون الرسالة فلا يحتاجو إلى الشجاعة . اما ان قيل ان الشاعر يعني ان الرسل الذين تمدهم قوة الله وتؤيدهم روح الله لابد أن يكونوا شجعاناً حتى يؤمنوا فقد اعتذر القائل من فارغ الكلام بما هو أفرغ منه وهل اذا سمعت أيها القارىء رجلا يخبرك أن المصارع المؤيد بالمتة ومتانة الخلق لو لم يكن قوياً لما كان قوياً أكنت تظنه يخبرك بشيء يستحق أن ينظم في بيت شعر ؟ ؟ فهذا الذي يخبرنا به شوقي ان صح انه يعنى ما افترضناه ومن احالاته :

فهي الفضاء لراغب متطلع
وهي المضيق لمؤثر السلوان

والذي يقوله الناس — وشوقي منهم اذا شاء — ان فضاء الدنيا يضيق بالراغب المتطلع وان سعة الرحب تأزم بالطامح المتدفع ، لبعد آماد همته وتطاول آناء طماعته ، وقد يقولون ان القانع السالي ينفسح له سم الخياط ويرحب به جحر الضب ؟ ؟ فأما القول بأن المطامع تفسح الدنيا والسلوان يحرجها فرأيي لايخطر الا على فكر كفكر شوقي المقلوب .

ومن هذه الاحالات هذه الفهاهة :

فاصبر على نعمى الحياة وبؤسها
نعمى الحياة وبؤسها سيان

والصبر على بؤس الحياة معروف أما للصبر على نعماها فماذا هو ولكن ويحنا فقد نسينا ان المصائب والخيرات سيان فلا غرابة في ان ان يصبر الانسان على النعمة وأن تبطره المحنة . هكذا يقول شوقي وما أصدقه فاننا لانرى منحة هي أشبه بالمحنة من هذا الشعر الذي أنعم الله به عليه . ولله في خلقه شؤون ويقول :

يزجون نعشك في السناء وفي السنى
فكأنما في نعشك القمران

وزعيمنا الفقيد كان فردا والقمران اثنان فمن كان الثاني في ذلك النعش ؟ ! ولايقال ان صاحبنا أراد مقابلة السناء والسنى بالقمرين لان السناء هو الرفعة والسنى النور والشمس والقمر كلاهما رفيع

منير فلو انه قال « كأنما في نعشك القمر » أو « كأنما في نعشك الشمس » لما نقص في الحالتين وصف من ذينك الوصفين . ولعمري كيف يكون النعش في السناء والسنى ثم يكون السناء والسنى في النعش ؟ ؟ وما هذا الرثاء الذي لايتم الا بالقاء الشمس والقمر من عليائهما ميتين ؟ وليته رثاء يتم بهذه النكبات التي تزلزل الافلاك . فما علمنا من فرق بين شعرائنا الذين يصفون العظيم في كل حالة بأنه كالشمس والقمر وبين الطفل الذي يمدح كل ما يعرفه بأنه كالسكر . فالمدرسة سكر والكتاب سكر وأبوه سكر وبيته سكر . وكذلك شعراؤنا هؤلاء: مرثيهم شمس وقمر وممدوحهم شمس وقمر ومعشوقهم شمس وقمر وأولادهم شمس وقمر ولااختلاف بين امرىء وامرىء ولابين حالة وحالة في جميع هذه الاوصاف .

ويقول عافاه الله :

وأنا الذي أرثي الشموس اذا هوت
فتعود سيرتها من الدوران

أي والله ظاهر . لكن الشموس والاقمار والنجوم التي تباع الحزمة منها بخمس مليمات وفي هذه نظر .

ويقول :

يا صب مصر و يا شهيد غرامها
هذا ثرى مصر فنم بأمان

ونقول انما يرثي بهذا البيت غريب جاهد في سبيل مصر وهو بعيد عنها فاذا قضى نحبه ولم يرها كان من العزاء أن نتعلل بأنه سينام

في ثراها . ومن السخف أن يقال لرجل مات في وطنه: أحببت بلدك فنم في ثراه اذا كان لايدور بخلد أحد انه سيدفن في غيره .

ومن مبالغاته التي تلحق بما تقدم من هذا القبيل :

فلو ان بالهرمين من عزماته
بعض المضاء تحرك الهرمان

ولعله أراد المقابلة بين الشباب في البيت المتقدم والهرمين في هذا البيت ونحن ننعي على هذه المبالغة دائماً انها لاتدل على شيء فهب انه قال :

فلو ان بالقطبين من عزماته
بعض المضاء تحرك القطبان

أو قال :

فلو أن بالشطين من عزماته
بعض المضاء تحرك الشطان

إلى آخر المثنيات التي تسكن ولاتتحرك . ثم هب انه قال البيت في رثاء مصطفى أو في رثاء باستور أو في رثاء ابن زريق أو مشهور كائناً من كان فماذا يختلف من المعنى ؟ ؟ ومتى كانت الاوصاف لاتتغير بتغير موصوفاتها فلماذا يتجشم تعب كتابتها ونظمها ؟

ويقول :

مصر الأسيفة ريفها وصعيدها
قبر أبر على عظامك حان

مصر أيها القارىء – ولاتخطىء فتحسبها القاهرة المعزية فانها مصر بريفها وصعيدها – مصر كلها ما هي الا قبر واحد . فلله در شاعرها يرثي رجلاً أحيا نهضة في بلاده فيجعلها قبراً ،ولأي ضرورة وليدل على ماذا ؟ ؟ لاشيء .

وقد اجتزأنا بهذه الأبيات ، لا لأنها كل ما في القصيدة من شواهد الاحالة واعوجاج الطبع بل لأنها ذات طعم وان كان رديئاً ممجوجاً وما سواها تافه لاطعم له ولامذاق فيه . والحقيقة أن القصيدة بجملتها بنت الاحالة والسقط فاذا سلم منها بيت من النقد فانما أكثر سلامته من الخلو لا من الاتقان .

(٣) التقليد

أما التقليد فأظهره تكرار المألوف من القوالب اللفظية والمعاني وأيسره على المقلد الاقتباس المقيد والسرقة وأعز أبيات هذه المرثاة على المعجبين بها مسروقة مطروقة فهذا البيت :

فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها
فالذكر للإنسان عمر ثان

مقتضب من بيت المتنبي :

ذكر الفتى عمره الثاني وحاجته
ما قاته وفضول العيش اشغال

وهذا البيت :

والخلق حولك خاشعون كعهدهم
اذ ينصتون لخطبة وبيان

شوه فيه معنى أبي الحسن الانباري فوق تشويهه وذاك حين يقول في رثاء الوزير أبي طاهر الذي صلبه عضد الدولة :

كأنـك قائـم فيهـم خطيبـاً
وكـلهـم قيـام للـصـلاة

ونقول شوهه لأن الخطيب لايخطب الناس وهم سائرون به وانما يفعل ذلك اللاعبون في المعارض المتنقلة . وقوله :

أو كان يحمـل في الجوانـح ميـت
حملـوك في الأسمـاع والأجفـان

مأخوذ من بيت ابن النبيه في قصيدته التي لم تبق صحيفة لم تستشهد بمطلعها :

الناس للموت كخيـل الطـراد
فالسابـق السابـق منهـا الجواد

والبيت هو :

دفنت في التـراب ولو أنصفـوا
مـا كنـت الا في صميـم الفـؤاد

على ان المعنى مرذول بلغ من ابتذاله وسخفه ان تنظمه « عوالم » الافراح في اغانيها وحسب الشاعران لايكون ابلغ ولا ارفع من القائلات « أحطك في عيني يا سيدي والكحل عليك » وانه ليقول كما قلن :

ولـو ان لي علـم ما في غـد
خبأتـك في مقلتـي مـن حـذر

وقوله :

أو كان للذكر الحكيـم بقيـة
لم تـأت بعـد رثيـت في القرآن

منظور فيه إلى بيت المعري :

ولو تقدم في عصر مضى نزلـت
في وصفه معجزات الآي والسـور

وهذا البيت :

او صيغ من غرر الفضائـل والعـلا
كفـن لبسـت احاسـن الاكفـان

من قول مسلم بن الوليد :

وليـس نسيـم المسـك ريا حنوطـه
ولكنـه ذاك الثنـاء المخلـف

فما أضاف شوقي إلى هذه المعاني سوى أنه جعل الاكفان تصاغ وانه تحذلق فقال :

فلو ان اوطانـاً تصور هيكـلا
دفنـوك بيـن جوانـح الأوطـان

يريد جسداً . كأنه يحسب ان الاوطان ان لم تصور جسداً لم يدفن الفقيد النابه فيها ؟ !

وربما سرق شوقي ما لايستحق أن يسرق فهذه شطرته :

لما نعيت إلى الحجاز مشى الأسى

أليست هي شطرة الشريف في احدى همزياته .

لما نعاك الناعيان مشى الجوى

وكذلك هذه الشطرة « ان المنية غاية الانسان » هي من قول الشريف ايضاً « ان المنية غاية الابعاد » وكأن القافية صدته عن انتهاب الشطرة كلها فعاد اليها في رثاء فريد اذ قال :

من دنى أو نأى فـــان المنايـــا
غايـــة القرب أو قصارى البعـــاد

فأتم الغنيمة في قصيدتين . وسنعود إلى بيان سرقاته في فصل على حدة .

(٤) الولع بالاعراض دون الجواهر

ويشبه الاحالة من عيوب المقلدين ولعهم بالاعراض دون الجواهر وهو العيب الرابع الذي اخترنا الكلام عليه من عيوب هذه القصيدة الدالة على انماط التقليد ومذاهبه . بيد ان الفرق بينهما كالفرق بين الخطأ واللعب والسخف والعبث ولكل منهما سبب يمت به إلى الآخر اذا تشابه في الصدور عن طبع أعوج وعقل فارغ . وقد يسهل التفطن إلى الاحالة ولكن التفطن إلى هذا الضرب من العبث عسير على من لا يدركه بالبداهة كما يعسر على الاطفال ادراك رزانة الرجال . انظر أيها القارىء إلى هذا البيت :

دقات قلـــب المـــرء قائلـــة لـــه
ان الحيـــاة دقائـــق وثـــوان

فانه بيت القصيد في رأي عشاق شوقي فعلى اي معنى تراه يشتمل ؟ معناه ان السنة او مائة السنة التي قد يعيشها الانسان مؤلفة من دقائق وثوان ، وهذا هو جوهر البيت ، فهل اذا قال قائل ان اليوم اربع وعشرون ساعة والساعة ستون دقيقة يكون في عرف قراء شوقي قد أتى بالحكمة الرائعة ؟ ؟ ولكنهم يقولون لك انه قرن بين دقات القلب ودقات الساعة وهذه هي البراعة التي تعجبنا وبها هدانا إلى واجب الضن بالحياة – وهنا يبدو للنظر قصر المسافة التي يذهبون اليها في اعجابهم وان بلاغتهم المزورة لاتتعلق بالحقائق الجوهرية والمعاني النفسية بل بمشابهات الحس العارضة . والا فلو قورن بين الساعة والقلب ايام كان يقاس الوقت بالساعات المائية او الرملية فهل يفهم لهذه المقارنة معنى وهل لدقات القلب الخالدة علاقة حقيقية بدقات الدقائق والثواني يستنبط منها الانسان سر الحياة ؟ ؟ ابهذه العوارض يقدر الأحياء نفاسة حياتهم وهل يتوقف المعنى الذي ينظم في الحياة الانسانية على علاقة سطحية باختراع طارىء ؟ ؟ ولقد قلنا في نقدنا لرثاء فريد « ان الحقائق الخالدة لاتتعلق بلفظ أو لغة لأنها حقائق الانسانية بأسرها قديمها وحديثها عربيها وأعجميها » ونعيد هذه الكلمة هنا ونزيد عليها أن الحقائق الخالدة لاتتعلق بفترة محدودة ولاتقوم على مشابهة زائلة فليذكر ذلك قراء الجيل الغابر وليتدبروه . ويقيننا أن أحدهم لو سمع ناصحاً يعظه في موقف جد – وأي موقف جد أجد من رثاء النابغين ؟ ؟ – فيناديه يا أخي صن وقتك لان قلبك ينبض كما تنبض الساعة لأغرب في الضحك ولخطر له أن صاحبه يخامره الشك في عقله ولكنه حين يسمع هذا الكلام شعراً يطرب له

ويكبر قائله . وما ذاك الا لحسبانه ان الهزل جائز في الشعر فكاهة وحكمة ولو علم أن الشعر جد كجد الحياة لما تمثل بما حقد أن يضحك منه ويلهو به .

وكهذا البيت أخواه هذان :

لفوك في علـــم البـــلاد منكســـاً
جـــزع الهـــلال عـــلى فتـــى الفتيـــان

ما احمـــر مـــن خجـــل ولا من ريبـــة
لكنمـــا يبكـــى بدمـــع قـــان

وللعلم جوهر وعرض فأما الجوهر فهو ما يرمز اليه من مجد الأمة وحوزتها وما يناط بمعناه من معالم قومية وفرائض وطنية . وأما العرض فهو نسيجه ولونه خاصة وليس لهما قيمة فيما ترفع الأعلام لأجله . فشوقي يولع بهذا العرض اذا هو نظم في العلم ولا يعنيه ذلك الجوهر . ولاريب انه ما كان يذكر لف نعش المرثي بالراية المصرية لو لم تكن حمرا كي يكون لونها دمعاً ودمعها دماً منزوفاً . وليست هذه هفوة أو فلتة بدرت منه هنا بل هي دأبه كلما وصف علماً ، فقد قال في وصف الهلال الأحمر :

كأنه ما احمـــر منـــه حـــول غرتـــه
دم البـــراءة زكـــي شيـــب عثمانـــا

كأن ما ابيـــض في أثنـــاء حمـــرتـــه
نـــور الشهيـــد الـــذي قد مات ظمآنـــا

كأنــه شفــق تسمــو العيــون لــه
قد قلد الأفــق ياقوتــاً ومرجانــاً

كأنــه مــن دم العشــاق مختضب
يثيــر حيــث بــدا وجــداً وأشجانــا

كــأنه مــن جمــال رائــع وهــدى
خدود يوســف لمــا عــف ولهانــا

كأنــه وردة حمــراء زاهيــة
في الخلد قد فتحت في كــف رضوانــا

فهو يمثل راية الأمة وعنوانها بالوردة وبالوجنة وبالياقوت والمرجان في لون الشفق . حتّى الدم اذا ذكره يكون خضاباً لشيبة أو دم عشاق . فيا للطاقة الشعرية ؟ ؟ وليته سلم بعد ذلك من عيوب اللفظ فلم يخلق ليوسف خدوداً من حيث خلق الله له خدين ولم يجعل للراية غرة ولاغرة لها بل ليته طابق الواقع المحسوس اذ هو قد وصف هلالا أبيض في أثناء حمرة والهلال الاحمر على عكس ذلك كما يدل اسمه عليه لو أنه تنبه اليه — ومع هذا فاني لاقسم أن صاحبنا رص هذه (الكأنات) في أبياته الستة ويخيل اليه أنه لو تقدم به الزمن عهد عمر بن الخطاب لقال أشعركم من يقول كأن لامن يقول من ومن . .

ومن الغباء العجيب أن يصف هذا الرجل راية حمراء ملفوفة على نعش بطل من أبطال الوطنية فيسرع بنفي الخجل والريبة عن احمرارها كأنها ملفوفة على نعش راقصة يخشى أن يظن بها الناس

الظنون وهي بريئة عفة ؟؟ اذ ما الذي يخطر على باله الحجل والريبة في هذا المقام وهو يرثي الرجل الذي يخاطبه قائلا :

ان كـــان الاخـــلاق ركـــن قائـــم
في هـــذه الدنيـــا فأنـــت البانـــي

ولكنها الغباوة لاتعلم اذا بدأت أين تنتهي بصاحبها ؟ ؟ وليت شعر شوقي اذا كانت كالراية الفرنسية فماذا تراه كان يقول ؟ ؟ أكان لايرى للف النعش بها أي معنى لأنها لاتبكي بدمع أحمر ؟ ؟

تلك آية شوقي ومعجزته : آية السيمياء . معجزة الشعوذة . كومة الرمل كما قلنا في أول المقال . ولقد أتم فيها امتساخ الطبائع بمخالفة الواقع فجاءت معرضاً مختاراً من الأغلاط ، وسملا مرقعاً من النشوز والاختباط . وما كان بسعه أن يخرج نفسه خلقاً آخر فيأتي بالمستوى من الشعر وهو غير مستو ، ويستقيم في أغراضه ومعانيه وهو ملتو ، ولكن كان يسعه أن يعلم أن السكة الحجازية لم تصل إلى مكة فلا يقول:

لما نعيت إلى الحجـــاز مشـــى الأســـى
في الزائريـــن وروع الحرمـــان

السكـــة الكبرى حيـــال رباهمـــا
منكوســـة الأعـــلام والقضبـــان

والحرمان في الحجاز هما الحرم المدني والحرم المكي وكل قارىء للصحف ولاسيما لدى وفاة مصطفى كامل يعلم ان ليس حيال ربى مكة سكة كبرى ولا صغرى ، وكذلك هي حتى الساعة .

وكان في مقدوره أن يعلم أن الحسين لم يشيع في موكب حاشد كما شيع مصطفى فلا يقول في وصف نعشه :

وكأنه نعـــش الحسين بكربـــلا
يختـــال بيـــن بكـــي وبين حنـــان

وقد رأيناه يغير على قصائد الشريف افتراه لم يفقه رائيته التي يقول منها في مصرع الحسين .

وخـــر للمـــوت لاكف تقلبـــه
الا برطيء مـــن الجرد المحاضيـــر

كأن بيـــض المواضي وهي تنهبـــه
نـــار تحكـــم في جســـم من النـــور

تهابه الوحش ان تدنـــو لمصرعـــه
وقـــد أقـــام ثلاثـــاً غيـــر مقبـــور

وقصة مصرع الحسين مشهورة سيارة ومن العامة من يستظهر خبره ويعلم كيف انه قاتل حتى أثخن بالجراح وانه — لاحيا الله قاتليه — مات وبه ثلاث وثلاثون طعنة وأكثر من أربعين ضربة ثم ديس بالخيل ورض جسده واحتز رأسه وطوفه ابن زياد الكوفة . ثم أرسله إلى يزيد في خبر فاجع لاحاجة إلى تفصيله . وأنى لمن يموت هذه الميتة ان تحتشد له الجنائز ويطاف بنعشه في المراكب ؟ ؟ ولانقول يختال بين البكاء والحنان فما من أحد ينسب الاختيال إلى النعوش الا من كان نعشاً مختالا كهذا الذي لايميز بين تشييع قتيل إلى قبره وزف عروس إلى خدرها . فإن زعم أنه يقصد موكب عاشوراء الذي يحتفل

به الشيعة كل سنة تذكاراً لوفاة الحسين فالخطأ أعظم وأقبح لأننا نرى كل عام صورة من هذا الموكب فما رأيناهم يحملون نعشاً وانما يقتادون جواداً مسرجاً ملجماً لأنهم أزكن من شوقي وأدرى بما ينبغي أن يذكر به يوم الحسين اذ كانوا يحتفلون بمصرعه في ميدان حرب لابمدفنه في الثرى .

كان يسعه أن لايقول ذلك كما كان يسعه أن يسكت ولكنه ألهم أن يستقصي عاهات الشعر ما يتداركه منها ، اذا شاء ، وما لايتداركه . وأن يجتهد في ذلك كأنه يكافأ على مجهوده وهو في الحقيقة يكافأ المكافأة التي يستحقها فانه بهذه العاهات ينفق شعره بين الجهلة والسذج ومن لايهمه من قراءة الشعر واستحسان ما يشيع عنه الاستحسان الا ان يدفع عنه تهمة الجهل والسذاجة أو يقال عنه انه يشتغل بكيت وكيت من الغرائب والفنون .

* * *

ولاندع هذه القصيدة التي ملأها شوقي بما يسميه حكمة وبما يتسامى به إلى مضاهاة المتنبي ومضارعة المعري قبل ان نكشف عن غشاوة يخدع من قبلها كثير من قراء الشعر الذين يؤمل صلاحهم واقتناعهم وان نروز تلك البديهيات واشباه البديهيات التي يتصنع شوقي بها الحكمة والرشد لعله يريحنا من هينقياته ويريح نفسه من عبء لاطاقة له به .

فالحكمة في الكلام ضربان : الحكمة الصادقة وهي من أصعب الشعر مراماً وأبعده مرتقى لايسلس قيادها لغير طائفة من الناس توحي

اليهم الحقائق من أعماق الطبيعة فتجري بها ألسنتهم آيات تنفخ ببلاغة النبوة وصدق التنزيل ويلقى أحدهم بالكلمة العابرة من عفو خاطره ومعين وجدانه فكأنما هي فصل الخطاب ومفرق الشبهات تستوعب في أحرف معدودات مالا تزيده الاسفار الضافية الاشرحا وامتداد وتسمعها فتشع في ذهنك ضياءها وتريك كيف يتقابل العمق والبساطة ويأتلف القدم والجدة : قدم الحقيقة كما ثبت ما تجلوها الحياة المتقلبة وجدة النظر الثاقب والنفس الحية التي تطبع كل امرىء بطابعها .

فهي تارة تلم لك شعث الحقيقة فتحسبها مجموعة كذلك منذ الازل لم تتفرق قط ولايكون لها أن تتفرق . كبيتي المتنبي اللذين يعدد فيهما من تصفو لهم الحياة . وهما :

تصفـــو الحيـــاة لجاهـــل أو غافـــل
عمـــا مضى منهـــا وما يتوقـــع

ولمـــن يغالـــط في الحقائـــق نفســـه
ويسومهـــا طلـــب المحـــال فتطمـــع

فالجاهل من لايعي والغافل من يعي لو شاء ولكنه لاينتبه والمغالط نفسه واع منتبه يحجب بيديه ما تبصره عيناه . وهؤلاء هم الذين يغنمون من الحياة صفوها على قدر حظهم الذي قسمه من الشعور بها ومهما يجهد الجاهد فلن يجد انساناً غير هؤلاء تصفو له الحياة على حال ولن يحذف من عبارة البيتين كلمة الا نقص بقدره من المعنى .

وتارة يلمع إلى الحقيقة المألوفة فيحسن تصويرها حتى لكأن

قارئها قد كان يجهلها أو قد نسيها فعاد يذكرها . كقول طرفة بن العبد :

لعمرك ان المـــوت ما أخطـــأ الفتـــى
لكالطول (١) المرخى وثنياه باليـــد

وهذا أجمل ما يقال في بحبوحة العمر المرتهنة بالأجل

وطورا تصل طرفي الفكرة فتعرضها عليك من جانبيها كما قال البحتري :

متى أرت الدنيـــا نباهـــة خامـــل
فـــلا ترتقـــب الاخمـــول نبيـــه

وطوراً تصدع برأي يشطر الخلاف شطرين كالسيف الجزار تضرب به العقدة المؤربة فيقسمها على عجل كقول المتنبي المأثور

الظلـــم مـــن شيـــم النفـــوس فـــان تجد
ذا عفـــة فلعلـــة لا يظلـــم

أو كقول أبي فراس :

ما كـــل ما فوق البسيطـــة كافيـــاً
فاذا قنعت فكـــل شـــيء كافـــي

ومن هذه الحكمة ما ينتزع به الشاعر مشاهدة من مشاهدات

---

(١) الطول حبل يطول للدابة لترعى فيه والثني الطرف .

الطبيعة فتصبح كأنها القانون الجامع أو يقصد بها حالة واحدة فتطابق لصدق نظره كل حالة من نوعها ومنها بيت العباس بن مرداس :

بغاث الطيـــر أكثرهـــا فراخـــاً
وأم الصقـــر مقـــلات نزور

فليس الشأن كذلك في كرائم الطير فحسب بل هو مما يطرد كثيراً في كل نسل ونتاج .

ويقرب الشاعر الحكيم المعنى العويص والفكر البعيدة فيوضحها وضوح المألوفات كما صنع الافوه الاودى بهذا البيت الفذ :

لايصلـــح الناس فوضى لاسراة لهـــم
ولا سراة اذا جهالهـــم سادوا

فقد حفيت الاقلام بحثاً وتنقيباً في علوم الاجتماع وكلت القرائح تدبرا والماماً في شؤن الامم وراقبت الدول على سنن شتى من الانظمة والدساتير فما خرجت كلها بزبدة أوجز ولاأصدق ولاأتم من هذه الحكمة التي اهتدى اليها هذا البدوي الناشيء في عصور الجهالة وانك لاتزن أمة بميزان هذا البيت الا كنت على ثقة من السداد والاصابة .

هذه هي الحكمة الصادقة وهي كما ترى غير قاصرة على ايراد الحقيقة المسلم بها وانما هي الحقيقة كما تبصرها الفطرة الخصيبة والفطنة النافذة واللسان البليغ وبغير ذلك لاتكون الحكمة الا ملكاً مشاعاً للدهماء كحصباء الطريق يحرزها من يلتقطها .

والضرب الآخر حكمة مبتذلة أو مغشوشة معتملة . أشرفها

ما كان من قبيل تحصيل الحاصل ، وكلها لافضل فيها لقائل على قائل ولالسابق على ناقل ، اذا قارنا بينها وبين الحكمة من ذلك الطراز كانت كمن يحفر الآبار للناس على شاطىء النهر الغزير ، وكانت تلك كمن ينبط الماء من ينابيعه الصلدة لمن لوحهم الصدى والهجير ، وأحمق ممن يحفر البئر على شاطىء النهر من يروح ويغدو ينظم من اشباه البديهيات تلك النصائح الماشية التي حفلت بها كتب التمرينات الابتدائية « كالعلم نافع والصدق منج والبركة في البكور واحترم الاستاذ تتقدم وفي العجلة الندامة وفي التأني السلامة » وما إلى هذه النصائح والامثال والحكم — ينظمها ليشتهر بالحكمة وليصيح من فوقها :

لي دولة الشعر دون العصر واثلة
مفاخري حكمي فيهــا وأمثالي ؟ ؟

فهل يدري القارىء من صاحب الحكم والامثال الفخور ؟ ؟ انه هو شوقي ، ثم هل يدري ما حكمه وأمثاله التي استتبت له بها دولة الشعر ؟ ؟ هذه هي :

عليكــم لواء العلــم فالفوز تحتــه
وليــس اذا الاعلام خافــت بخذال

والعلم في فضلــه أو في مفاخــره
ركــن الممالك صدر الدولــة الحالي

يقــل للعلــم عنــد العارفيــن بــه
مــا تقدر النفس مــن حــب واجلال

بالعلم (تمتلك) الدنيـــا ونضرتهــــا
ولا نصيـــب مـــن الدنيـــا لجهـــال

فليقارن القارىء بين هذه المفاخر وبين مفاخر التمرين الأول نحو « العلم نور . من عاشر العلماء وقر . تعلم العلم احفظ الدرس . « حلي النساء الذهب وحلي الرجال الأدب » وليسأل نفسه ماذا زاد عليها ملك الشعر المتفرد بدولته وأي ميسم يبدو عليها من مياسم نفسه وماذا فيها من وحي الشاعرية والهام البصيرة ونهية العبقرية واصالتها ؟ ؟ أليس كل ما يميز بينهما الوزن والقافية ؟

ومن أركان ملكه أعزه الله هذه الجمل المركبة من ست كلمات فأكثر — فليتلق الوحي أناس حجبوا عن صفاء الشاعرية وليستفيدوا :

المحســـنـــون هــــم اللـــبـــا
ب وسائـــر الـــنـــاس النفايـــة

ان القـــضاء اذا رمـــى
دك القـــواعـــد مـــن ثبيـــر

والمـــال لاتجنـــي ثمـــار رؤوســـه
حتى يصيـــب من الرؤس مدبـــرا

الجـــد غايـــة كـــل لاه لاعـــب
عنـــد المنيـــة يجـــزع المفـــراح

سر في الهواء ولذ بناصية السهى
المـوت لايخفـى عليـه سبيـل

فلـم أر غيـر حكـم اللـه حكمـاً
ولم أر دون بـاب اللـه بابـا
وان البر أبقـى في حيـاة
وأبقـى بعـد صاحبـه ثوابـاً
ومـن يعـدل بحـب اللـه شيئـاً
كحـب المـال ضل هـوى وخابـا

وما الرزق مجتنـب حرفـة
اذ الحـظ لم يهجـر المحترف

ما الدين الا تراث النـاس قبلكـم
كل امرىء لأبيـه تابـع تـال

ومن العقـول جداول وجـلامـد
ومن النفـوس حرائـر وامـاء

أرم النصيحـة غير هائـب وقعهـا
ليـس الشجـاع الرأي مثـل جبانـه

ولعمري لقد كانوا يقصون علينا ونحن أطفال حكاية تاجر الزجاج مع الحمال وهي الحكاية التي يضرب فيها المثل بالحكم الفاترة فكان يضحكنا أن نسمع التاجر الحصيف يرمي بحكمه الثلاث للحمال واحدة في أثر واحدة فيفهمه متئداً أنه : « ان آل لك حد الراكب متل الماشي أول له بتفشر . وان آل لك حد الغنى متل الفقير أول له بتفشر » فكنا لانظن هذه الحكم تساوي أجرة « شيلة » حتى رأى ان يسمعنا نظماً «ان آل لك حد الشجاع متل الجبان أول له بتفشر» فآمنا بخرق ذلك الحمال الذى لم يقدر ما قبضه من الأجرة الغالية ؟ !

وهل علم أحد أن المسافر اذا آب فقد آب قبل أن يقول شوقي :

وكل مسافـــر سيـــؤب يـــوماً
اذا رزق السلامـــة والايابـــا

أم علموا الحق حتى أخبرهم به مستغرباً جهلهم سائلا اياهم :

أليس الحـــق أن العيـــش فـــان
وان الحـــي غايتـــه الممـــات

أليس كذلك أم ماذا بالله ؟

أم حكم أحد الاحلام الا حين علموا منه أن :

الحق أبلج كالصبـــاح لناظـــر
لـــو أن قومـــاً حكمـــوا الأحلامـــا

* * *

ومن أمثلة حكمته المغشوشة المعتملة قوله :

لئـن تمشـى البـلى تحـت التراب بـه
لا يـؤكـل الليـث الا وهـو اشـلاء

والبيت من قصيدة في شكسبير . ومعناه ان جثة شكسبير استعصت تحت التراب على البلى فلم يقدم عليها حتى مزقها — أي انه لم يمزقها حتى مزقها ولم يبلها حتى ابلاها ولم يتلفها حتى أتلفها ولم تتفتت هي حتى تفتتت . مهابة واجلالا ؟ ؟ . . . وانه لما أكلها أكلها ولكن بعد تقسيمها كما ان الأسد لايؤكل الا عضواً عضواً . . .

تصفيق متواصل لشاعر المشرقين والمغربين والأرض والسماء المحسن إلى واحد من رعاياه بالتقدير والرثاء ، المنعم عليهم بالذكر والايماء . تصفيق متواصل . . . لابل ضحك تتجاوب به الأصداء ، على القريحة الصماء ، والفطرة البليدة الخرساء : فطرة ملك الشعر وأمير الشعراء .

فيا هذا . أن جثة شكسبير ليست بموضع العظمة منه لأنها في الحياة جسد تفوقه في الحسن والقوة أجساد كثيرة . وهي في الموت رفات يبلى كما تبلى بقايا الاحياء من أكملها إلى أدناها . ولو جاز أن يعظم أحد بأن يقال ان الموت يتهيب جسده لكان ذلك أليق بابطال الحروب اذ كانت أبدانهم موضع صلابة يتغلبون بها على أقرانهم . ولكنا مع هذا نرى المتنبي يقول في أبي شجاع :

مـن لا تشابهـه الأحيـاء في شيـم
أمسـى تشابهـه الأمـوات في الرمـم

وهو من نعلم محضأ الحروب واين الكريهة وحلس الخيل كانوا

يلقبونه المجنون لاقدامه وتهجمه . فما بال من كان اللب والحجى فخره الوحيد يمدح بأنه ذو جسد لايبلى بعد موته ؟ ؟ وعلى انه لامعنى لأن يقال ان البلى تهيب أن يتمشى فيه الا بعد تقسيمه لان تمشية فيه هو التقسيم . ثم لامعنى لأن يميز الليث بأنه لايؤكل الا هو واشلاء لأن الشأن كذلك في كل مأكول فالفأر أيضاً لايؤكل الا وهو اشلاء والدجاجة لاتؤكل الا وهي اشلاء بل حتى الأرز لايؤكل الا وهو اشلاء ممضوغة وما من شيء يزدرد لقمة واحدة فيما نظن ويظن جمع الآكلين .

وصاحبنا يرثي شاعراً فيخلط هذا الخلط فعافاه الله أي نوع من أنواع العظمة يفقهه ان كان لايفقه العظمة التي يلتمسها منذ ثلث قرن من الزمان ؟ ؟ وأين من تقدير شكسبير من يرثيه رثاء اذا صح فيه فانه يصح في كل حيوان ؟ ؟

على أن لشوقي دون هذا الحضيض حضيضاً ينزل بالحكمة اليه فيلحقها بوظيفة كتاب الاعلانات ويكلف الشعر أن يقول :

احذر التخمة ان كنت فهم
ان عزرائيل في حلق نهم

واتق البرد فكم خلق قتل
من توقاه اتقى نصف العلل

اتخذ سكناك في طلق الجواء
بين شمس ونبات وهواء

خيمة في البيد خير من قصور
تبخل الشمس عليها بالمرور

ونقول : ان كانت هذه حكمة وشعرا فلم لا يكون كاتب « احترس من النشالين » و « ان أردت النزول اطلب من الكمساري توقيف القطر » نابغة يستملي الحكمة ويستمد وحي الشعر ويرتجل البلاغــة ؟ ؟

* * *

وتكميلا للبيان المتقدم نورد هنا أبياتاً يجوز أن يكون معناها مطروقاً شائعاً ويجوز أن يكون من جوامع الكلم ليتبين كيف يتناولها الشاعر المطبوع فينتفث فيها حياته وكيف تعن للنظام المقلد فتبقى كما هي . ونختارها من معان ورد مثلها في شعر المتنبي الذي يقتفي شوقي أثره ويطمع أن يجاريه . وهذا بعضها :

لو المشقــة ســاد الناس كلهــم
الجــود يفقــر والاقــدام قتــال

ألف هــذا الهــواء أوقــع في الأنـ
فــس ان الحمــام مــر المــذاق

مــن أطــاق التمــاس شيء غلابــا
واغتصابا لم يلمســه سؤالا

مــن يهــن يسهل الهــوان عليــه
مــا لجرح بميــت ايــلام

لايعجبن مضيماً حسن بزته
وهل تروق دفيناً جودة الكفن

فهذه أبيات من رائع الحكمة تحمل في طواياها حجة الطبع للدامغة وآية الفطنة البالغة ، وهي قد كان يمكن أن تقع لشوقي من ذخيرة الأحاديث المشاعة فتسمعها منه كعادته في نقل هذه الأحاديث منظومة فاذا هي مثلا : (الجود مفقرة والاقدام مقتلة . الحمام مر المذاق . القوى مغتصب . من هان سهل عليه الهوان يزين الذليل حسن النيرة) وهكذا عهدنا الأمثال العامة فاذا شئت أن تزن الحكمتين بميزان الصحة فكلاهما صحيح ولكن ليست الصحة الواقعية هي ما نطلب من النفس الملهمة والطبيعة المشرقة والسريرة العميقة وانما المصدر الذي تبجست منه والشخصية التي طبعتها بصورتها والقلب الذي خرجت من لدنه والحجة التي صيرتها مقنعة شافية هي بغيتنا من نجوى الالهام وهي التي يرتوى منها غليل السامع حين يسمع من بيت المتنبي « لولا المشقة ساد الناس كلهم » ثم يتمم المعنى لان هذه الشطرة التي لاتزيد البيت صحة تزيده حياة وتنبئاً وحدها بان في البيت حقيقة أقرب إلينا وحجة ألصق بنا وثمرة أجدى علينا من الحقائق الرياضية المجردة التي تمتحن بموازين الجمع والضرب ، وتأمل تعبيره عن الحياة بأنها « ألف هذا الهواء » فهل ترى أصدق من هذا التعبير ؟ ؟ أليس المتنبي قد لمس به سر كل تركيب في هذه الموجودات التي ليس كيانها الا عادة تألفها زمناً ثم تتبدلها ؟ ؟ ومثل ذلك يقال في بقية الأبيات .

وصفوة القول ان الحكمة المبتذلة أيسر ما يتعطاه النظامون لأنها صوغ متاع مشاع على حين أنهم لايمسون الحكمة العالية مساساً ولن

يقاربوها ولا اختلاساً . لأنهم لايملكون جوهرها ولا يقدرونه لو وقع لهم ولن يحسنوا مضاهاته وان اغتروا ببساطته وسهولته . وربما خدع بعض الناس في بعض أقوالهم فخالوها من قبيل الحكمة العالية لما يبهرهم من رنين صياغتها وبريق طلائها فليعلم هؤلاء المحسنون الظن بحكمة النظامين ان أرقي ما يرتقون اليه ان يأتوا بكلمة مقبولة في شؤون المعيشة وفرق بعيد وبون شاسع بين المعرفة المعيشية والمعرفة الحيوية فأما الأولى فبنت المران والمكابدة تقرأ آلافاً من امثالها في كتب اللياقة ونصائح « اياك وحذار وعليك » وأما الثانية فقيض مزايا الحياة النادرة وثمرة التفوق في شمائلها المقدسة وضمائرها السرمدية . كتابها صفحات الأكوان وسريرة الانسان ومن ينابيعها تتفجر العقائد والاديان وتنبثق روح الرشد والبيان . الاولى لون من ألوان البيئة المكتسبة والثانية قبس من نور الحياة الدائمة ، وشتان هذان شتان .

وربما اتفقت الحكمة المطبوعة لمن لاشك في غلبة الصناعة عليه كالحريري على ما أذكر حين يقول :

كل من الوجود يطلب صيدا
غير ان الشباك مختلفات

ولكنها فلتات لايقاس عليها .

ولقد ذاع لشوقي بيت شوقي فظن انه سقط على كنز وطار به كأنه لايصدق انه له أو كأنه يخشى أن ينازعه لفرحته به وهو :

وانما الامم الاخلاق ما بقيت
فان هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وكرر فقال :

وانما الأمم الأخلاق ما بقيت
فان تولت مضوا في أثرها قدماً

ثم كرره أيضاً في قوله :

وليس بعامر بنيان قوم
اذا أخلاقهم كانت خرابا

ثم كرره اذ يقول :

ملك على الاخلاق كان بناؤه
من تحت أولكم ومن صوانه

وكرره في نشيده وفي قصائد أخرى وكل هذا الفرح بمعنى يعدّ من تحصيل الحاصل ان كان له مدلول ، فليس يقول لك ما يستحق أن تصغي اليه من يخبرك بان الاخلاق الصالحة ملاك صلاح الاجتماع و قوام الامم ومن كان يقرر معنى يعكس فيكون عكسه ظاهر البطلان ويطرد فلا يزيد على ما هو متعارف فانما يقرر البديهيات ويدخل فيما نسميه بالحقائق الرياضية أو حقائق التمرينات الاولية .

ورحم الله القناعة ، لقد كان ابن سودون المجنون يضحك الناس في بائيته بمثل هذه الحكم :

عجب عجب عجب عجب
بقر تمشي ولها ذنب

لاتغضب يوما ان شتمت
والناس اذا شتموا اغضبوا

إلى أن يقول :

النـاقـة لا منقـار لهـا
والوزة ليـس لهـا قتـب

وكثير في قصيدته من حكمة كهذه كان أقصى مناه أن يقال فيها انها سخيفة ظريفة . وها هنا شاعر خلا كلامه من هذا الظرف ولكنه يطمع بالسخف البحت أن يستأثر بدولة الحكم والامثال .

وقلنا ان كان للبيت مدلول ، لان البيت في الحقيقة لامدلول له . فلو انك حذفت كلمة الاخلاق وجعلت مكانها أصفاراً لما نقص من معناه شيء . لان هذه الكلمة لاتؤدي معنى محدوداً في الذهن فقد تكون بمعنى الآداب كالصدق والسخاء وحسن المعاشرة والوداعة والحلم وقد يفهم منها نقيض ذلك من الطباع كالعناد والمراءاة والدهاء والبطش وهو ما يفهم أحياناً من كلام الافرنج حين يصفون رجلا بأنه من ذوي الطبائع والحيوية المتينة فأي المعنيين يقصد شوقي ؟ ؟ ان من الامم ذوات الحيوية الغلابة من لاتعرف للصدق معنى وقد تعد الكذب والسرقة فضلا وهي مع ذلك من تأصل مادة الحياة فيها واحتوائها على بواعث القوة والسيادة بحيث لايخشى عليها الانقراض العاجل أو البوار . والتاريخ غاص بسير هذه الامم . وان منها لما تحمد سجاياه ثم لاتلفيه من القوة على نصيب وافر فليقل لنا شوقي ما ما غناء بيته ان كان لايبين لنا ما اونها كما قال بنو اسرائيل

ولقد أضحكنا مرة أحد الثراثرة الذين يتلقفون من الكلام مالا يفقهون فقال لنا ان البيت الحكيم ما يوافق هوى من نفوس الناس وان

في ذيوع بيت شوقي لدليلا على قيمته . فقلت له يا صاح : أشيع من بيت حكيمك هذا بيت ابن الوردي :

لاتقـل أصلي وفصلـي أبـداً
انمـا أصل الفتـى ما قـد حصل

فان كان لهذا الشعر قيمة فهنيئاً لنا ؟ ؟ اننا أمة من ثلاثة عشر مليون حكيم بل هنيئاً للانسانية فان الشمس لاتطلع الا على الحكماء من أبنائها .

* * *

رثاء الأميرة فاطمة

أقسم بالكعبة ذات الاستار ، وبقبر النبي المختار . أقسم بفاطمة الزهراء ، ومجلسها الوضاء . أقسم بالمشهد الحسيني والضريح الزينبي ومقام السيد البدوي ومزار كل شريف من ولد فاطمة وعلى . أقسم بالعترة النبوية ومراقدها الزكية ، ما ان دفنوا بالأمس الانيرة . . .

بهذا القسم ، أو على الاصح ، بهذه الاقسام استهل شوقي رثاءه للأميرة المحسنة فاطمة بنت اسماعل . وهي منثور قوله :

حلفـت بالمستـرة والروضة المعطـرة
ومجلس الزهراء في الـ حظـائـر المنـورة
مراقد السلالـة الـط يبـة المطهـرة

ما أنزلوا إلى الثرى ... بالأمس الانيرة

ولولا أن الامر أظهر من أن تحتاج إلى قسم لأقسمت له بكل قبلة ومقام،وبكل نبي وامام ، انه لنسيج وحده في فكاهة الرثاء، ان كان للرثاء فكاهة ، ولم لعمر الله لايكون له فكاهة وقد أرانا شوقي في مراثيه أبدع فنا مبتدعاً منه وطفق يبكي من يبكيهم كافة بنمط يلتبس عليك فيه الجد بالمزح ، ويقترن العبث بالمدح – أفرأيت أحداً قط يقسم لك على صدقه في تعداد مناقب مرثيه كأنه يخشى التكذيب أو يتقي أن يحمل كلامه محمل الرياء والمجانة غير شوقي ؟ ؟ واذا أطرد هذا في جمع شعره فلم لانحسن الظن ونتلقاه منه على أنه مذهب جديد في بابه ونتخذ له اسماً في أصول البلاغة مصطلحاً عليه فكاهة الرثاء مثلا كما قلنا أو اسماً آخر مقبولا لديه ان لم ترقه هذه التسمية ، ثم نورد الشواهد عليه من مراثيه وانها لكثيرة طويلة بحمد الله الذي لايحمد على المكروه سواه ؟ ؟

وسنري الذين يمارون في اختراع شوقي لهذا الباب واطراده في قصائده جميعاً وفي أبيات القصيدة الواحدة ، نقول سنريهم أنها ليست بفلتة نظم أو هفوة خاطر ولكنها أصول يرعاها وأسوم يعيها ولاينساها . والا فلو كان حذره من التكذيب واتقاؤه تهمة المداجاة فلتة سبقت بها قريحته في مطالع القصيدة فماذا كان يدعوه إلى أن يقول بعده :

دع الجنود والبنو ... د والوفود المحضرة

وكل دمع كذب ... ولوعة مزورة

ألا ان الأمر بين لمن ينصفون . . . فالشاعر بدأ قصيدته بالقسم فأشعرنا الريب واتّهم نفسه في ثنائه ، ثم عاد فذكر الدمع الكذب واللوعة المزورة فأرانا حكمة ذلك القسم وانه لم يبدر منه جهلا بفنون الرثاء وانما تفننا واختراعاً لم يسبق اليه ونرجو ان لايباري فيه . . . فأما أن يسمى هذا الاختراع الجديد رثاء كما عهدنا الرثاء القديم فهذا غبن لشاعرنا وتسمية للاشياء بغير أسمائها . فلا بد اذن من أن ينتقى له اسم مبتكر طريف وعليه هو تحرير قواعده وضبط أصوله ورسم نماذجه .

* * *

عجيب والله أمر هذا الرجل ! ! ما رأينا خطأ أشبه بالتعمد ولا توقراً أقرب إلى المجانة من هذائه في رثائه . وما التبس الهزل بالاجلال قط التباسهما في تأبينه وبكائه . فما كان أغناه عن الحلف ومبرات الاميرة أشهر من أن يرتاب فيها أو يتنازع عليها ؟ ؟ وهبها لم تكن كذلك فهل جرت العادة أن تؤيد المآثر اذا لم يصدقها الناس بالايمان أو البراهين في قصائد الرثاء ؟ ؟ نتجاوز هذا ونسأله : ما باله يفترض ان الناس تبكي على الاميرة بدمع كذب ولوعة مزورة ؟ ؟ أضروري هذا ليقول بعده ان الدموع الكاذبة لاتغني عنها وأنه :

لاينفــع الميت ســوى　　　صالـحـة مـدخـرة

أيقول ذلك لان الدموع اذا كانت صادقة واللوعة خالصة نفعت الميت وأغنته عن الصالحة المدخرة ؟ ؟ فاذا كان التباكي كالبكاء

في هذا المعنى فلم هذا السخف الذي يغض من المبكية والباكين وليس له من جلوى ؟ ؟

* * *

ونحن ما كنا لنوسع لهذه القصيدة محلا من النقد لولا اننا نريد أن يلمس ضعف تمييز شوقي عن التفرقة بين حالات النفوس ضعفاً لاتنفرد به قصيدة دون قصيدة ، ولولا اننا سمعنا بيتين منها يرددان في معرض الاستحسان فأحببنا أن نمسح الرغو عن محضهما لمن عساه ان يكون على رأس المستحسنين لهما . فالبيت الاول وهو :

فـاطـم مـن يـولـد يمـت
المهـد جسـر المقبـرة

أعجبهم منه « جسر المقبرة » وهو معنى متوارد عليه . نذكر من السابقين اليه أبا العتاهية حيث يقول :

وعبـروا الدنيـا إلى غيـرهـا
فانمـا الدنيـا لهـم معبـر

وفصله المعري وقسمه فقال :

حيـاة كجسر بين موتين : أول
وثان ، وفقـد المرء أن يعبـر الجسر

وهو أوضح وأوجز في قول محمود الوراق :

اغتنـم غفلـة المنيـة واعلـم
انمـا الشيـب للمنيـة جسـر

فالذي صنعه شوقي هو أنه سرقه وشوهه كعادته لانه جعل المرء يخرج من المهد إلى المقبرة وما نظن الناس يموتون كلهم أطفالا ؟ ؟ والصحيح ان المهد أول مراحل الجسر والحياة بمراحلها المتتالية بقيته

والبيت الثاني أو هو بيت القصيد في رأيهم قوله :

يلفظهـا حنظلـة كانـت بفيـه سكرة

يعني الروح . وقد كان يخطر لنا أن يمتدح كل بيت في القصيدة خلا هذا البيت، وهذا من الغرائب في تضاد الاذواق وانتكاسها. فقد دل به شوقي على سقم تعبيره واراد أن يقول ان المرء يحب الحياة ويشعر بمرارة فراقها عند الموت فعكس المراد لانه كنى عن صعوبة ترك الحياة بلفظ الحنظلة ولفظها محبوب يرتاح الانسان اليه لما فيه من ازالة المرارة عن فمه ولو أنه قال :

يلفظهـا سكـرة كانـت بفيـه حنظلة

لكان هذا الصواب في تمثيل تأفف الانسان من الحياة حتى اذا أدركه الموت حلا مذاقها لديه وكره أن يلفظها كأنها « السكرة » ؟ ؟ ولكننا نخال صاحبنا كمن يمشي على يديه أو ينام على بطنه فيرى العالم معكوساً . . .

ومن ترهات شوقي التي يخرجها مخرج الحكم قوله من هذه القصيدة :

وكـل نفس في غـد ميـتـة فمنشـرة

فالنفوس لاتموت في غد فحسب ولقد ماتت نفوس لاتحصى أمس وأول من آمس وقبل ذلك بآلاف السنين وهي تموت اليوم بل الساعة . ولكن الرجل اشتهى أن يقول : ان كل نفس تموت منذرة غداً ــ فخانه الاداء وخذلته العبارة وهٍ لو استقامت له لما جاء بطائل .

وأما سائر أبيات القصيدة فلا فرق بين اثباتها وانتقادها وحسبنا ما شغلناه حيز هذه الصفحات بنقل شعر شوقي فلا نضرب في الهواء ولانطرح في البوتقة الحصباء ، والشعر اذا تساوى فيه النقد والاغضاء فخير منه الصحائف البيضاء .

* * *

ما هذا يا أبا عمرو ؟؟

مصطفى أفندي الرافعي رجل ضيق الفكر مدرع الوجه يركبه رأسه مراكب يتريث دونها الحصفاء أحياناً وكثيراً ما يخطئون السداد بتريثهم وطول اناتهم . وطالما نفعه التطوح وأبلغه كل أربه أو جله اذ يدعى الدعاوي العريضة على الأمة وعلى من لايستطيع تكذيبه فتجوز دعواه وينفق إلحافه عند من ليس يكرثهم ان يخدعوا به . بيد ان الاعتساف اذا كان رائده الخرق في الرأي وشيك ان يوقع صاحبه في الزلل احدى المرار فيضيع عليه ما لو علم انه مضيعه لفداه بكل ما في دماغه من هوس وما في لسانه من كذب ، وكذلك فعل ضيق الفكر وركوب الرأس بمصطفى الرافعي فحق علينا أن نفهمه خطر مركبه وان قدميه أساس مقاداً من رأسه لعله يبدل المطية ويصلح الشكيمة .

أصدرنا الجزء الاول من هذا الكتاب فكان مما نقدناه فيه نشيد شوقي وهو بعض ما ننظر اليه من شعره وجماع ما ينظر اليه الرافعي لانه لايبالي اذا سقط النشيد أن تحسب كل خرزة من بضاعة شوقي جوهرة وتقلب كل حنظلة من كلماته سكرة ؟ ؟ ولكنه مع هذا اللجاج المحدود والولع المحصور لم يفوق اليه من عنده مصمية ولا مدمية وسرق بل انتهب منا الكنانة والذخيرة فلم يدع في طبعة نشيده

الثانية وجهاً من أوجه النقد التي أتينا بها الا انتزعه وسدده وفاته ان القذيفة لايرمى بها مرتين ولاتصيب من منزعين . ولقد أحسن بنا الظن وأساءه فلم يستخن عنا ولم يقدر فينا التنبه إلى صنيعه ، وما له عافاه الله يقدر فينا السكوت عن سطوه علينا ونحن يسوءنا أن يسرق الناس من غيرنا ولانرضى اجتراءهم على غير سياجنا ؟ ؟

وليته اعتدل أو ترفق فيعذر بعض الاعذار ولكنه أذن لنفسه بغاية الافراط ولايريد أن يأذن لنا بسوى الغاية من التفريط . فبعض هذا يا أبا درويش أو يا أبا السامي كما تكنى نفسك أو يا أبا عمرو كما للجنة الأغاني في خطابك فان صاحب المساكين حرى أن لايغتصب بالسيف كما صنعت وفي رائعة النهار .

قلنا في نقد نشيد شوقي ان النشيد القومي يجب « أن لايكون وعظاً بل حماسة ونخوة وأن يكون موضوعاً على لسان الشعب » .

فرجع صاحبنا أبو عمرو إلى نشيده فحور منه ما استطاع بضمير المتكلم فقال :

إلى العــلا في كل جيــل وزمــن
فلــن يمــوت مجدنــا كــلا ولــن

وقد كان هذا البيت في الطبعة الاولى :

إلى العــلا في كــل عصر وزمــن
فلــن يمــوت مجــد مصــر لا ولــن

ولما ان طوي هذا الضمير ووثق مواراته ونفض عن يديه ترابه وقف بين الناس كأن لم يصنع شيئاً وصاح يؤنب شوقي لقوله :

ويسأله : « وممن هذا الوعظ يا ترى . أمن الشعب لنفسه أم من شوقي للشعب ؟ ؟ ص ٧٩ » كما سألناه من قبل : « فمن الذي يأمر المصريين هنا ويناقشهم هذه المناقشة ؟ ؟ » وكما أخذنا عليه « انه استوطأ مطية الفلسفة والمواعظ »

وأنكرنا من نشيد شوقي انه « قد حسب اننا سنظل طوال الدهر كدأبنا في يومنا هذا فنظم لنا نشيداً لانتخطى به في جميع العصور أن يتهيأ مكاننا وأن لانبرح نشرع في التمهيد ونأخذ في الاستعداد ونبدأ برسم خطط الملك ونهم بتشييد الاركان »

فجاء أبو عمرو الببغاء فقال « واذا قيل اليوم لبني مصر هيا مهدو للملك ومكانكم تهيا فهل يقال لهم هذا بعد مائة سنة وبعد ألف سنة وما شاء الله وإلى آخر الدنيا ولايزالون الدهر كله في تمهيد ؟ ؟ » ص ٧٨

وعقبنا على قول شوقي عن الشمس « ألم تك تاج او لكم ملياً ؟ ؟ ؟ » بأن الشمس « لم تكن تاج الفراعنة وانما كانت معبوداً لهم وكانوا يزعمون انهم من سلالتها »

فعلمت الببغاء أيضاً « ان زعم شوقي ان هذه الشمس كانت تاج أولية المصريين خطأ بين وانما كانوا ينتسبون اليها ويعبدونها؟؟»ص٧٩

فلله ما أعلم الببغاوات بالتاريخ اذا لقنته ؟ !

وعبنا على شوقي تخفيف الهمزات وانه صير « سئلت » سيلت و « تهيأ » تهيا و « شيئاً » شيا .

فلم ينسبها أبو عمرو وجعل يقول . « وهذا التسهيل في همزة سيلت لم يفهمه الا القليل وقد لقينا بالسؤال عنه طوائف من الاساتذة فما أدركوه وأصل الكلمة سئلت » ص ٨٢ .

فمذ الآن له مندوحة عن سؤال طوائف الاساتذة الذين لايدركون ما يدركه هو بهذه السهولة ! !

وروينا أن بعض الملحنين والظرفاء يستقبحون تلحين تطاول عهدهم عزاً و« فخراً » الخ الخ .

لان التنوين لابد أن يسقط في الانشاد فيخلفه المد وترجيع الصوت » قالوا « واذا انتهى المنشد مثلا إلى كلمة « فخراً » ومد بها صوته ورجعه فأي رائحة تفوح منها ؟ ؟ » ثم قلنا : » ولسنا نحن ممن يبالي بهذا النوع من النقد ولكننا نعذر المنشد » .

فروى هو كذلك عن الادباء والملحنين انهم « تنادروا بقوله فخراً وجعلوا الكلمة معرض نوادرهم وقالوا أنها مما لا يتذوقه أحد الشعراء من طعم كلامه »

ثم قال كما قلنا ولسنا بسبيل هذا السخف فلندعه »

أتراه كان يدعه لو كنا نحن لم ندعه ؟ ؟

واستضعفنا هذه المقطوعة :

لنـــا الهرم الـــذي صحـــب الزمانـــا
ومـــن حدثانـــه أخـــذ الامانـــا
ونحن بنـــو السنـــا العالي نمانـــا
أوائـــل علمـــوا الامـــم الرقيـــا

لان الناظم ساقها مساقاً ليس فيه « من نشوة الفخر ما تهتز له النفوس »

فاستضعفها صدانا الواقف لنا بالمرصاد وتلفت متعجباً : « كيف غفل شوقي عن أن يحتال للفخر بهذا المعنى الضخم » ص ٨٣

فاسأله بالله ثم اسأله كيف غفل أيها الراصد اليقظان ! !

ونقلنا عن بعض أعضاء اللجنة انه لما تليت هذه المقطوعة :

على الاخلاق خطوا الملك وابنوا
فليس وراءها للعز ركن

أليس لكم بوادي النيل عدن
الخ الخ

قال « ان البيت الثاني منبتر وسأل : ما العلاقة بين النصح ببناء الملك على الاخلاق وتشبيه وادي النيل بعدن والكوثر »

فترك هو القائل والراوي وزوى وجهه عنهما وصاح وحده : « كلام مقطوع عما قبله » وسأل من لدنه سؤاله : « فاذا كان لهم بوادي النيل عدن وكوثرها فماذا ؟ ؟ ص ٨٠

ونقلنا عن آخر نقده لهذا البيت :

جعلنا مصر ملة ذي الجلال
وألفنا الصليب على الهلال

ووافقناه فقلنا : « وهو انتقاد سديد فاننا ان سمينا الوطن ملة ذي الجلال فماذا يكون الاسلام والمسيحية واليهودية ؟ ؟ »

فوضع أصابعه في أذنيه — أو لم يضعهما — وأصر وولى واستكبر استكباراً وكأنه لم يسمع بهذا النقد فراح يقول :

فاذا « زعم انه يريد بملة ذي الجلال الدين مطلقاً قلنا له فان القوم على ذلك لايزالون بين مسلمين ومسيحيين واسرائيليين وكل هذه الاديان ملة ذي الجلال » ص ٨٤ .

هذا كله ولااشارة إلى الديوان ولاكلمة يستشف منها ان أحداً تقدمه إلى هذا النقد بل لعله قصد إلى ادعائه عنوة فكتب على الرسالة أنها طبعت في نوفمبر سنة ١٩٢٠ ونسي لغفلة ذهنه انه ضمنها في صفحة ٦٧ كتاباً للاستاذ منصور افندي عوض مؤرخاً في ١١ ديسمبر .

فهذا الخلق البغيض ونظائر من جرثومته هي التي تملأ نفوسنا تقززاً وعزوفاً من أدب الجيل الماضي وأدبائه ومن صناعة ينتسبون اليها ولكن ليس لها ما لأحقر الصناعات من حرم يرعى ودستور يفاء اليه ووازع يوقف عند حده — أرجحهم منها سهماً أجمعهم فيها بين استخذاء الجبن وصفاقة الادعاء ، وأرفعهم فيها اسماً أطبعهم على ضعة الحيلة وضنوف الرياء ، وشعارهم جميعاً نقيضان من شعور بالعجز وخيلاء ، وملق واستعلاء : صناعة لا واجب لها ولاحقوق لذويها ولانعرف غيرها من صناعة بلا واجب ولاحقوق ، وما على المحترف بها بأس من السماجة والافتراء ، وانما البأس كل البأس عليه من المروءة والحياء .

ولقد اتصلت بنا عن عرض كلمات نبس بها بعضهم في جلسة لجنة الاغاني فقيدناها وأبينا لأنفسنا أن ندخلها في كلامنا مع انها أهون وجوه النقد التي أخذناها على النشيد ومع اننا تحدثنا بها لأصحابنا ليلة اطلعنا عليه قبل توزيعه على الصحف وقبل ان نسمع حوار اللجنة

بصدده . وهذا رجل لايستحي ان يسم نفسه على غلاف رسالته « بنابغة كتاب العربية وزهرة شعرائها » يعمد إلى نقد مطبوع لم يفرغ الحديث فيه ولم ينقطع صاحبه عن اتمامة فينتحله جملة ولا يفات منه كبيرة ولاصغيرة حتى تسميتنا مشاهير المذهب العتيق بالأصنام (١) ثم لايرى ان عليه بعد ذلك ان يوحي بفرد كلمة اليه ولو من باب التاريخ لحوادث هذه الاناشيد ، كأننا حين كتبنا نقدنا في مصر كان هو يكتب رسالته في أقاصي الصين أو أطراف السويد . ولاندري وقد وثق من وجهه بهذه الصلابة من أين له الثقة بالتهاون منها والهضيمة ؟

ولما أراد أن يعتمد على نفسه في وجه من أوجه النقد لم نذكره، وظن انه فاتنا أبلغ في الفند والسخف فنعى على نشيد شوقي خلوه من لفظي الحرية والاستقلال (ص ٧٤) فمتى رأى هذا الأعمه أمة تتغنى بانها ليست ممن حرموا الحرية والاستقلال وتتيه في مفاخرها بما ليس يتحقق لها كيان بدونه .

ايه يا خفافيش الادب . أغثيتم نفوسنا أغثى الله نفوسكم الضئيلة ، لاهوادة بعد اليوم . السوط في اليد وجلودكم لمثل هذا السوط خلقت . وسنفرغ لكم أيها الثقلان فأكثروا من مساوئكم فانكم بهذه المساويء تعماون للادب والحقيقة أضعاف ما عملت لها حسناتكم ان كانت لكم حسنة يحسها الادب والحقيقة .

عباس محمود العقاد

---

(١) قال في صفحة ٦٩ « جهد أكثرهم أن يقروا أصنام الطبقة التي هم دونها ليكونوا بذلك أصناماً للطبقة التي هي دونهم » وقال في صفحة ٧٠ « وكم من صنم قد تغلغل باطله ونزغت شياطينه وانفرعت رذائلة فاذا ذهبت تصلح منه التوى عليك »

صنم الألاعيب

كتبنا كلمة أولى عن شكري في الجزء السابق أرضت اثنين : أهل المذهب العتيق البالي الذين كانوا يأبون الا أن يعدوا شكري من دعاة الجديد والا أن يحسبوه علينا ويأخذونا بشعره ولكن هؤلاء سخطوا من حيث رضوا ولم يرقهم أن يرونا نميط الاذى عن المذهب الجديد وننفي عنه وخامة شكري . وليس يعنينا أمرهم ولانحن نبالي سخطهم من رضاهم فانهم في رأينا جثث محنطة .

وثاني فريقي الراضين المتعلمون من أهل البصر والاتزان وسلامة الذوق والشبان السائرون على الدرب وهم من نرجوهم لصلاح الأدب ونفض غبار الماضي عنه . ولهم لالسواهم كلامنا .

أما فئة الساخطين فمؤلفة ممن يحملون على أكتافهم رؤسا وكأنما حملوا معدة أخرى لاعقلا يفكر وذهنا ينظر ويتدبر . وهم يطالبوننا أن لانشيم الخير من أحد وأن لايكون لنا رجاء في مخاوق مخافة أن يخيب هذا الأمل فنكون قد تناقضنا ووقعنا في محظور وجئنا أمرا يلزمنا عاره ويبقى وسمه ؟ ! فيا ويحنا لقد أسخطنا والله هذه المعدات الساغبة وهجنا ثعالبها اللاحسة بنقدنا شكري الذي « وضع أهم أحجار النهضة وضحى في سبيلها شخصيته وشهرته » ! ! كما يقولون .

ولكن لاضير علينا من غضبهم ولاداعي لهذا الغضب فانا لاننكر ان شكري « ضحى بشخصيته » !

مسكين هذا الصنم ! ! لايعرف لبكمه ماذا يقول . ويتطوع المشفقون عليه للدفاع عنه فيجيء دفاعهم أقتل له من نقدنا. وينقمون منا انا جعلناه صنم ألاعيب وهم يسخرون منه ويتضاحكون به . وماذا يجدى ذودهم عنه ؟ لقد كنا وكان شكرى . نخاص له النصح ونمحضه الرأي والسداد ونشجعه ونغتبط بما نراه من تململه من قيود العهد القديم ونعتد ذلك منه رغبة صادقة في التحرر ونجري مع الامل فيه فهل كان علينا أن نظل العمر طامعين في غير مطمع ؟ ثم أهملناه على شيء من اليأس منه ثم تخشنا له وعنفنا عليه في الزجر فلم يغن لا الاغضاء ولا اللين ولا العنف وظل سادراً راكباً رأسه حتى أحفاه ؟

ولقد كنا في كل ما كتبناه عنه في أول عهده بقرض الشعر لا نغفل إلى جانب التشجيع أن ننبهه إلى عيوبه فقلنا عنه لما صدر الجزء الثاني من ديوانه « انه يطأ مفاخر الصنعة بقدميه وانه « لايتعهد كلامه بتهذيب أو تنقيح ولايبالي أي ثوب البس معانيه» وعللنا يومئذ جموحه هذا بأنه « نتيجة طبيعية لتمادى الشعراء في المنهج القديم وبلجاجتهم في احتذاء المثال العتيق » أي أنه نتيجة رد فعل فهو تطوح وتطليق للعقل يقابلهما من الجهة الاخرى غطيط المقلدين في كهف الماضي وكان ذلك في ١٩١٣ فهل يرى أحد أن رأي اليوم لايتفق مع رأي الأمس ان صح ان هناك رأيين ؟ كلا لقد أدينا الواجب له وللأدب قديماً ولكننا اليوم نؤدي حق الادب وحده .

ومن المضحكات أن رسالة وردتنا بدون توقيع يقول فيها كاتبها « انك تتهم شكري بالجنون وأنت مثله والجنون في شعرك كثير » وما رمينا أحد بالجنون بل قلنا ان ذهن شكري يتجه أبداً إلى هذا الخاطر مكتظ به وان لهذا الاتجاه دلالته . على ان كوني مجنوناً لايشفع لشكري ولالسواه في شيء جل أو دق وما اتهمنا شكري ولاتقولنا عليه شيئاً ولكنه هو الذي يتهم نفسه بالجنون . ألم يقل في كتابه الاعترافات صفحة ٧١ »

« اني أسيء الظن بكل شيء سواء الحميد والذميم فلا غرو اذا رأيت في الضياء ظلاماً ورأيت في سواده ما يخلقه سوء الظن من الاوهام التي هي كخيالات الشياطين في ظلام الليل . ومن بلغ به سوء الظن هذا المبلغ يسمع همس شياطينه في أذنه فاذا تلفت إلى يمينه وجد سوء الظن يهمس في أذنه اليمنى واذا تلفت إلى يساره وجد سوء الظن يهمس في اذنه اليسرى ومن العجيب أن هذه الشياطين التي يخلقها سوء الظن لاتخفى قبحها لتخدعنا بل تظهر قبحها في حركات وجهها وجسمها (! !) هذه الشياطين هي الخواطر التي يهيجها سوء الظن تمرح في ظلامه كما يمرح الوطواط في الظلام وتؤدي بالمرء إلى الجنون (نعم قد عانيت من أجلها الجنون وجرعت كأسه المرة وبلغت أعماقه ولا أعني جنون من لايحس جنونه بل أعني جنون من يحس جنونه ويفكر فيه ويعرف أسبابه ونتائجه . ذلك الجنون الذي لاينسى المرء الذكر والأماني) أ . هـ .

فهل رأيت أيها القارىء أننا فيما كتبناه عن شكري أكثر اعتدالا منه هو نفسه واننا اذا كنا نبالغ في شيء ففي الحذر والاحتياط وفي التحرز من التعبير بأكثر من المراد وفي فرط توخينا للقصد وتحرينا للضبط والدقة ؟

ولقد قلنا ان شكري بدأ يجرب ما يسمونه هذيان الحواس وأوردنا شاهداً على ذلك وفي النبذة التي اقتطفناها من « الاعترافات » شاهد آخر فانه فيها يقول بأصرح لفظ « ومن العجيب ان هذه الشياطين لاتخفي قبحها بل تظهر قبحها في (حركات وجهها وجسمها) وليس هذا من المجاز في شيء فان صاحبنا شكري لم يدع سبيلا إلى هذا الفرض والتأويل فقد سد بابه باعلان دهشته والجهر بعجبه واستغرابه حدوث ذلك .

وهو القائل أيضاً في اعترافاته ص ١٠

« ويسمع المحب أنغاماً والحاناً (غريبة) لايسمعها غيره وليس لها وجود ويرى أشكالا هندسية بديعة لاتسمع عنها في كتب الهندسة ويرى أزهاراً خيالية لايعرفها الباحثون في علم النبات » فهو يسمع ويرى ما يعلم ان لاوجود له وفي هذا تأييد لقوله في وصف جنونه « ولا أعني جنون من لايحس جنونه بل أعني جنون من يحس جنونه ويفكر فيه ويعرف أسبابه ونتائجه »

وشكري قديم العهد بالشياطين والعفاريت قال في ص ٢١ من الاعترافات : لقد كنت في صغري كثير الاعتقاد بالخرافات وكنت ألتمس العجائز من النساء أسمع قصصهن الخرافية (حتى صارت) هذه القصص تملأ كل ناحية من نواحي عقلي (وحتى صارت) عالماً كبيراً ملؤه السحر والعفاريت وحتى صارت العفاريت حولي تحل حيث أكون وأذكر أني رأيت مرة عفريتاً على سطح منزلنا وكان أسود الجسم شخصه مثل شخص الانسان ولكن جسمه يعلوه الشعر الكثيف »

وليس ذلك في صغره فقط بل هو الآن بعد أن كبر وبلغ أشده كما كان في حداثته . انظر قوله في ص ٢٥ من الاعترافات :

« وفي بعض الاحايين أخاف خوفاً شديداً أن يظهر لي ابليس . . فأتلفت كي أثق انه لم يظهر بعد وفي بعض الأحايين أعتقد وجود العفاريت والجن كما كنت أعتقد في أيام صغري لقد سمعت البارحة القطط تعوي وتصرخ مثل عواء (المجانين) أو عواء الارواح الحائرة المعذبة (التي تتخذ الليل جاباباً ثم تفرغ في ذلك العواء ما تقاسيه من العذاب فلما سمعت عواء القطط كأنها الخرس اذا حاولت الكلام لم اشك في أنها عفاريت من الجن وأصابتني رعدة شديدة)

وتأمل تدقيقه في وصف هذه الارواح الحائرة التي يذكرها وكيف أنه لايجد تمثيلا لعواء القطط — لاعوائها — الا بعواء العفاريت وكذلك كل صوت في سمعه قال في ص ٢٦

« وقد سمعت مرة عواء الخنازير كأنها عواء جنية أصابها الموت في ولدها » وهو بعد يلتذ المرعبات كمنظر النار تأكل الدور قال في ص ٣٤ « أذكر أني رأيت مرة حريقاً هائلا في جنح من الليل فهيج في قلبي عواطفه ولم يهج سطح العاطفة بل هيج أعماقها وجعلت أشعر بالجلال جلال ذلك المنظر الهائل وبرقت عيناي حتى كدت أرى بريقها وصارت النار تأكل المنازل فتنهدم وتنهال وتتصاعد ألسنة النار والدخان يعلوها والظلام حولنا وعلى أوجهنا نور يزيدها شحوباً وكنت أحس لفح تلك النار في خيالي وذهني . . . هذه هي المناظر التي (ألتذها) ومن الغريب اني يخيل لي ان هذه المناظر وما تبعثه من

الاحساس تعين المرء على أن يفهم معاني الحياة ومعرفة سرها »

ثم تصور شكري واقعاً له ما يصفه هنا في اعترافاته ص ٧٢

« ما رأيت اثنين يتساران الا ظننت انهما يذكراني بسوء . . أو أحداً ينظر إلا حسبته يحدث نفسه عني بسوء واني لأسيء ظني الآن بمن سيقرأ هذا الكتاب وما رأيت أحداً ينظر في ثيابي الا حسبته رأى فيها شيئاً خفي عني وما رأيت أحداً ينظر في وجهي الا حسبته رأى فيه شيئاً قذراً وما رأيت أحداً عابساً الا حسبته يعبس من أجلي بغضاً أو حقداً وما رأيت أحداً باسماً الا حسبته يسخر مني ويهزأ بي وما سمعت ضحكاً لم أعرف سببه الاخجلت خجلا شديداً وحسبتني غرضاً لذلك الضحك (ومن أجل ذلك صرت أعبس في وجه كل من يبسم في وجهي من الناس الا من عرفت سبب ابتسامة وأحياناً أعرف سبب ابتسامة فلا يمنعني ذلك من اساءة الظن به) .

وليست خواطر الجنون وسوء الظن والعفاريت كل ما يملأ ذهن شكري فان فيه ناحية يشغلها خاطر الاجرام . قال في ص ٧٥ من الاعترافات :

« الفزع من التهم ضرب من سوء الظن والجبن لقد رأيت في الحلم البارحة اني اتهمت (كذباً) باتيان جريمة ولم يكن عندي ما أدفع به التهمة فصرت أصيح امام القاضي وأقول أنا بريء والقاضي يهز رأسه ولايصدقني والشاهد الكاذب يبتسم ابتساماً خبيثاً ثم رأيت بعد ذلك اني أساق للسجن والاعدام انه لحلم يفزع . . : اني لاذكر اني اتهمت (زورا وبهتاناً) في أيام صغري بسرقة علبة من الحلوى

ولا أزال أذكر ما نالني من الفزع أن تكون الحياة كلها تهم (كذا) باطلة : .. على انه من (جنون) اليأس والفزع والجبن توقع ما لم يحدث من المصائب وقتل النفس بهذا التوقع » .

ولاينبعي أن تفوت القارىء ملاحظة تنبيهه دائماً إلى أن هذه التهم مزورة كاذبة حتى التي حلم بها فإن لهذا الخوف منه أن يصدق القارىء ما يرويه معنى ولاشك .

وقال في ص ٨٥ « يحسب كثير ممن لم يتعود التفكير ان الناس منقسمون بفطرتهم إلى قسمين فهم اما مجرمون واما أبرياء وهذا نظر فاسد فان في نفس القديس جرثومة الاجرام . . أي الناس لم تخطر بباله خواطر الاجرام ولم يفرع مما يتحرك في نفسه من حشرات الشر . : لقد مرت بي ساعات كنت أحس فيها تلك اللذة التي تدفع المرء إلى الشر فان الجريمة مثل السراب اللامع والحياة كالصحراء القاتلة الحرارة والمرء فيها كالمصحر الظمآن يليح له سراب الشر (بضيائه) فيريد أن يروي ظمأه وينقع غلته . : أنا اليوم برىء ولكن ما يدريني ربما كنت في غد مجرماً ربما تحركت عوامل الشر التي في نفسي . . وكنت أشفق على المجرمين واملأ لهم قلبي رحمة فانه لايحزنني في الحياة مثل رؤية آثار التعاسة التي يجلبها الاجرام للمجرمين. لقد رأيت في الحلم مرة أني   جريمة القتل ثم وقفت أمام جثة المقتول وقد احسست دواراً وصار العرق يتصبب على جسمي وكنت أحس جريه كانه دبيب الحشرات وقد جمد الدم في عروقي واسودت الدنيا في عيني وكلما أردت أن أتنفس أحسست شيئاً يسد مجرى النفس

وكنت أحس صوتاً كأنه صوت أعصابي تتقطع فيحكي صوت تقطع أوتار العود وكنت يخيل لي كأن يداً من جليد قد وضعت على ظهري هذه هي الاحلام التي تمكن الأديب أن يعدم شخصه في أشخاص غيره وان يلج إلى أرواح الناس وعواطفهم وان يرحم المجرم كما يرحم التعيس . »

وقال في ص ٦٢ « ليس من سبب لبغض المنتحرين وانتقاصهم الاحب الاحياء أنفسهم وخوفهم من الموت . لقد حاولت مرة أن أنتحر فراراً من سلطان القضاء فأخذت سكيناً وأدنيتها من صدري ثم قدرت مكان القلب وقلت هنا ينبغي ان أضرب نفسي الضربة القاضية فلم تهن على نفسي فقلت الليلة الآتية أفعل ذلك ولما أتت تلك الليلة أرجأت الانتحار إلى ليلة أخرى حتى أفكر في طرق الانتحار وأختار منها واحدة » .

وقد فكر في الانتحار مرة أخرى لسبب هذا خبره قال في ص ٩٦ « اني لاأزال أذكر ذلك اليوم النحس الذي لطمني فيه شقى لم يكن يدري مبلغ اساءته فرفعت يدي لألطمه ولكن الجبن وأخاه الحزم همسا في أذني قائلين انك اذا لطمته لطمك مرة ثانية وهو أقوى منك فلا تصيبه الا ببعض ما يصيبك فخير لك أن تتحمل اللطمة الأولى وان تنجو سليماً فوقعت يدي إلى جانبي وأحسست أن روحي قد سلبت أجل شيء فيها فنظرت إلى ما بين قدمي لارى ما سقط منها من العزة والانفة والشجاعة ثم أحسست كأن عظامي قد احترقت ولم يبق الا رمادها وخارت قواي وعرتني حيرة وشككت في الحياة فجعلت أعدو من الغيظ وقد اسودت الدنيا في عيني وجعلت أنظر إلى المارين

وهم ينظرون إلى فارميهم بلحاظ المقت والكره لاني كنت أحسبهم يسخرون بي ويعرفون ما حدث لي ويفهمون سر روحي التي أهينت ولم تعد تصلح للحياة ثم وقفت على غدير رهممت أن أرمي نفسي فيه ولكني هزأت بنفسي تلك النفس التي تفر من اللطام إلى الحمام ثم ذهبت إلى البيت . . . وخطر لي (أن أتأبط سكيناً أو مسدساً وأانتقم من ذلك الشقي فأقتله (ولكن الحزم والجبن وهما سميراي ونصيحاي ألاحا لي بالقضاء والمحاكم فجعلت أقرض اسناني من الغيظ حتى تكسر بعضها وكنت في حالة من حالات (الجنون)أ.هـ .

على أنه تشجع مرة بعد هذه واراد ان يظهر انفته وعزة نفسه فوقع له هذا الحادث المضحك نرويه تفكهة بعقب هذه المرارات قال في ص ٩٨ :

« فلما احتدم الجدال بيننا وخفت ان يبدأ اللطام بدأته به فان المبادرة نصف الظفر فبادرته بلطمة بين عينيه وكنت اريد ان يخر مغشياً عليه منها ولكني خفت ان أفقأ عينه او أن اصيب احد اعضائه بتلف دائم او ان تكون ضربتي هي القاضية فتعود بالطامة وبالعقاب الشديد كل هذه الخواطر جالت في ذهني عندما سددت يدي لألطمه ومن أجل ذلك لم يكن وقع اللطمة عليه شديداً فمد إلى يده باللطام ولكن يخيل لي انه لم يخش ما خشيت من العقاب وانما استنتجت ذلك من وقع لطماته فانصرفت بأنف مهشم وعين سوداء حمراء زرقاء كأنها قوس قزح »

* * *

وقلنا عن شكري انه ابكم فكأننا اخترعنا شيئاً وحسب البعض ممن يظنوننا نلقي القول على عواهنه ولانبالي اين وقع من الحقيقة اننا نستطيل بلساننا عليه مبالغة في ايجاعه وتنقصه والزراية عليه ولهم العذر اذ ما ادراهم انه هو القائل في ص ٣٩ من الاعترافات :

« اني في خلوتي بنفسي أعد الكلام البليغ والحجج الراجحة والكلمات البليغة واتخيل محادثات تجري بيني وبين الناس تكون كل كلمة من كلماتي فيها آية من آيات البلاغة ولكني اذا لقيت هؤلاء وحادثتهم لم أجد في كلامي هذه الآيات البينات . ثم اذا خلوت بنفسي بعد ذلك أقول كان ينبغي أن أقول لهم كذا وكذا فينطلق لساني بالكلام الفصيح البليغ . ولكن أي مزية في أن يكون المرء (عييا) في المجالس فصيحاً في الخلوات ؟ ؟ وهذا سبب من اسباب انفرادي ووحدتي ويرى الناس (سكوتي) ووحدتي فيحسبون حياتي هادئة مطمئنة »

وليس الأمر عنده من قبيل صمت المفكر او المحزون أو قليل الكلام في العادة بل هو داء قديم مستعص قال في صفحة ٤٧ من الاعترافات :

« لقد كنت في صغري كثير الحياء وكنت انظر إلى جرأة أترابي من الغلمان (وحسن لهجتهم) واعجب بها واتمنى ان اكون مثلهم ، اذكر ان ابي زار بي صديقاً له من الفرنسيين وكنت صغير السن وكان لصاحب البيت ابن في عمري فجاء الغلام وصافحنا وحيانا

(بفصاحة وطلاقة ورشاقة) اعجب بها الحاضرون وصاروا ينظرون إلي ويضحكون »

ولانظن بنا الآن حاجة إلى استقصاء « الجنون » في شعره بعد اقراره به وتقريره أنه جرع كأسه المرة وأنه وصل إلى اعماقه وانه يحس بجنونه ويعرف اسبابه ونتائجه لاكأولئك البيمارستانيين البلهاء، الجهلاء الذين لايعرفون أنهم مجانين وفي الناس كذابون حتى على انفسهم ولكننا عاشرنا شكري أعواماً طويلة وخالطنا وبلوناه ولانراه بالغ في شيء مما وصف به نفسه بل لعله آثر السكوت عن أشياء يعرفها عنه كثير من خلطائه وملابسيه . ولايمكن ان يقال في الرد علينا وفي تبرئة شكري مما قرف به نفسه ان « الاعترافات » صاحبها رجل آخر اسمه م . ن وان شكري ليس الا ناشر لها فان هذه الاعترافات ليست الا طائفة من المقالات لايربطها شيء الا ضمير المتكلم وقد نشر شكري أكثرها « الجريدة » بين ١٩٠٩ و ١٩١٣ بتوقيعه على أنها له ثم عاد فجمعها في كتاب طبعه في ١٩١٦ ويرى قارىء الاعترافات أبيات شعر كثيرة واردة في أثنائها وفي الهامش أنها من شعر المؤلف وصاحب الابيات هو شكري وربما ذكر اسم القصيدة التي هي منها وقد يعين الجزء من ديوانه الذي وردت فيه .

ومما هو خليق أن يبعث القارىء على الركون إلى هذه الاعترافات وتصديقها انه يجد مصداقها في شعره فكما انه قال في الاعترافات ان في نفس القديس جرثومة الاجرام كذلك قال في شعره « فقد أغرم الانسان بالشر والاذى » وقال :

كل نفس فيها إلى الخير والشر
دواع طويلة الاغفاء

وقال معترفاً انا اليوم بريء ولكني ربما كنت في غد مجرماً ومن شعره :

ربما شب بين جنبيك للشر
ضرام ما ان له من فناء
انت في اليوم واسع الجاه غض ال
خير لدن الرخاء رطب الرجاء
خالص الكف من دماء قتيل
أبيض الطبع لم يشب برياء
ربما كنت في غد اشعث الطب
ع اثيم الخصال جم الشقاء
خاضب الكف من دماء عدو
طائر الضغن ثائر الشحناء

وقلنا ان ذهنه مشغول بخواطر الاجرام والقتل وأوردنا نبذاً من اعترافاته وفي شعره شواهد كثيرة على ذلك فمنها قصيدة « الزوجة الغادرة » وهي قصة امرأة أرادت أن تسمه فسمها هو :

وهي قد أفرغت لي السم في كوبي
وقامت تمر غير بعيد

ثم غافلتهـــا وافرغـــت كوبـــي
فـــوق مـــاء بنكويهـــا منزور

ثم نلنـــا مـــن الطعـــام بـــلاغـــا
وشربنـــا برءاً مـــن التصريـــد

ثم جـــاء اليـــوم الجديـــد فنامـــت
زوجـــي الرود نومـــة المقبـــور

فعـــل السـم فعلـــه في حشاهـــا
ودهاهـــا مـــن الردى بقيـــود

ومنها قصيدة عنوانها « ام اسبرطية قتلت ابنها » وهو فيها يبرر هذه الجناية لأنه فر من الحرب قال وقد نسي انه هو أيضاً جبان حتى في مواطن « اللطام » :

أيها الخائـــن الجبـــان خشيـــت الـ
ـمـــوت والمـــوت حادث مقـــدور

ان امـــا تعـــزي لهـــا قتلـــت في
قتلك العـــار لم يصبهـــا معيـــب

ومنها قصيدة اسمها « قبلة الزوجة الخائنة » :

قـــد قبلتني قبلـــة مـــرة
كأنهـــا مـــن حمـــة العقـــرب

تنهش جاهـا لم يكـن نهـزة
لشاحـذ الأنيـاب والمخالـب

لـولا وميـض الرأي يقتادنـي
يعيذنـي مـن سفـه المغضب (! !)

جللتهـا بالسيف أمحو بـه الـ
ـذنـب بذنـب رائـع معجـب

وتأمل في هذه الابيات همس « الجبن وأخيه الحزم » وكيف انه يصف الجريمة بأنها رائعة معجبة . ومنها قصيدة العقاب بالقتل وفيها يعذر المجرم .

أطيلـوا حيـاة الجارميـن فانهـا
حيـاة اذا سـد المطامـع عاقـر

لقـد أخلفتهـم بلغـة العيـش برهـا
زمانـا وحاجـات الحيـاة غوادر

فبئـس حياة المـرء والفقـر عاكف
عليـه وأسباب الحيـاة جرائـر

هنـا لك انـي للفقير لعـاذل
وانـي لـه ممـا يعانيـه عاذر

كأن كل من يجرم يكون باعثه الفقر والخصاصة ! وله عدا ذلك أبيات كثيرة في تضاعيف شعره كقوله يخاطب حبيبه :

فلو كنت بين الناس ربا معززاً
ونادوك أنني فاتك النفس جارم

لألفيت غفراناً لديك ورحمة
فما يغفر الزلات الا الاعاظم

وقوله :

رحت أسعى كمصحر بان عنه الـ
صحب فردا ذا وحشة واطراح

أو كذى الجرم حين طال به السجن
يضل الطريق عند السراح

وقوله :

كأن هموم المرء ذئب مراوغ
فيا بؤس مقتول ويا بؤس من نجا

وفي اعترافاته انه يحلم بانه اتهم بارتكاب الجنايات وكذلك في شعره :

يرى الناس ان النوم أم رحيمة
ولكن نوم الجارمين عقاب

يسل على الحلم اسياف نقمة
فاحلام نومي كالجحيم عذاب

وكم هدمن عزم صليب عذابها
فليس إلى الخال القديم اياب

فلا تحسبن الشر يمحى بتوبة
وان غفر الجرم العظيم متاب

يواقع كل الناس بالفكر شرهم
وقد عابني أني جرؤت وهابوا

وكم حدثت بالشر ذا الخير نفسه
وذاك حديث ما عليه عقاب

وقد شبه في اعترافاته الجريمة بالسراب وجعل للشر ضياء وكذلك فعل في هذه القصيدة :

ظمئنا فخلنا الشر في العيش منهلا
ولكن ورد الجارمين سراب

وقد حدثته نفسه بقتل حبيبه وبرر ذلك ولم ير فيه مأثماً :

وان بقلبي من جفائك (جنة)
فان رام يوماً قتلكم ما تأثما

فاسقي جنوني من دمائك جرعة
وهيهات يجدي القتل قلباً مكلما

إلى آخر ذلك فان المقام يضيق عن تقصيه وما بقى من شك في ان الرجل ممسوخ الطبيعة :

هذا هو شكري قد رسمنا لكم صورته بقلمه وهذه هي صفاته وميوله ونزعاته واتجاهات ذهنه وكلها شاذ غير مألوف في الفطر السليمة والطباع القويمة كما نعرفها ويعرفها الناس، فهل بالغنا ؟ اللهم لا ! وهل يخرج ممن كانت هذه حالة شعر سليم ؟ كيف والطبع أعوج والذهن مقلوب والعين تنظر إلى الحياة من منظار معكوس يريها الأشياء عن غير حقيقتها وعكس نسبها وعلاقاتها ؟

ابراهيم عبد القادر المازني

* * *

الفهرس

٣٠٠٠٠ ط١ ١٩٩٦/٣/

قضايا وحوارات النهضة العربية

نظرية الشعر

٢- كتب مدرسة الديوان

كانت مدرسة الديوان النقدية، أول اتجاه نقدي عربي في العصر الحديث قاد حركة التجديد في النقد الأدبي عموماً، والشعري خصوصاً، وقد بدأت هذه المدرسة أوائل هذا القرن بمجموعة من الكتب، ونصدرها في هذا المجلد وهي:

١- الشعر: غاياته ووسائطه (١٩١٥) - ابراهيم المازني
٢- شعر حافظ ١٩١٥ ، - ابراهيم المازني
٣- الديوان (جزءان) ١٩٢١ - ابراهيم المازني
- عباس محمود العقاد

بعد ذلك سيصدر في مجلد مستقل الكتابات والمقالات النقدية لمدرسي الاحياء، ثم الديوان التي كان ثورة على مدرسة الاحياء

قضايا وحوارات النهضة العربية
يشرف على السلسلة: محمد كامل الخطيب

طبع في مطابع وزارة الثقافة
دمشق ١٩٩٦

سعر النسخة داخل القطر
٢٢٥ ل.س

في الاقطار العربية مايعادل
٤٥٠ ل.س